الأعلام

١

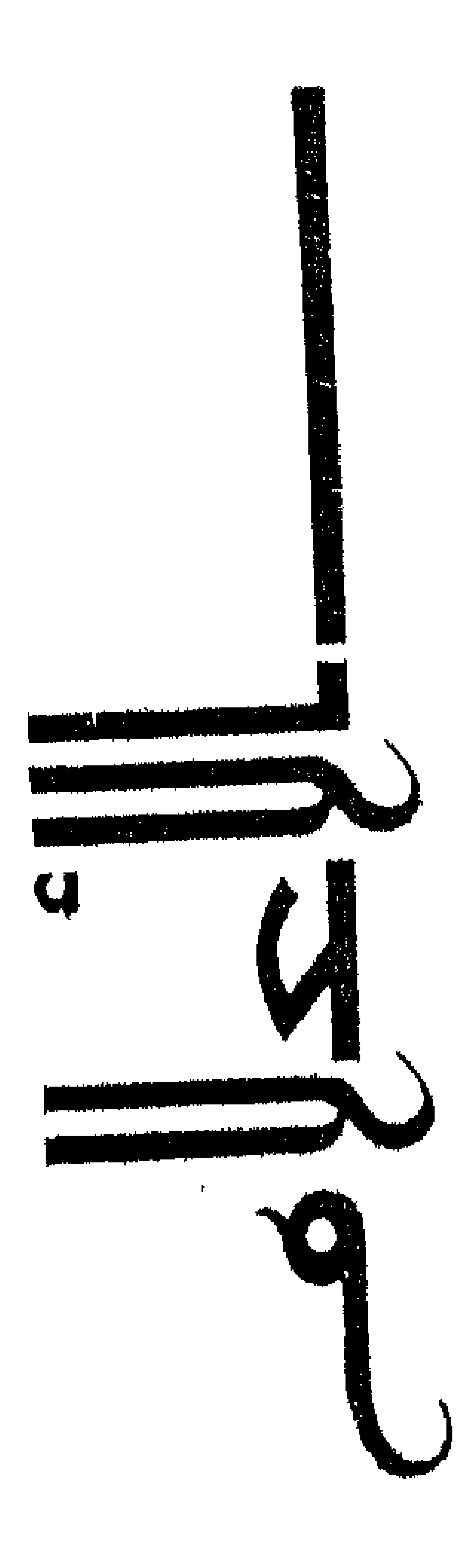
منصور الأندلس

على أدهم

إهـــــــــداء٢٠٠٨

المستشار/ عادل عبد الرحيم غنيم

القاهرة



● منصور الأندلس

الأعلام

١

منصور الأندلس

علي أدهم



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٧٤

مقدمة

المنصور محمد بن عبد الله بن أبى عامر أعظم رجال الأندلس في النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى ، وأقدر وزرائهـا ، وأرجحهم وزناً ، وأبعدهم غوراً ، وأسماهم عبقرية ، وأسيرهم ذكراً ، وهو أحد الثلاثة الأفذاذ المعدودين فى تاريخ الأندلس السياسى ، والآخران هما عبد الرحمن الداخل ـ صقر قريش ـ والخليفة عبد الرحمن الناصر ، واذا عد رجال الدول الاسلامية من أهل السياسة والحرب كان المنصور من غير شك علماً من أعلامهم ، وقطباً من أقطابهم ، وتطالعك شخصيته الباهرة من خلال صفحات تاريخ الأندلس مشرقة الروعة ، متألقة العظمة ، وقد أنافت على عصره ، وحجبت غيرها من الشخصيات ، واستأثرت بالميدان ، وتفردت بالسبق والغلبة ، وهى شخصية طريفة أصيلة ممتازة ، قليلة النظير ، أو حديثة الطراز ، وهو أحد كبار المخاطرين النوادر فى دنيا الأعمال ، وعالم الحركة والنشاط .

وقد استرعت نظرى قصة حياته ، وما اشتملت عليه من

الدلالات البليغة ، والعبر الصالحة ، واجتذبت اعجابى منذ سنوات طويلة ، فعكفت على تتبع سيرته ، واستقراء أخباره ، وتمحيص حقيقته ، واستجلاء عبقريته ، وتفهم نفسه ، وتمثل شخصه ، وكانت تخالجنى فى أثناء ذلك مشاعر مختلفة ، وتضطرب فى نفس خواطر كثيرة ، ويرى بعض المفكرين أن الطريقة المثلى لمحاولة فهم أى شخصية من الشخصيات ، وتقدير أعمالها ، هى أن نتحامى جهد الطاقة الوقوع تحت تأثيرها ، والوقوف فى ظلالها ، ولكنى أرى أن التأثر بالأشخاص الذين نحاول أن نترجم لهم ، ونفهم طبائعهم مزية من المزايا ، ولازمة من اللوازم ، بل لابد لهذا التأثير من أن يبلغ مداه وينتهى الى غايته ، ولعلنا بعد ذلك نكون أقدر على الفهم ، واستكناه البواعث ، ومعرفة الدخائل ، وأعلم بنواحى القوة والضعف ، والفهم الصادق ثمرة العطف البصير ، ونتاج المعرفة الصميمة .

وفى تاريخ العالم لونان من العظمة بارزان ، أحدهما عظمة المردة الجبابرة الذين استطاعوا أن يحولوا مجرى التاريخ ، ويغيروا محوره ، وينقلوا الانسانية من طور الى طور ، ومن هؤلاء الاسكندر ويوليوس قيصر ونابليون ، والآخر عظمة الذين قدموا للعالم قيما أخلاقية مستحدثة يسترشد بها الناس، ويتخذونها قانوناً لحياتهم ، ودستورا لتنظيم علاقاتهم بالكون والأبدية ، مثل بوذا وعيسى ومحمد ، ولم يكن المنصور بن أبى عامر من أحد هذين

الطرازين ، ولكن أكثر مشاهير العالم وأعيان الانسانية يقتربون من أحد هذين النوعين بنسب متفاوتة ، ولاريب فى أن المنصور كان أقرب الى طراز رجال العمل والحركة منه الى طراز رجال الروح والفكر •

وليس المنصور من باعثى النهضات ، وخالقى العصور الذين يبدءون صفحات جديدة فى كتاب التاريخ العالمى ، وانما هو من الرجال الذين يظهرون فى المرحلة الأخيرة من مراحل احدى الحضارات ، أو قرب خاتمة عصر من عصورها ، فهو يختصر فى سيرته ذلك العصر ويلخص ذلك الدور من أدوار الحضارة ، ويؤكد ملامحه ، ويوضح خصائصه ، ويجلى مزاياه ، ويكشف عن قوته وضعفه ، وخيره وشره ، ومثل هذا الرجل لا يخلق جديدا ، ولا يبتكر شيئاً ، وانما يتبع برنامجا سياسيا ، وينفذ خطة عملية ، ويحقق طموحا ذاتيا ، ومصدر قوته ايمانه الشديد بنفسه ، وفهمه المباشر العميق لروح عصره ، وبقوة هذا الايمان وصحة هذا الفهم قد يستطيع أن يعمل العجائب ، ويأتى بما يشبه المعجزات ، ولكنه لن يبدأ عصرا جديدا لأنه لا يستطيع أن يغير ماهية الأشياء ، أو أن يكلف الأيام ضد طباعها ، وهو يحمل معه الى قبره كل قوى عصره الخالقة التى استمد منها مجده وقوته ، والواقع أنه بموت المنصور انتهت عظمة المسلمين فى الأندلس ، وطويت أيامهم السعيدة ، وبدأ دور الانحلال والاضمحلال ، وتصدع البناء وتفكك الأواصر ،

وزوال الوحدة ، وانتهى هذا الدور بتشريد المسلمين وجلائهم عن الأندلس مقهورين مدحورين ، بعد أن تعرضوا لألوان من المآسي الفاجعة ، والنكبات الصادعة .

والكثيرون ممن يكتبون سير العظماء قد تسدر أبصارهم العظمة فتختل موازينهم ، وتتناقض أحكامهم ، وينحرفون عن الحق، ويجانبون الانصاف ، ويميلون مع الهوى والتعصب ، وربما كان من المناسب فى هذا الطور من أطوار حياتنا السياسية والأدبية فى الشرق أن نتعصب لرجالنا البارزين الذين طواهم الموت ، والذين نحاول أن نفاخر بهم ، ونتغنى بأمجادهم ، ونعتز بمواقفهم ، ونتخذهم حجة لنرد عن أنفسنا تهمة التخلف والتقصير ، وكان يسرنى أن يسيغ طبعى هذا اللون من ألوان الحماسة السخية ، ولكن تحرى الحق – أو ماهدانى بحثى الى الاعتقاد بأنه الحق – آثر فى نفسى وأحب الى ، ويظهر أنى ، على كثرة ما لقيت فى الحياة من تقشع الأوهام ، لايزال عندى من البساطة ما يجعلنى أعتقد أن العالم سائر فى طريق النزاهة ، وطلب الحق الصراح ، وقد جعلت نصب عينى محاولة فهم الرجل ، وتوضيح أغراضه ومراميه ، ووصف سياسته وأساليبه العملية ، والظروف التى ساعدت على تكوين شخصيته ، وابتناء مجده ، وافساح المجال لمواهبه .

ولم أحاول أن أصوره ملاكاً طاهراً ، أو قديساً متألهاً ، أو بطلا خالص البطولة ، نقى النبل ، كبير القلب ، وليس لزاما على

كاتب السيرة أن يدبج المديح ، ويصوغ عقود الثناء ، أو أن يقف موقف الدفاع والمنافحة ، ولو تصورنا المنصور على هذه الصورة لوجدنا له أعمالا لا تتفق مع مقتضيات البطولة ، ومستلزمات النبل ، واضطررنا الى أن نتكلف الاعتذار عن بعض أساليبه الملتوية ودسائسه ومؤامراته ، وألاعيبه السياسية ، وأفانينه فى الدهاء ، ودفعنا دفعا الى تسويغ أخطائه ، وزخرفة جرائمه ، وستر كبائره ، على أن اخفاء نواحى الضعف فى البطل أو الاغضاء عن هفواته وهناته هو - الى حد ما - محاولة لتجريده من انسانيته ، وجعله شبحا من أشباح الوهم ، أو طيفا من أطياف الخيال ، وكذلك نخطىء الفهم ونسيء الى الحقيقة اذا تصورناه شيطانا مريدا ، وسفاحا مقبوح الطوية ، منتكس النفس والغا فى الدماء ، فان الرجل لم يكن من هذا الطراز المسيخ ، وقد كان على قسوته وجبروته شديد الشعور بالعدالة ، متوخيا المصلحة العامة ، عاملا على رفع شأن أمته ، واعزاز دينه ، ولكنه كان لا يرحم أعداءه ولا يلين لهم ، ولا يبقى على منافسيه أو يترفق بهم - ولا ينام عن تقرير سلطانه ، وفرض شخصيته ، وشق طريقه ، وفى سبيل التمكين لملكه ، والجلب على أعدائه كان لا يميز فى بعض الأحيان بين المحظور والمباح ، وينتقل الى ما يسميه الفيلسوف الألماني نيتشه « ما وراء الخير والشر » .

ولم يكن المنصور يصطنع الخداع حبا للخداع فى ذاته ، ولذا لم يكن دائم الخداع ، ملتزما للخب والرياء ، ولم يخدع

الكثيرين ، ولكن الأفراد الأقلاء الذين خدعهم وغرر بهم كان مستقبله السياسى يتطلب ذلك ، وأكثر ضحايا خداعه كانوا يتنبهون لخديعته بعد فوات الأوان ، ولعل غالبا الناصرى بطل الأندلس فى أوائل عهد المنصور وشيخ قوادها كان الوحيد الذى أخذ حذره ، وتأهب فى الوقت المناسب ، ولكن الحظ خانه وحالف المنصور .

وادعاء الانسان خليقة من الخلائق والتظاهر بها ملاوة من الدهر ، والعمل فى الوقت نفسه على نقيضها لعبة يستطيعها كل من أوتى شيئا من القدرة على التمثيل والمداورة ، ولكن الفنان البارع فى الدهاء يستطيع أن يحمل الناس على تصديقه والثقة به ، والاعتماد عليه بعد تبين بطلانه ، وظهور فريته وافتضاح سره المرة بعد المرة ، واتخاذ ذلك سياسة متبعة وخطة مرسومة ، والسير بمقتضاها بلا تردد ولا انحراف قدرة أوتيها القليلون الذين أجادوا هذه التجارة ، وأحسنوا هذه اللعبة ، ومن هؤلاء القليلين ريشليه وبسمارك والمنصور بن أبى عامر .

وقد شاع فى الثلث الأول من القرن الراهن الأسلوب الروائى فى كتابة السير والتراجم ، وكان أكبر باعث عليه الحرص على الافتنان والتشويق والاحتيال على الاغراء ، ومنافسة الرواية والقصة فى الرواج والذيوع ، ولانزاع فى أن من حق كاتب السيرة أن يفيد من أسلوب الرواية وطريقة القصص ، وينتفع منه بالعناصر الملائمة لموضوعه ، لتدعيم بعض المواقف ، وتجميل سرد

الحوادث ، ولكن الاسراف فى اتبـاع هذا الاسـلوب لا يخلو من خطـر ، وذلك لأن الروائى يستمتع بمزية لا يسـتطيع المؤرخ أو كاتب السيرة أن يجاريه فيها ، وهى مزية الاحاطة بالتفصيلات ، والعلم بـكل شيء ، والروائى لا يكتفى بوصف الملامـح العـادية لأبطاله ، ومظاهر بيئتهم وسائر أحوالهم وصفا مفصلا ، بل يتغلغل بنا الى مسارب نفوسهم ، ودخائل عقولهم ، ومستودع أسرارهم ، والمؤرخ الذى يحاول اتباع هذا الاسلوب لا مندوحة له عن أن يظهر بمظهر الملم بكل كبيرة وصغيرة ، والذى لا يند عن علمه شيء ، وهو موقف باهظ التكاليف ، جم الأعبـــاء ، كثير المزالق ، غير مأمـون العثرات ، ويفرض على المؤرخ فى بعض الأوقات أن يغـوص فى الأوهام ، ويمعن فى الخيـال ، ليســـد الفجوات ويملأ الثغرات ، ويحقق ما أخذ به نفسه ، ووعد به قارئه ، وسيضطر الى التزام ذلك على وجه الخصوص فى النواحى التى لا تسعفه فيها الوثائق والأسانيد، ولاتلبى طلعته الروايات المدونة ، والأخبار المأثورة ، ولهذا النوع من الكتابة سحره الأخاذ وفتنته المغرية ، وقد ينفى ما به من الزغل مقدرة الكاتب وعلو بيانه ، ولكن عيبه الأصـــيل هو طغيان جانب الرواية على جانب التاريخ ، وقد أبحت لنفسى ما يجوز للمؤرخ ، وهو تفصيل المواقف وتلوينها بما لا يخرجها عن طبيعتها ، ولا يجردها من جوهرها ، متحريا الاعتماد على أوثق المصادر الميسورة ، وعملت على تفسير الحوادث وتمحيصـها بما تتسـع له طاقتى ، ويبلغ اليه

علمي ، وقد همني أن أكون مؤرخا مدققا قبل أن أكون روائيا شائقاً .

ومن أبطال التاريخ من نلتمس في حياتهم الضوء الذى يعيننا على السير فى الظلام المدلهم ، ويؤنس وحشتنا ، ومنهم من نلتمس فى حياته القوة التى تعيننا على القاء الصعاب ومواجهة الأزمات . وحياة المنصور انموذج فى ابتغاء طلب القوة ، والعمل على تحقيق أسبابها ، واستيفاء عناصرها ، ويرى بعض المفكرين أن حياتنا في هذه الدنيا رحلة من عالم مجهول الى عالم آخر مجهول ، وأنه ليس من المناسب والمقبول أن نكتفى بطلب القوة والتماس أسبابها ، والبحث عن الشهرة الواسعة والجاه العريض والمتعة والثروة بدلا من نشدان الكمال ، وصفاء النفس ، وخلاص الروح من رق المطامع وأسر الأهواء ، ويرى أصحاب هذا الرأى أن السعى وراء القوة هو رغبة منتكسة في الحرص على الحرية ، وضمان الخلاص ، وأن الذين يشتاقون الى القوة ، ويتحرقون على الظفر بها في نفوسهم زيغ ، وفى قلوبهم مرض ، وفى طبائعهم عقد ، وماذا يجدى على الانسان اذا كسب العالم جميعا وخسر روحه !

والحقيقة أن طلب القوة من حيث هو رغبة غامضة من شيم النفوس ، ولكن الرغبة فى القوة من حيث هى عاطفة مسيطرة ، ونزعة عارمة جبارة من أندر الصفات ، والرجل العادى يطلب القوة ، ولكنه لا يتسلح بالشجاعة الكافية ، ويتوق الى السيطرة

ولكنه لا يريد أن يحمل التبعة ، وينزع الى النفوذ ، ولكنه لا يريد أن يضني نفسه بالعمل المتواصل والارهاق المستمر ، والقوة لا ينالها العابثون اللاهون ، وقد يظفر بها من يوفي لها حقوقها ، ويقدم لها فروضها ، وقد كان المنصور كلما عظم نصيبه من القوة كثر همه ، وارتفع الى مستوى ما يحمل من تبعة ، فحياته من هذه الناحية قدوة المقتدى ، ومثل شرود ، وآية بليغة نادرة ، وكان لايريد القوة ليتخذها ذريعة للعيشة الرافهة ، أو الانغماس في اللهو والمباهاة بمباشرة السلطة وتصعير الخد ، وانما كان رجل جد واقدام، أبلى جدة شبابه ، وأفنى زهرة عمره ، في الاضطلاع بالأعباء الجسام ، وظل مجاهدا بفكره ويده حتى قضى في ميدان الجهاد ، وقد استلب سلطة الخليفة هشام ، ومات وزمامها في يده ، بل ورثها ولده من بعده ، وذاد عنها في حياته أقوى ذياد ، ونافح أقوى منافحة ، ورفع علم الاسلام عاليا خفاقا ، ورد عنه اعتداء المتألبين عليه ، وفل جموعهم ، وخضد شوكتهم ، وغزاهم في أعقار دورهم ، وفرض عليهم الجزية والاعتراف بسلطته وطاعته ، وأوقع الرعب في قلوبهم حتى صار ملوكهم يصهرون اليه ، ويتحرون مواقع رضاه ، ويمشون في ركابه ، وينقادون له ، وقد ثبت مكانة المسلمين في الأندلس ، وصان مدة سنين طويلة حضارتهم الزاهرة ، فهو جدير بالاجلال والتوقير وان كان فيه بعض النواحي التي لا تستدعي الحب ، ولا تستأهل الاعجاب ، وقد أسعفته الأقدار ،

وحاربته الظروف من ناحية ، وبذل هو من ناحيـة أخـرى جهداً جباراً ، واستغل ملكاته العظيمة ، وعبقريته الصـادقة ، ولقد قال دالمبير « شيئان يستطيعان أن يصلا الى قمة الهرم ، النسر ، والحشرة الزاحفة » وقد كان فى المنصور صبر الحشرة الزاحفـة ومثابرتهـا ودءوبها ، وكان فيه من النسر المحلق قدرته على التدويم والتحليق والانقضـاص ، ولذا كان وصـوله الى القمة ، وبلوغه الذروة حتما مقضيا .

أصله ونشأته

بعد مضى أيام قلائل على وفاة خليفة الأندلس الأموى العظيم عبد الرحمن الناصر ، واسناد الخلافة الى ابنه الحكم المستنصر ، وفى يوم أندلسى رائق الجو ، ناعم الأنفاس ، اجتمع خمسة من طلاب جامعة قرطبة فى متنزه بجهة الناعورة ــ احدى أحيائها الجميلة المزدهرة ــ ومعهم سفرة فيها طعام للترفيه عن أنفسهم من عناء الدرس وجهد التحصيل ، وظلوا ساعات فى لهو وقصف ، يتطارحون أحاديث الأدب ، ولطائف العلوم ، وعجيب النوادر ، وكان بينهم شاب أبلج الهيئة ، مديد القامة ، غض الشباب ، فياض القوة مصقول الاهاب ، قد لوحت شمس الجنوب بشرة وجهه بعض التلويح ، وكان يبدو فى حركاته واشاراته شىء من الشموخ والكبرياء وفى لحظاته بريق الذكاء النفاذ والصرامة وحب السيطرة والاستعلاء ، وكان يشاركهم فى لهوهم ، ويخوض معهم فيما يتجاذبونه من أحاديث ، وكان وعى هذا الشاب الاجتماعى قد استيقظ مبكراً ، واتسعت آفاق خبرته ، ونضجت معرفته ، فأصبحت له خبرة واسعة بالعالم الذى يحيط به ، وفراسة صادقة فى الناس ،

وكان لحدة احساسه ينطبع في نفسه كل ما يروى ويسمع من مؤثرات انطباعا قويا ، ولذا استطاع أن يمتع أصحابه بما كان يجلوه عليهم من روائع القصص ، وطريف المشاهدات ، ثم غشيه بغتة سكون رهيب ، فأمسك عن الكلام ، ولاذ بالصمت ، وأخذت تصطرع في نفسه الخواطر ، وتموج بها الأفكار ، ولما تطاول صمته ، واستمر تفكيره ، وحرم أصحابه من متعة حديثه ، التفت اليه أحد الرفقة ، وقال له في عتب رفيق « ما الذى شغلك يا ابن أبي عامر وأهمك وملك عليك مذاهب تفكيرك ؟ لقد أطلت الصمت ، وأسرفت في التفكير ، وقد جئنا لنتروض ، ونلهو ونمرح ، ونطيب نفسا ، ونقرعينا ، لا لنفكر ونمعن في التفكير » .

وكأنما أيقظت هذه الكلمات الشاب من حلم عميق ، وذهول مستحكم ، فهتك حجاب الصمت ، وقال في لهجة رصينة جدية ، وتؤدة ملحوظة « لابد لى أن أملك الأندلس ، وينفذ حكمى فيها ! » .

فضحك منه أصحابه ، وهزءوا به ، ولكنه لم يبال بضحكهم وسخريتهم ، واسترسل يقول « تمنوا على ، وليختر كل واحد منكم خطة أوليه اياها اذا أفضى الى الأمر » .

فعجب هؤلاء الشبان من أمر صاحبهم المزهو الطموح ، ولكنهم رأوا المضى معه الى آخر الشوط اجتلابا للسرور ، واستتماما للفكاهة ، ورغبة في المعابثة .

فقال أحدهم « أتمنى أن تولينى القضـــاء بجهتى ـ كـورة رية ـ فانه يعجبنى هذا التين الذى يجىء منهـا ، وأحب أن أتشفى من أكله .

وقال آخـر « تولينى حســـبة السـوق ، فانى أحب هـذا الإسفنج (١) ، وأتمنى أن أنال بغيتى من أمثال هذه اللذائذ دون أن أنفق درهما ..

وقال ثالث ، وكان من أبناء عمومة الشاب ، ويعرف فى التاريخ باسـم ابن عسـقلاجة « انى أوثر قرطبة ذات القصـــور العجيبة ، والمساجد الفخمة ، زينة المدن ، وعروس البـلاد ، وأقصى ما أتمناه أن أصبح حاكما لها » .

وظل الرابع صامتا لاينبس ببنت شفة ، وقد تقطب جبينه ، وبان فى وجهه الامتعاض ، وكان شـابا مزاحا تلعابة ، ولكن يضـايقه من صاحبه فرط اعتداده بنفسه ، وقد استكثر عليه فى هذا المرة عريض ادعائه ، وتطوحـه فى عالم الأمانى البعيدة ، وسـاء الشاب صـمته وســكونه ، فالتفت اليه ، وقال له فى لهجـة لا تخلو من العنف « تمن أنت » !

وكأنما عنت له فرصـــة للغض من صـاحبه ، والزراية به ، فأجابه سـاخراً متهانفاً « أيها الدعى المأفون ! أتمنى اذا أفضى اليك

---

(١) المقصود بالاسفنج هنا نوع من القطائف .

الأمر أن يطاف بي قرطبة كلها على حمار ووجهي الى الذنب وأنا مطلي بالعسل ليجتمع الذباب علي والنمل ، وليكن هذا أول ما تستفتح به عهدك اذا حكمت الأندلس ، وهذه هي المكرمة التي أريدها منك أيها المغرور الطامع في الملك ، المتطاول على الخلافة » .

وكان صاحبنا الطموح حمى الأنف ، عصبي المزاج ، شديد النقمة ، لاينسى الاساءة ، ولا يغتفر جريرة ، ولكنه كان يعرف كيف يملك نفسه ، ويكظم غضبه حتى تحين ساعة الانتقام ، فتظاهر بعدم المبالاة ، وأجاب في هدوء الواثق المستيقن « ليكن ما أراده كل منكم ، وسيأتي الزمن الذي تتذكرون فيه هذا اليوم ، وستحقق أمنية كل منكم ، ويجاب طلبه » .

وطوى هذا الحديث ، وأخذوا بعد ذلك في فنون أخرى من الأحاديث اللاهية المسلية ، ولما تداني المساء ، ودبت ظلاله ، وتفرق شمل الجماعة ، وعاد الشاب السادر في أوهامه والمستغرق في أحلامه الى منزل أحد أقربائه ، وكان نازلا عنده في حجرة فوق بيته ، فصحبه مضيفه الى حجرته ، وحاول الحديث معه ، ولكن الشاب كان أميل الى الصمت ، والضرب في شعاب الفكر ، وكان يجاوب على ما يوجه اليه من حديث اجابة مختصرة ، فاستحسن قريبه أن يتركه على حاله ، وذهب لشأنه ، وفي بواكير صباح اليوم التالي دخل عليه فوجده قاعدا على الحالة التي تركه عليها أول الليل حين فصل عنه ، فقال له « ما أراك نمت الليلة » .

فأجاب « لا » .

« ما الذى أسهرك » .

« فكرة عجيبة طرأت على ، فكرت اذا أفضى الى الأمر ، ومات القاضى منذر بن سعيد بمن استبدله ؟ ومن ذا الذى يقوم مقامه ؟ فجلت الأندلس كلها بخاطرى فلم أجد الا رجلا واحدا » .

« لعله محمد بن السليم » .

فأجاب الشاب « هو والله ، ولشد ما اتفق خاطرى وخاطرك » .

هكذا كان يفكر هذا الطالب المجهول فى غمار آلاف الطلبة الذين يغشون جامعة قرطبة ، كان يحلم بالعظمة والنفوذ ، ويحلق فى الجواء العالية ، ويشعر بأنه خلق ليأتى بالعظائم ويضطلع بجلائل الأمور ، وتمتد آماله وتتراحب حتى تشمل الأندلس برمتها ، ولم يكن لهذا الشاب سند فى قصر الخليفة ، ولا عتاد من مال ضخم ، ولا عدة من جاه عظيم ، ولم تكن أسرته من الأسر البارزة اللامعة فى حياة الأندلس السياسية والاجتماعية ، ولكن برغم ذلك كان يسترسل فى هذه الأفكار ، ويمنى نفسه بهذه الأمانى ، ولا يستطيع كتمانها فى سريرته ، بل يصارح بها زملاءه ، حتى ظن به فريق منهم الظنون ، وخالوه ملتاث العقل ، منحرف المزاج ، ولم يكن هذا الشاب مختل الشعور ، ولا من بناة القصور فى الهواء ، وانما كان يشعر شعوراً قوياً بدوافع غير واعية تدفعه الى التماس طريق غير

معهود ، والى أن يعيش كما يقول نيتشه « على شفا الخطر » فتحدى العالم أمر مركب فى فطرته ، وهو يحن الى مجالدة الصعاب واقتحام الأخطار ، لأنها تستخرج ما عنده ، وتكشف عن قوته المكنونة ، وكنوزه المدخرة •

هذا الشاب المترامى الأمل ، البعيد الطموح هو محمد أبو عامر ابن عبد الله بن أبى عامر محمد بن الوليد ، وأسرته هى بنو عامر فرع من معافر احدى القبائل اليمنية ، وكان أول من دخل منهم الأندلس جده عبد الملك مؤسس الأسرة ، وكان أحد العرب القليلين فى جيش طارق بن زياد ، وقد اضطرته ظروفه السياسيه وأحواله المالية الى الاندماج فى سلك المجاهدين ، فكان من المغامرين الذين ساروا تحت راية طارق ، وقد رأس فرقة فى الجيش لأنه كان من العرب الصرحاء ، وأبلى بلاء حسنا فى الاستيلاء على قرطاجنة ، وهى أول مكان حصين استولى عليه المسلمون فى الأندلس ، وبعد أن اشترك فى الفتح وكان له فيه أثر جميل أقام بالجزيرة الخضراء فى قرية من أعمالها تسمى طرش على نهر وادى أروا ، وساد أهلها ، وكثر عقبه فيها ، وتكررت فيهم النباهة والوجاهة ، وجاور الخلفاء منهم بقرطبة جماعة منهم أبو عامر محمد بن الوليد الذى عرف آل عامر طراً به ، وساد بعده ولده عامر ، وتقدم عند الخلفاء وولى الأعمال ، ومات بقرطبة ، وكان والد المنصور عبد الله المكنى بأبى حفص من أهل الدين والزهد فى الدنيا ، وقد كف عن

زخرفها ، وغض طرفه عن متاعها ، وانصرف بكليته الى العبادات ، وقعد عن خدمة السلطان ، ومات منصرفا من حجه بمدينة طرابلس الغرب فى أواخر عهد الخليفة الناصر ، وقد أصهر الى التميميين المعروفين فى قرطبة ببنى برطال، فتزوج بريهة بنت يحيى بن زكريا، فولدت له أبا عامر المنصور وأخاه يحيى ، ولذا قال فيه ابن دراج القسطلى من قصيدة يمدحه بها :

تلاقت عليه من تميم ويعرب شموس تلالا فى العلى وبدور
من الحميريين الذين أكفهم سحائب تهمى بالندى وبحور

وكانت أم عبد الله ولد المنصور بنت الوزير يحيى بن اسحق وزير الناصر لدين الله وطبيبه ، وقد ولد محمد بن أبى عامر سنه ٣٢٧ هجرية وفيها كانت الهزيمة العظيمة بالخندق على الخليفة عبد الرحمن الناصر ، ونشأ بالجزيرة الخضراء فى قرية طرش موطن عشيرته ، وديار أجداده ، وهى من أطيب بلاد الأندلس أرضا ، وأصحها هواء ، وكان فى طفولته يلعب فى حصونها المتهدمة ، وقلاعها المتداعية الحافلة بذكريات الفتح ، وفى مطالع شبابه ورد قرطبة لطلب العلم والأدب وسماع الحديث فى جامعتها ، فقرأ الأدب ، وقيد اللغة على أبى على القالى وأبى بكر بن القوطية ، وقرأ الحديث على أبى بكر ابن معاوية القرشى ، وأظهر براعة ونباغة فى التحصيل ، على أن هذا الشاب لم يكن شأنه تفلية الكتب والاكباب على الدرس ، والتبحر فى

غوامض العلم ، والاغراق في طلبه ، وكانت المعرفة في رأيه وسيلة لا غاية ، وانما كان جل اعتماده على اتقاد فطنته وجودة فهمه ، وقد كان معنيا بقراءة التاريخ ، وكان يقف طويلا حيال سير الرجال الذين نشأوا من أصل وضيع واستطاعوا أن يتركوا في العالم دويا ، وألم بأخبار المغازى والفتوح الاسلامية ، وكان يعد نفسه ليكون قاضيا ، أو ليقوم بعمل من أعمال الدواوين شأن أعمامه وخؤولته ، وبعد أن أتم دراسته اضطر الى أن يعول نفسه ، فاقتعد دكانا عند باب قصر الخلافة يكتب فيه لمن يعن له من الخدم والذين يريدون التقدم بالشكاوى ، ولم يكن بطبيعة الحال قانعا بهذا الابتداء البسيط ، والخطوة المتواضعة ، التى أرغمته عليها ظروفه الخاصة ، فتوسل بالحاجب جعفر المصحفى صاحب الكلمة المسموعة والجاه العظيم في دولة الحكم ولكن المصحفى أهمل شأنه ، ولم يبلغه أمنيته ، ومكنته اقامته قرب باب القصر من الاتصال بفتيانه ، وكان محمد لبقا في اكتساب المودات ، ناعم الملمس ، جذاب الشخصية ، أخاذ الحديث ، ومن المحتمل أن يكون قد استعان بهم في الحصول على وظيفة بمحكمة قرطبة ، ومهما يكن من الأمر فقد عين في احدى الوظائف بمحكمة قرطبة ، وكان القاضى في ذلك الوقت هو محمد بن السليم الذى كان محمد يجله ويحترمه لأنه كان مستقيم الأخلاق ، محمود السيرة ، ومن أقدر قضاة قرطبة ، وسبق أن رشحه محمد لهذا المنصب حينما صور له خياله أنه سيحكم الأندلس ، ولكن محمد بن السليم كان

رجلا هادىء النفس ، فاتر الطبع ، فيه أناة العلماء وترددهم مع الميل الى المحافظة ، وكراهة اعتساف المجهـول ، ولذا لم يسترح الى ابن أبي عامر الحاد العاطفة المستوفز الميول ، العملى الغاية ، ولم يأخـذ عليه تقصيرا ، ولكنه مع ذلك كان لا يطمئن اليه ، فخلا يوما بالحاجب المصحفى ، وشـكا اليه شـجوه بمحمد ووصف له حاله ، فوعده المصحفى بنقله ، وأخذ يتحين الفرص لذلك ، وضـيق ابن السـليم بمحمد أعد له المكانة المرموقة فى القصر التى مهـدت له سـبيل التقدم كما سنرى بعد •

الخطوة الأولى

كان الخليفة عبد الرحمن الناصر من أعظم خلفاء المسلمين قاطبة ، وفي طليعة ملوك الأرض قوة عزيمة ، وسعة ادراك ، وحسن سياسة ، ومن أنهضهم بالأعباء ، وأكثرهم تضحية بالراحة في سبيل توطيد الملك وتركيز السلطة ، وقد ولي امارة الأندلس وسنه لا تتجاوز الثانية والعشرين ، والأمور فوضى والأحوال مختلة ، وقد استقرت سلطة الثائرين بالدولة ، واستغلظ أمر الخارجين عليها من زعماء العرب ، وقادة الاسبانيين ، ورؤساء البربر ، فلم يتعاظم هذا الموقف عبد الرحمن ، ولم يستكن له ، بل بادر بمصارحة كبار الثائرين بأنه لا يكتفي منهم بالجزية ، وتقديم شعائر الطاعة من بعيد ، وأفهم الجميع في غير مواربة انه لا يريد شيئا دون تسليم قلاعهم وحصونهم ومعاقلهم والمدن التي استقلوا بها ، وانه يرى أن لا ينفرد بالسلطة أحد غيره ، ووعدهم بأن من قدم الطاعة يغتفر له ذنبه وتنسى اساءته ، وأن من أصر على العصيان سيكون جزاؤه أن يصبح عبرة للمعتبر ، وينكل به أشد تنكيل ، وتبدو هذه السياسه لأول وهلة سياسة متهورة حمقاء ، وأن واضع خطتها يطلب طلبا مغالى

فيه وأنه كان من المحتمل أن يتألب عليه الثائرون ويتحالفوا على سحق قوته ، ولكن الواقع أن هذه السياسة كانت ثمرة تفكير عميق ، وفهم صادق لاتجاهات العصر ، ومعرفة بطبائع الأندلسيين على اختلاف شيعهم وأحزابهم ، والملك العظيم نتيجة لضرورة عظيمة ، وكان قد طرأ على الأندلس شيء من التغيير لا يخفى على رجل دقيق الملاحظة أحوذى مثل عبد الرحمن ، فقد كانت الارستقراطية العربية القديمة قد فقدت رؤساءها البارزين ، ولم يكن للباقين بعدهم مواهب تمكنهم من أن يسدوا مسدهم ، ويقفوا مواقفهم ، وكان رؤساء الاسبانيين قد علت أسنانهم ، وفترت حماستهم ، وقلت رغبتهم فى التحدى والمناوأة ، وكان الجيل الناشىء لا يحقد على السلطان ولا يضمر له السوء لأنه لم يشعر بسطوته ، وقد لمس آثار الفوضى فى افساد الحياة الاجتماعية ، والمرافق الاقتصادية ، ورأى ما عانته البلاد من اطالة الحرب ، وحرق القرى ، وقطع الأشجار ، واتلاف الزرع ، واقتنعت الناس بعقم الثورات وعدم جدواها ، وأدركوا أنهم أسلموا البلاد لقبضة من الزعماء الطامعين يبتزون أموالهم ، ويعنفون بهم ، ويهدرون حرماتهم ، ويسومونهم الهوان ، وأخذوا يميلون الى استعادة نفوذ الامارة المركزية ذات السلطة الشاملة والسلطان القاهر ، فهل يستطيع الأمير الأموى الجديد أن يعيد الأمر الى نصابه ، ويرد عليهم الأمن المطلوب أو السلام المنشود ؟ هذه كانت الأمنية التى جاشت بنفوس معظم أهل الأندلس ، ولما كان عبد الرحمن يحاول اخضاع

الثائرين كان يراهم أميل الى الخضوع ، وأقرب الى الطاعة والاستسلام وكان يزيد حماسة الجنود وتفانيهم في الطاعة وجود الأمير الهمام على رأس الجيش ، وأخذت مدن الأندلس التى استقلت عن سلطان الأمويين تسلم لهم مدينة بعد مدينة ، فدخل اشبيلية ، واسترد طليطلة ، ولقنت ، وبطليوس ، وأخضع البربر فى المغرب ، وشرع بعد ذلك فى اخضاع الأقاليم الجبلية الجنوبية ، وكان بها الثائر الخطير ابن حفصون ، وكان عبد الرحمن يعرف مناعة تلك النواحى، ولم ينتصر على ابن حفصون انتصاراً حاسماً ، وانما افتتح الكثير من حصونه ، ودوخ سائر أقطاره ، وضيق عليه ، وانتقص أطرافه ، ومات هذا الثائر العنيد بعد قليل ، وتمكن عبد الرحمن من دخول قلعته الحصينة المتأشبة فى ببشتر التى طالما ردت الجيوش وهى كليلة ، وتمكن عبد الرحمن بمثابرته الدائبة ، وعزمه الذى لا يلين من استرداد ملك آبائه واستعادة أملاكهم ، وحصر السلطة كلها فى يده ، ولكنه كان مستبدا عادلا ، فأخذت تعود الى بلاد الأندلس رفاهتها ومظاهر مجدها ، وتتجدد مظاهر حضارتها ، وقد فهم عبد الرحمن حاجة عصره ، وعرف كيف يلبى هذه الحاجة ، وهذا هو مفتاح عظمته وسر نجاحه .

ومن أهم الخطط التى التزمها عبد الرحمن عمله على انتزاع السلطة من يد أمراء العرب الذين أساءوا استعمالها ،وسعيه فى توهين قوتهم ، وكان يقصد من وراء ذلك الى محاولة مزج شعوب شبه

الجزيرة لتتكون منهم أمة واحدة متحدة الغاية ، ومن ثم كان يحاول القضاء على الفوارق القبلية لتقوم مكانها فوارق الطبقات والأحوال ، وتنفيذا لهذه السياسة كان ينهض برجال من أصول غير معروفة فى الحسب والنسب ، ليضمن تعلقهم به ، واخلاصهم له وابقاءهم عليه ، ونظم جيشا لحماية الدولة أكثره من الصقالبة ، وكانوا يشبهون المماليك الذين استجلبهم صلاح الدين الى مصر ، وقد استبدوا منلهم فيما بعد بالأمر .

وبرغم تغلب عبد الرحمن على الثائرين وتخضيد شوكتهم كان هناك خطران عظيمان يهددان ملكه ، ويشغلان باله ، وهما مملكة ليون فى الشمال ، والخلافة الافريقية التى أنشأها الفاطميون الشيعة فى الجنوب فى افريقية سنة ٢٩٧ هجرية ، فحارب المسيحيين فى الشمال وانتصر على مملكتى ليون ونافار انتصارات باهرة ، وكان يوالى الغزوات الظافرة فى أكثر الأعوام .

أما خطر الخلافة الفاطمية فمنشؤه أن الفاطميين كانوا يريدون بسط سلطانهم على المسلمين جميعاً ، وضم الدول الاسلامية كلها ، وكانوا يتطلعون الى الأندلس ، ويطمعون فى ثرواتها وخيراتها ، فبعد أن استولى عبيد الله المهدى أول خلفائهم على أملاك الأغالبة راسل فورا ابن حفصون الذى كان ثائرا بالأندلس ، واعترف ابن حفصون بخلافته ، ولم يؤد هذا الاتفاق الى نتيجة ، ولكن هذا لم ييئس الفاطميين ، وكانت رسلهم تطوف بالأندلس فى ثياب التجار ،

ولو قدر للفاطميين أن يضعوا أقدامهم فى شبه جزيرة أسبانيا لوجدوا لهم من بين أهلها أنصاراً يرحبون بهم ، وينضمون اليهم ، فقد كانت فكرة المهدى المنتظر مألوفة عند الأندلسيين كما كانت مألوفة فى سائر أنحاء العالم الاسلامى •

وبينما كان عبد الرحمن يجاهد مملكة ليون فى الشمال علم أن الفاطميين يتحفزون لمهاجمة المغرب الأقصى ، ومعنى ذلك أنهم متى أتموا فتحه واخضاعه اتجهوا الى الأندلس ، ونازلوا عبد الرحمن فى عقر داره ، فلم يكن له مندوحة عن مساعدة المدافعين عن المغرب الأقصى ليظل حاجزا بين الفاطميين والأندلس ، فشرع سرا فى مساعدة الأمراء الذين يقودون قبائل المغرب الأقصى ، واتفق مع محمد بن خزر رئيس قبيلة مغراوة التى هزمت جيوش الفاطميين وطردتهم من المغرب الأوسط ، وأرغمت هذا الاقليم على الطاعة للأمويين ، واستمال الى جانبه ابن أبى العافية رئيس قبيلة مكناسة ، ولما كان امتلاك حصن على شاطىء افريقية من الخطوات اللازمة فقد استولى الناصر على حصن سبتة •

وكان عبد الرحمن من أنصار الملكية المطلقة ، لأنه كان يرى أن ترك النفوذ والقوة فى يد الارستقراطية يزيد طمع أفرادها ، ويقوى ميلهم الى الثورة ، ويغذى كبرياءهم ، وكان يمنح أسمى الوظائف للموالى والأجانب من الصقالبة وغيرهم ليكونوا آلات سهلة فى يده ، وقد اعتمد كثير من أمراء الأندلس على الصقالبة ، ولكن

فى عهد عبد الرحمن عظم نفوذهم ، وكثر عددهم كثرة لم يبلغها من قبل . وكان ينيط بهم الوظائف السامية فى الجيش والأعمال الهامة المدنية .

وقد عمل عبد الرحمن ما يقارب المعجزة ، فقد تولى الحكم والبلاد تسودها الفوضى ، وتتنازعها الشيع ، وقد تقسمها فيما بينهم الكثيرون من الزعماء المختلفى الجنسيات ، وكانت الأندلس مستهدفة لغزو المسيحيين من الشمال والفاطميين من الجنوب ، فأقال عثرة الأندلس وانتشلها من الفوضى ، ورفعها الى مستوى أرفع مما بلغته فى سائر عصورها ، ومنحها قوة أعظم مما كانت لها ، وأكسبها الرخاء والرغد فى الداخل ، وأعلى سمعتها ورفع مكانتها فى الخارج، ونهضت الفنون والصناعات ، وتقدمت المعرفة والعلم ، وراجت التجارة ، وكثرت الأرباح ، وكان الأمن مستتباً فى جميع الجهات ، وارتفع مستوى الحياة تبعاً لذلك ، ووصل عدد سكان قرطبة الى نصف المليون ، وكان بها ثلاثة آلاف مسجد والكثير من القصور الفخمة ، والدور العامرة ، وأنشأ مدينة الزهراء فى شمال قرطبة ، واستغرق تأسيسها أكثر من خمسة وعشرين عاما وابتنى اسطولا لينازع به الفاطميين السلطة فى البحر المتوسط ، كما ان أخذه لسبتة جعل مفتاح المغرب الأقصى فى يده ، وراسله امبراطور القسطنطينية وملوك ألمانيا وايطاليا وفرنسا ، وسعوا للتحالف معه ، وكان عبد الرحمن على عظم مكانته وجلالة قدره شخصية لامعة

محبوبة يترك فى نفس كل من يخالطه أجمل الأثر ، وأسمى الاعجاب .

وفى سنة ٣٥٠ مرض الخليفة العظيم ومات فى أوائل الخريف ، وخلفه ابنه الحكم المستنصر ، وقام بأعباء الملك أتم قيام ، واستقبل من يومه النظر فى تمهيد سلطانه ، وتثقيف ملكه ، وضبط قصوره ، وترتيب أجناده ، وجرى على رسم أبيه ، وولى حجابته جعفرا المصحفى ، وأهدى له يوم ولايته هدية عظيمة ، وأصل المصحفى الذى اختاره للحجابة من برابرة بلنسية ، وكان أبوه عثمان قد أدب الحكم ، فأزلف ذلك جعفرا عنده وأدناه ، وقد صرفه الحكم قبل خلافته فى الأعمال ، وقدمه الى الكور ، وولاه جزيرة ميورقة ، ثم استكتبه وهو ولى عهد ، فلما أفضت اليه الخلافة واستوزره أمضاه مع ذلك على كتابته الخاصة ،وضم اليه بعد مدة ولاية الشرطة وولى بنيه الأعمال الكبار ، وكان يعد فى عصره أحد الشعراء المحسنين المتصرفين فى أنواع الشعر من المديح والأوصاف والغزل .

وكان بلاط ليون وبلاط نافار يؤملان أن يجدا فى وفاة الناصر طريقة للتخلص من شروط المعاهدة السابق عقدها معهما ، ورفع وصاية المسلمين عنهما ، وبدا لهما أن الفرصة سانحة ، فاضطر الحكم اضطراراً الى محاربة ليون ونافار وقشتالة ، وأرغمها على طلب الصلح ، وطال أمد الصلح لوقوع الخلاف بين ملوك

المسيحيين فى الشمال وأمرائهم ، ومن أعظم فتوحات الحكم فتح قلمرية من بلاد البشكنس على يد غالب قائده .

ولم يكن الحكم بالرجل الضعيف أو القليل الشعور بالتبعة ، ولكنه كان كثير الاشتغال بمطالعاته الى حد أنها ألهته عن الولع بالغزوات والفتوح ، على أن حبه للسلام لم يضر بالحكومة كثيرا ، اذ كان فيه جانب من قدرة أبيه الناصر يمكنه من فرض ارادته وقيادة الجيوش حينما يستلزم الأمر ذلك ، وسرعان ما انتهت الحرب بينه وبين المسيحيين فى الشمال بالصلح ، لأن هيبة والده عبد الرحمن كانت قد ملأت قلوبهم رعبا ، ولذلك خلا الجو للحكم للاستمتاع بالدراسة والبحث والتكثر من اقتناء الكتب .

وقد كان أكثر الخلفاء والأمراء الأمويين من المستنيرين المثقفين ، ولكن الحكم كان أغزرهم علماً ، وأوسعهم اطلاعاً ، وأرسخهم قدماً فى الأدب والتاريخ ومعرفة الأنساب والدراية بالكتب والمؤلفات ، وهو لم يرتفع الى حكمة مرقس أوريليوس أو ورع عمر بن عبد العزيز ، ولكنه كان أعلم أمراء الأندلس ، ومن أحسنهم أخلاقا ، وأشدهم توقيراً للعلماء ، ومعرفة بأقدارهم ومكانتهم ، وبراً بهم ، وتوسعة عليهم ، وأكثرهم بحثاً عن نفائس المؤلفات ونادرها ، يبعث فيها الى الأقطار والبلدان ، ويبذل فى أعلاقها ودفاترها أنفس الأثمان ، ونفق ذلك لديه ، فحملت اليه الكتب من كل ناحية حتى غصت بيوته ، وضاقت عنها خزائنه ، وكان

يدعو العلماء ورواة الحديث من جميع الآفاق ، ويشاهد مجالسهم ، ويسمع منهم ويروى عنهم ، ولم يسمع فى الاسلام بخليفة بلغ مبلغ الحكم فى اقتناء الكتب والدواوين وايثارها والتهمم بها ، وأفاد على العلم ونوه بأهله ، ورغب الناس فى طلبه ، ووصلت عطاياه وصلاته الى فقهاء الأمصار النائية عنه ، وبعث الى أبى الفرج الأصفهانى القرشى المروانى ألف دينار عيناً ذهباً ، وخاطبه يلتمس منه نسخة من كتابه الذى ألفه فى الأغانى ، فأرسل اليه أبو الفرج نسخة حسنة منقحة قبل أن يظهر الكتاب لأهل العراق أو ينسخه أحد منهم ، وكان له وراقون بأقطار البلاد ينتخبون له غرائب التواليف ، ورجال يوجههم فى طلبها ، وكان مع هذا شديد العناية بكتبه والتصحيح لها ، وقلما تجد له كتابا كان فى خزائنه الا وله فيه قراءة ونظر من أى فن كان من فنون العلم ، وكان يكتب فيه بخطه اما فى أوله أو فى آخره أو فى تضاعيفه ، نسب المؤلف ومولده ووفاته والتعريف به ، ويذكر أنساب الرواة له ، ويأتى من ذلك بغرائب لا توجد الا عنده لكثرة مطالعته ، وعنايته بهذا الفن ، وكان موثوقا به ، مأمونا عليه حتى صار كل ما كتبه حجة عند شيوخ الأندلسيين وأئمتهم ينقلون من خطه ويحاضرون به ، وكثر تحرك الناس فى زمانه الى قراءة كتب الأوائل ، وتعلم مذاهبهم ، وأم العلماء بلاطه ، وعشوا الى ضوء ناره ، وحتى الفلاسفة استطاعوا فى ظله أن يتابعوا بحوثهم ، وكثرت المدارس ، وكانت جامعة قرطبة

من أشهر جامعات العالم ، ففى الجامع الكبير كان يلقى المحاضرات أمثال أبى بكر معاوية القرشى معلم الحديث ، ويملى أبو على القالى البغدادى أماليه ، ويلقى ابن القوطية محاضرات فى النحو ، وكان الطلبة يعدون بالآلاف ، وكان أكثرهم يقبلون على دراسة الفقه لأنها كانت السبيل الى الوظائف التى تدر الربح ، وبلغ من جد الحكم وعزوفه عن اللهو أنه رام قطع الخمر من الأندلس ، فأمر باراقتها ، وشاور فى استئصال شجرة العنب من جميع أعماله ، فقيل له انهم يعملونها من التين وغيره ، فتوقف عن ذلك ، وبلغت الدولة فى عهده النهاية فى السرو والجلالة والكمال والأبهة .

وقد ولى الحكم الخلافة وهو ابن سبع وأربعين سنة ، وقيل ابن ثمان وأربعين سنة ، وقد استغرقت خلافة أبيه الطويلة عمره حتى كان يقول له مداعبا « لقد طولنا عليك يا أبا العاصى » ولم يرزق الحكم ولدا قبل تقلده الخلافة ، بل كان قد يئس من الأولاد ، وفى سنة ٣٥١ ولد له ذكر من حظيته « صبح » فسماه عبد الرحمن وسر به سروراً عظيماً ، وقالت فى ذلك الشعراء والأدباء فأكثروا ، ولما بشر بعد ذلك باشتمال جاريته « صبح » على حمل وعلم بذلك وزيره المصحفى أرسل اليه فى التهنئة بذلك أبياتا وهى :

هنيئاً للأنام وللامام	كريم يستفيد على كرام
مرجى للخلافة وهو ماء	ومأمول لآمال عظام

أضاء على كريمته ضياء فلم تعلم بغاشية الظلام
ولم لا يستضاء بجانبيها وبين ضلوعها بدر التمام

ولما ولدت « صبح » ابنها هشاما الملقب بالمؤيد ، وبشر الخليفة الحكم بطلوعه ، وجعفر بن عثمان عنده فى خلوة فارتاح لارتياحه فقال على البديهة يهنئه :

اطلع البدر من حجابه واطرد السيف فى قرابه
وجاءنا وارث المعالى ليثبت الملك فى نصابه
بشرنا سيد البرايا بنعمة الله فى كتابه
لو كنت أعطى البشير نفسى لم أقض حقا لما أتى به

وكان ميلاد هشام سنة ٣٥٤ هجرية ، وسمت مكانة السيدة « صبح » فى نفس الخليفة الحكم ، وعظمت سيطرتها عليه ، وقوى امتلاكها لقبله ، وفى سنة ٣٥٦ أرادت أن تعين وكيلا لأملاك ابنها عبد الرحمن ، وأبلغت الحكم هذه الرغبة ، فأوصى الحكم حاجبه المصحفى بالبحث عمن يصلح لهذا المركز ، ووجد المصحفى أن الفرصة سانحة لتحقيق ما وعد به القاضى محمد بن اسحق ابن السليم من نقل أبى عامر ، فرشحه مع آخرين للوكالة ، وكان الاختيار متروكا للسيدة « صبح » ، فلما عرض عليها المرشحون استرعى نظرها ابن أبى عامر بطلعته البهية ، وما يتراءى على

معارف وجهه من دلائل الرجولة الكاملة ، والعزم الناهض ، وتوسمت فيه الكفاية ، وكان ابن أبى عامر يعرف ما لها من سلطان قاهر ، ودولة آمرة ، ومكانة شماء فى نفس الحكم ، فحشد كل قوته ليترك فى نفسها من ناحيته أجمل أثر ، واختارته السيدة « صبح » من بين المرشحين ، وأقر الحكم اختيارها ، ونصبه لخدمتها وخدمة ابنها عبد الرحمن ، وأجرى عليه فى ذلك الوقت خمسة عشر دينارا فى الشهر مرتبا له ، ولم يكن ابن أبى عامر بطبيعته حدث نساء ، أو ممن يشغلون بالهم بالعشق والمغازلة ، ولكنه كان حريا بالحظوة عند النساء لطلاقة لسانه ، وايمانه بنفسه ، ووسامة طلعته ، وقد أدرك بحسه المرهف ، وزكانته المتوقدة ، أن خير سبيل لتحقيق أطماعه البعيدة هو أن يتخذ السيدة « صبح » زلفى الى غاياته ، فبذل جهده فى استمالتها اليه ، واستنباط المنافذ الى قلبها ، وكان ينتزع لذلك المناسبات ، ويتصيد الأسباب ، وكانت هذه السيدة ، على ما وصلت اليه من نفوذ ، تشعر فى صميم نفسها بأنها فى حاجة دائمة الى حرارة العطف ، وكلمة الاعجاب والرضا ، لأنها أخذت من أهلها قسراً ، وقد كان زوجها وسيدها الحكم رجلاً متقدماً فى السن ، منهمكاً فى البحث والاطلاع علاوة على شئون الملك وسياسة الدولة ، ولم يكن بطبيعته ميالاً الى اللهو ، والنساء فى مثل هذه الحالة يخشين الملل ، ويشعرن بالفراغ ، ويسرهن أن يجدن ما يزيل وحشتهن ، والسيدة « صبح » كسائر النساء تحكم على كل

ما يحدث بما يلائم أحاسيسها الشخصية المباشرة ، فأخذت تشيد بمناقب ابن أبى عامر ، وتمتدح سجاياه واختارته وكيلا لأملاكها ، وأصبحت تجد فى حديثه متاعاً لقلبها ، وغذاء لروحها ، وبعد سبعة أشهر من اختياره وكيلاً لعبد الرحمن عين للنظر فى أمانة دار السكة ، وبفضل هذه الوظيفة أصبح فى عهدته مبالغ طائلة من الأموال يستطيع أن يصطنع بها الأنصار ، ويخلق الأصدقاء والأتباع ، وتوثقت العلاقات بينه وبين الكثيرين من الرجال البارزين فى الحياة العامة ، وكان أكثرهم يعيشون عيشة بذخ واسراف ، وكان أسلوب حياتهم يجعلهم هدفا للأزمات المالية المتوالية ، وكان محمد بن أبى عامر لايحجم عن انقاذ موقف من نفدت موارده منهم ، روى عنه محمد بن أفلح ـ وهو من موالى الخليفة الحكم ـ قال : « دفعت الى مالا أطيقه من نفقة عرس ابنة لى ، ولم يبق معى سوى لجام محلى ثقيل الوزن ردىء العيار ، وكان عندى لزينتى أيام المراكب ، وتقاعد فيه التجار ، فانقطع بى أملى ، وضاقت بى الأسباب ، فوقع فى نفسى قصد ابن أبى عامر صاحب السكة للذائع من كرمه ، فقصدته وعرفته رغبتى ، فسارع بأطلق وجه ، وقال سر الى بدار الضرب ، فجئته ، وأوصلنى الى نفسه والدراهم المطبوعة بين يديه ، وأومأ الى ، فأخرجت اللجام وأنا خائف من صرفه لسقوط عياره ، فوالله ما نظر اليه ولا عايره ، وراطلنى والله باللجام بحدائده وسيوره ، فأخذت مالم يدر فى وهمى أنى أظفر

بمثله ، وعظم ابن أبى عامر فى عينى ، وقمت عنه وحجرى ملآن ، ولا أصدق بما حصلت عليه ، فجهزت بنتى ، وفضل لى شيء يكفينى ، وقل مولاى الحكم فى عينى ، وأحببت ابن أبى عامر حتى لو دعانى الى معصية الحكم وهو مالك رقى وامامى لما قعدت عنه » .

وبهذا الأسلوب استطاع ابن أبى عامر أن يكون حزباً مخلصاً له ، وكان يرى من واجبه أن يلبى نزوات السيدة « صبح » ويستجيب لأهوائها ، وكانت له فى ذلك حيل عجيبة ، وطرائق مبتكرة ، صاغ لها مرة أنموذج قصر من الفضة الخالصة ، وبالغ فى اتقانه ، وأنفق فيه مالاً جسيماً ، فجاء بديعاً لم تر العيون أعجب منه ، وحمله على رءوس الرجال من داره ، وشاهد منه الناس منظراً رائعاً ، فتحدثوا بشأنه دهراً ، ووقع من قلب السيدة « صبح » موقعاً لا شيء فوقه ، فتزيدت فى بره ، وتكفلت بشأنه ، وتأكدت العلاقات بينهما ، وأصبحت لا تشبع من سماع قصصه وأحاديثه ، وتشعر فى غيابه بفراغ عميق ، وهوة ساحقة ، وبلغ استحسانها له حد التوله حتى اتسع المجال للأقاويل والشبه ، ولم يهمل ابن أبى عامر غيرها من نساء الحريم ، وعمل على أن يأسرهن بسابغ كرمه ، وبارع اتحافه ومعسول حديثه ، وحسن لباقته ، حتى شغفن به ، ولهجن بالثناء عليه ، ولم يستطع الخليفة الحكم أن يفهم الموقف على حقيقته ، فقال لبعض ثقاته « ما الذى استطلف به هذا الفتى حرمنا حتى ملك قلوبهن مع اجتماع زخرف الدنيا

عندهن حتى صرن لايصفن الا هداياه ولا يرضين الا ما أتاه ؟ انه لساحر عليم ، أو خادم لبيب ، وانى خائف على ما بيده » .

ولما توفى عبد الرحمن بن الحكم طفلا عين ابن أبى عامر مشرفا لادارة أملاك أخيه هشام ، وأضيف ذلك الى أعماله الأخرى، ومنها الاشراف على خطة المواريث وادارة الشرطة ، والواقع أن رئيس السكة كان يخاطر بما فى عهدته من المال مخاطرة غير مأمونة ، فقد كان كريما سخيا ، ولكن على نفقة الخزانة ، ولما كان رقيه السريع قد أثار حسد الحاسدين لذلك اتهمه أعداؤه عند الخليفة باستلاب أموال السكة وتبديدها ، فأمر الخليفة باستحضاره ليشاهد سلامته وليقدم حسابه ، فأظهر الاسراع الى ذلك ، وأسرع الى صديقه الوزير ابن جدير ، وشرح له خطورة موقفه ، وسأله أن يجبر ما عنده من العجز ، فأسلفه المبلغ المطلوب ، وحمل المال اليه من وقته فتمم به ما قبله ، وقدم القصر ، وأحضر حساباته ، وأحدث اضطرابا لمتهميه ، وارتفعت عنه الظنة ، وكذب الحكم ما وقع اليه عنه وازداد اعجاباً به ، وأقره على حاله ، ورد ابن أبى عامر المال لجدير من حينه ، ولصق بالحكم وصار فى عداد كفاته ودعائم دولته ، وأغدق الحكم الثناء على رئيس سكته الأمين المستقيم ! وأخذ يسمو به ويرفع من مكانته ، فعينه وكيلا على المواريث ، واختاره بعد أشهر قاضيا لاشبيلية ، ولما مات عبد الرحمن الصغير عينه وكيلا لهشام ، ثم رقاه بعد ذلك رئيسا

للشرطة الوسطى ، ولم يبلغ ابن أبى عامر سن الواحدة والثلاثين حتى كان قد تقلب فى خمس أو ست وظائف من الوظائف الهامة ، فعاش عيشة بذخ وانفاق ، وبنى لنفسه قصرا فخما فى الرصافة ، وكان بابه مفتوحا لتلقى الوفود وأصحاب الحاجات ، وكان حوله جماعة من المساعدين والكتاب ، وكان لا تفوته فرصة لاستجلاب المدح ، وخلق الثقة به ، والتعويل عليه ، وأصبح اسمه على كل لسان ، وأعجب الجميع بكرمه ، وسمو أخلاقه ، وصدق رجولته .

ولم يكتف طالب قرطبة الطموح بما وصل اليه ، وانما كان يطمح الى ما وراء ذلك ، ولذا كان يعتقد انه من اللازم أن يكون له أصدقاء من رجال الجيش والقواد ، وسرعان ما أتاحت له الظروف ذلك ، كما سنرى فى الفصل التالى .

وضع الأساس

حاول الخليفة عبد الرحمن الناصر تثبيت أقدامه وبسط سلطانه فى أصقاع المغرب الأقصى والمغرب الأوسط ، لأنه كان يهاب أطماع الفاطميين فى الأندلس ، ثم حدثت بالمغرب الأوسط ثورة خطيرة كادت تعصف بدولة الفاطميين الناشئة ، وهى ثورة أبى يزيد ، وبعد تغلبهم على تلك الثورة أخذت مطامع الخلفاء الفاطميين تتجه الى مصر ، ولكن برغم ذلك لم تنقطع الحرب فى المغرب الأقصى بين أنصار الأمويين وأنصار الفاطميين ، وفى تاريخ المغرب الأقصى والمغرب الأوسط قبيلتان قويتان من قبائل البربر لعبتا دورا هاما على المسرح السياسى فى تلك الفترة ، وسارت بأخبار الحروب التى نشبت بينهما الركبان ، وحفلت السير والمدونات ، وهاتان القبيلتان هما قبيلة صنهاجة وقبيلة زناتة ، وكان يمثل الأولى فى أواخر عهد الناصر زعيمها الكبير زيرى بن مناد ، ويمثل الثانية محمد بن خزر ، وقد انحازت صنهاجة الى جانب الفاطميين ، وحالفت زناتة الأمويين ، وكان زعيم الادارسة فى ذلك الوقت هو

الحسن بن كنون صاحب مدينة أصيلا وقلعة حجر النسر من بلاد العدوة ، وكان داهيــة كثير التقلب ، وقد وجــد نفســه بين مطامع دولتين قويتين ، فأراد أن يستغل الموقف ، فكان يميل الى الفريق الذى ترجح كفته ، وكان فى صــميم نفسه يؤثر الفاطميين ، ولكنه كان فى الوقت نفسه يخشى بأس الأمويين لقربهم من بلاده ، فلما خضــع المغرب الأقصى لنفــوذ الناصر لم ير بأســا فى أن يقدم له الطاعة ، دفعاً للشر ، وحرصاً على المغنم ، وقد كبر على الخليفة المعز أن يتقلص نفوده من المغــرب الأقصى ، وأن ترفض دعــوته قبــائل زناتة ، فبعث فى ســنة ٣٤٧ قائده جوهرا الصقلى فى جيش ضخم من قبائل كتامة وصنهاجة ، ومعه الزعيم زيرى بن مناد ، وأمره أن يقتل أنصار الأمويين ، وأن يمد رواق سلطانه على المغرب الأقصى ، ففتح جوهر المعاقل ، واقتحــم المدن ، ودوخ أقطار المغرب وأثخن فيها ، وقتل حماتهــا ، وقطع الدعوة للأمويين ، وردها للفاطميين ، ولم يسع الحسن بن كنون الا مبايعته والدخول فى طاعته ، ولكن لمــا انصرف جوهر بجموعه الجرارة نكث الحسن بيعته للفاطميين ، وعاد الى بيعة بنى مروان •

ومن الرجــال البــارزين الذين اشـــتهروا فى ذلك العصر وعرفوا بالشجاعة جعفر بن حمدون المعروف بابن الأندلسى ، وقد خلد ذكره ابن هانىء الشاعر فى اماديحه البليغة وقصائده الحسان ، وكان أبوه قد ترك الأندلس واتصل بعبيد الله المهدى الفاطمى وأبى

عبد الله الشيعي داعية الدولة الفاطمية قبل قيامها ، فلما استفحل ملك الفاطميين أخذوا بضبعه ورقوه الى الرتب ، ولما اختط أبو القاسم ابن عبيد الله وولى عهده سنة ٣١٥ مدينة المسيلة استعمل على ابن حمدون على بنائها ، ولما تم بناؤها عقد له على الزاب وأنزله بها ، ونشأ ولداه جعفر ويحيى بدار أبى القاسم ولى عهد المهدى ، ومات على بن حمدون سنة ٣٣٤ فى أثناء ثورة أبى يزيد ، فلما انقضت الفتنة عقد الخليفة الفاطمى المنصور على المسيلة والزاب لجعفر ابن على ، وأنزله بها وأخاه يحيى وسائر اخوته ، فاستجدوا بها سلطانا ودولة ، وبنوا القصور والمتنزهات ، وعظم بها ملكهم ، وقصدهم العلماء والشعراء ، ونشأت بين جعفر وزعيم صنهاجة الكبير زيرى بن مناد عداوة وخصومة جرتها المنافسة والمساماة فى الدولة ، وتمكن زيرى بدهائه من أن يفسد ما بين جعفر والخليفة الفاطمى افساداً شديداً ، واضطر جعفر الى أن ينضوى تحت لواء زعيم زناتة محمد بن خزر أمير مغراوة ، وكان المعز يعد العدة لدخول مصر التى فتحها قائده جوهر سنة ٣٥٨ ، فاستقدم جعفرا ، فاستراب جعفر ، وخشى على حياته ، ومال بعساكره الى زناتة ، وانقطعت العلاقات بينه وبين صنهاجة والخليفة المعز ، ودعا جعفر الى نقض طاعة الخليفة المعز والدعاء للحكم المستنصر ، وناهضهم زيرى الحرب ، ولم يكن قد أتم أهبته ، واستكمل تعبئة جيوشه ، وكبا به فرسه ، وتمكن خصومه من فرسان زناتة من الاجهاز عليه ، وحز

رأسه ، وبعثوا به مع جماعة من وجوه زناتة الى الحكم المستنصر ، فكرم الحكم وفادتهم ، ونصب رأس زيرى بسوق قرطبة ، وأسنى جوائز الوفد ، ورفع منزلة يحيى بن على ، وأذن لجعفر في اللحاق بسدته ، وشرع يوسف بن زيرى المعروف ببلقين يستعد لمنازلة زناتة والأخذ بثأر أبيه زيرى ، ورأى جعفر بن على عجز أمراء زناتة عن مواجهته ، فأوجس خيفة ، وألطف الحيلة في الفرار ضنا بنفسه ، وشحن السفن بما معه من المال والمتاع والرقيق والحشم وذخيرة السلطان ، وأجاز البحر ولحق بسدة الخلافة الاموية بقرطبة ، وأجاز معه عظماء الزناتيين لتقديم طاعتهم للحكم ، وأكرم الحكم مثواهم ، وأجمل وفادتهم ، وأحسن منصرفهم ، وأكدوا تشيعهم له ، وعملهم على بث دعوته ، وتخلف عنهم بالحضرة أولاد على بن حمدون وأقاموا بسدة الخلافة ، ونظموا في طبقات الوزراء ، وأجريت عليهم سنيات الأرزاق ، وأصبحوا من أولياء الدولة البارزين ، والتقى بلقين بن زيرى بمحمد بن خزر أمير زناتة ، وهزمه هزيمة شنعاء كما كان متوقعا ، وقتل الكثيرين من أهله ورجاله ، واتكأ محمد بن خزر ـ لما أحيط به ـ على سيفه ، وقتل به نفسه أنفة من أن يملكه بلقين ، وملك بلقين في اثر ذلك المغرب، وقتل زناتة وهدم مدينة البصرة ، وهاجم سبتة ، وعجز عن الاستيلاء عليها ، وجرى الحسن بن كنون الادريسى على خطته التقليدية ، فلما رأى انتصار بلقين بن زيرى أعطاه الطاعة ، وانحرف عن

الأمويين ، وساء سلوكه الحكم المستنصر وأغضبه ، وكان فى وسع الحكم أن ينفض يده فى هذه الفترة من أحوال المغـرب ، فقد كان الخليفة المعز قد بارح المنصورية ـ مستقر حكمه ـ الى سردانية فى سـنة ٣٦١ ليتجهز لدخول مصر والاقامة على شـواطىء النيل ، وعقد العهد لبلقين على المغـرب الأقصى والأوسط ، وبذلك بعد عن الأندلس شبح الخطر الفاطمى ، ولكن كبرياء الحكم أبت له ذلك . فلما ارتد بلقين بجيوشه أمر الحكم قائده محمد بن القاسم ـ ويعرف باسـم ابن طملس ـ أن يقـوم بحملة تأديبيـة لاخضـاع الحسن بن كنون ، وارغامه ، وذلك فى أوائل سـنة ٣٦١ ، وجاء محمد بن القاسم من الجزيرة الخضراء الى سـبتة فى جيش كثيف وعدة كاملة ، وزحف الى قتاله الحسن بن كنون فى قبائل البربر ، والتقى الجمعان بناحية من أحواز طنجة ، وهزم الحسن ، ولم يستطع دخول طنجة ، فاقتحمها محمد بن القاسم ، واستولى كذلك على مدينة أصـيلا وغيرها من المدن التابعة للحسن بن كنون ، ولـكن الحظ لم يصـاحب الأمويين الى النهاية ، فقد استدعى الحسن رجاله من كل ناحيـة ، واسـتنهض هممهم ، وتقدم الى طنجة لمهاجمة محمد بن القاسم ، والتقى الجمعان ، وكانت بينهما حروب عظيمة قتل فيها محمد بن القاسـم قائد جيوش الحـكم ، وقتـل معه خلق كثيرون ، وفر الباقون ، ودخلوا سـبتة وتحصنوا بها ، وكتبوا الى الحكم يصـفون اه خطورة الموقف واشـتداد الأزمه ، ورفع سـائر

الأمراء الأدارسة علم الثورة ، فأهم الأمر الحكم ، واستدعى قائده غالبا ، وكان أقدر قواده وأشجعهم وأحزمهم ، وأعطاه أموالا جليلة وجيوشا وافرة ، وأمره بقتال الأدارسة واستنزالهم من معاقلهم ، وقال له عند وداعه : « يا غالب سر مسير من لا اذن له بالرجوع حيا الا منصوراً أو ميتا معذوراً ، ولا تشح بمال ، وابسط يدك به يتبعك الناس » فخرج غالب بالجيوش والعدد والأموال من قرطبة فى سنة ٣٦٢ ، فاتصل خبر قدومه بالحسن بن كنون ، فخاف منه ، وأخلى مدينة البصرة وحمل منها حرمه وجميع أمواله الى حصن حجر النسر القريب من سبتة ، واتخذه معقلا يتحصن فيه لمنعته ، وجاز غالب البحر من الجزيرة الخضراء الى قصر مصمودة ، وتلقاه هناك الحسن بجيوشه ، فقاتله أياما ، وأخرج غالب الأموال فبعث بها الى رؤساء البربر الذين مع الحسن ، ووعدهم وأمنهم ، ففروا عن الحسن وأسلموه حتى لم يبق معه الا خاصة رجاله ، فسار الى حصن حجر النسر ، وتبعه غالب ، وحاصره ونزل بجميع جيوشه عليه ، وقطع عنه الموارد ، وأمده الحكم بالعرب الذين فى بلاد الأندلس كافة ورجال الثغور ، واشتد الحصار على الحسن ، وسر الخليفة لأنباء الانتصارات المتعاقبة التى كانت تصله ، ولكن لما وقف على كثرة النقود التى أنفقها غالب فى استمالة زعماء البربر وجد أن غالبا قد اتبع حرفية وصيته ، ولما كانت تلك المصروفات قد تجاوزت الحدود المقدرة لذلك تسرب الشك الى نفس الخليفة ، وخشى أن

تكون تلك النفقات الضخمة قد دخلت فى جيوب قواده ، وأصبح الموقف يستلزم ايفاد رجل حكيم حسن الدراية بالمسائل المالية ، واسع الخبرة بشئون الادارة مؤتمن نزيه ليحد من اسراف غالب ، ويوقف تلاعب القواد الذين يبددون أموال الدولة ، وينتهبون خزائنها ، ووقع اختيار الحكم على محمد بن أبى عامر ليقوم بأعباء هذه المهمة الشاقة ، فعينه كبيرا لقضاة المغرب الأقصى ، وأمره بمراقبة أعمال القائد العام وبخاصة من الناحية المالية ، وأصدر أوامره الى القواد والمدنيين ليستشيروا ابن أبى عامر فى كل صغيرة وكبيرة ، وأوصاهم بألا يقطعوا فى أمر دون رأيه ، وهكذا وجد ابن أبى عامر نفسه فى بهرة الجيوش وبين القواد ورجال الحرب لأول مرة فى حياته ، وكانت المهمة التى أنيطت به شاقة معقدة ، فقد كانت مصلحته الخاصة تحضه على أن يتقرب الى القواد ويخطب ودهم لتحقيق ما يختلج فى نفسه من المطامع ، ولكنه قد أرسل ليكون عيناً عليهم ، ولتكون له سلطة تضايقهم ، وتحد من نفوذهم ، وتعترض مطامعهم ، ولكن ابن أبى عامر كان مستكملاً أهبته ، مزوداً بأسلحته ، له من حسه المتفتح ، وحيويته المشبوبة وتفكيره الناضج ما يجعله أهلا لتناول كل موقف ، وتذليل كل معضلة ، وقد مكنه سحره الذى لايقاوم من تألف القلوب ، واحراز الاهتمام ، وعمل على تقريب البربر ، واكتساب ثقتهم ، فكان يجاريهم فى تفكيرهم ، ويتعرف عقليتهم ، ويتغلغل الى صميم نفوسهم ، وعرف كيف يخلب لبهم ،

ويستطير جنانهم بمنح اللهى ، واغداق العطايا على رؤسائهم ، والعناية بالمظاهر الفخمة ، وأعجب رجال الجيش بلباقته وبراعته فى تصريف الأمور .

وكان ممن أمد بهم الحكم غالبا يحيى بن محمد التجيبى حاكم الثغور الشمالية ، وكان رجاله من الجنود الأشداء المدربين ، وقد تلاحقت على غالب هذه الامدادات فى أوائل سنة ٣٦٣ فبالغ فى تشديد الحصار على الحسن بن كنون ، واضطر الحسن فى منتصف السنة الى طلب الأمان على نفسه وأهله وماله ورجاله ، فأجابه غالب الى ذلك وعاهده عليه ، فنزل الحسن بأهله ورجاله ، وأسلم الحصن الى غالب ، واستنزل غالب جميع العلويين الذين بأرض العدوة من معاقلهم ، وأخرجهم من أوطانهم ، ولم يترك فى العدوة رئيسا منهم ، وسار الى مدينة فاس فملكها ، وأتم اخضاع بلاد المغرب ، وفرق العمال فى جميع النواحى ، وقطع دعوة الفاطميين ، ورد الدعوة الى الأموية الحكمية ، وهكذا وقفت أرحاء الحرب ، ورفرف السلام فى أرجاء المغرب الأقصى ، وخرج غالب من المغرب منصرفا الى الأندلس ، وحمل معه الحسن بن كنون وجميع ملوك الأدارسة فى رمضان سنة ٣٦٣ ، ووصل الى سبتة ، وركب البحر ، واستقر بالجزيرة الخضراء ، وكتب الى الحكم يعلمه بقدومه وبمن معه من العلويين ، فلما وصل الكتاب الى الحكم أمر الناس بأن يخرجوا للقائهم ، وركب هو فى جمع عظيم من وجوه أهل دولته فتلقاهم ،

وكان يوم دخولهم قرطبة فى أوائل سنة ٣٦٤ يوماً عظيماً مشهوراً ، وسلم الحسن على الحكم ، فأقبل عليه ، وعفا عنه ، ووفى بعهده ، ووسع له ولرجاله فى العطاء ، وأجرى عليهم الجرايات الكثيرة والخلع الرفيعة ، وأثبت جميع أهله ورجاله فى ديوان العطاء ، وكانوا سبعمائة رجل أنجاد ، وأسكنه قرطبة .

وكان دخول غالب قرطبة منتصرا متوجا باكليل الغار آخر يوم من أيام الفخار والمجد فى حياة الخليفة الحكم ، فبعد أشهر قلائل أصابه فالج ولزم فراشه ، وترك أكثر شئون الدولة لحاجبه جعفر المصحفى ، وسرعان ما عرف أن يدا أخرى غير يد الخليفة هى التى تدير دفة السياسة وتحركها ، وكان المصحفى أكثر تحريا للاقتصاد من مولاه ، وأدرك أن ادارة الولايات الافريقية واعالة الأمراء الأدارسة والانفاق على بنى حمدون يكلف الدولة مالاً كثيراً ، فاتفق مع الأدارسة على أن يعودوا الى المغرب ، وردهم الى تونس حيث ذهبوا منها الى مصر ، ونزلوا على الخليفة العزيز بالله نزار ابن المعز لدين‌الله ، وأقبل عليهم نزار وبالغ فى اكرامهم ، ووعد الحسن النصرة والأخذ بثأره ، وأقام عنده مدة طويلة ، ولنترك الحسن بن كنون الآن مقيما بمصر فى كنف العزيز بالله وهو يمنى نفسه باستعادة أملاكه ، واسترداد سلطانه ، شأن الملوك فى المنفى ، وسنلقاه مرة أخرى فى أحد فصول هذا الكتاب القادمة .

واستدعى من افريقية الوزير يحيى بن محمد التجيبى ، وكان

منذ رحيل غالب يشرف على أملاك الدولة الافريقية ، وعهد فى ذلك الى الأميرين : جعفـر ويحيى ولدى على بن حمدون ، ولم يـكن الاقتصـاد وحده هو الذى أملى عليه هذا الاجراء ، فان تحـرج الأحوال فى الثغور الشـمالية كان يسـتدعى ذلك ، فقد شـجع المسيحيين فى الشمال على تجديد المناوشات والعودة الى المشـاغبة ما بلغهـم من مرض الخليفة الحـكم وتغيب أقوى جيوش الخليفة فى الجنوب ، ورد المصحفى يحيى بن محمد الى ولايته السابقة •

وأوقف الخليفة الحكم أيامه الباقيـة على تحرى أقوم الوسـائل للمحافظة على نقل الخلافة الى ابنه هشام الذى كان لايزال غلاماً ناشئاً لم يبلغ الحلم ، وطالما شغلت قلبه هذه المسألة ، وكدرت عليه صفو حياته ، وشابت أيام سروره ، فهـل تقبل الأمة خلافة غلام أو تؤثر نقل الخلافة الى أحد أعمامه ؟ وكان هذا القلق الذى ساوره طبيعيا ، فلم يسـبق أن جلس على عرش الخلافـة الأموية خليفـة لم يبلغ سن الرشد ، ومسألة الوصاية لم تكن ذائعة ولا مقبولة عند العرب ، ولـكن الحـكم أراد ألا يرث الخلافة غير ابنـه ، ووراثة العرش فى الحكومات الأوتقراطيـة من المعضلات الشـائكة ، وكثيرا ما أثارت الاحن بين الاخـوة والأقارب ، وحـركت الثـورات ، وأحدثت الانقلابات ، وكان العقلاء من خلفـاء بنى أمية فى مثل هذا الموقف يخضعون الحب البنوى لمصالح الدولة ، وكان للحكم ثلاثة اخوة من أولاد الناصر يصـلحون لولاية الملك ، وهم شـقيقه عبد العزيز

والأصبغ والمغيرة ، كما كان هناك جماعة من أولاد الخلفاء كهولا وشبانا يستطيعون أن يستقلوا بالعبء وينهضوا به ، ولكن الحكم خالف الحزم ، وتنكب الطريق المستقيم ، واستهواه حب الولد ، فنفس عليهم سلطانه ، وتخطاهم جميعا الى اختيار نجله ، وكان هناك نبوءة تقول « لايزال ملك بنى أمية بالأندلس فى اقبال ودوام ما توارثه الأبناء عن الآباء ، فاذا انتقل الى الاخوة وتوارثوه فيما بينهم أدبر وانصرم » وقد تركت هذه النبوءة فى نفس الحكم أثراً قوياً ، ووجهت تفكيره ، وكان الحكم رجلاً صافى السريرة ، طيب القلب ، ولكنه لم يكن لامع الذكاء ولا بعيد الغور ، وكان جيد الفهم ، قوى الذاكرة ، دائم الاطلاع ، ميالا الى السلام والمهادنة ، ومن ثم حبه الشديد لاقتناء الكتب والاقبال عليها ، فهذا مما يدل على هدوء مزاجه ونقاء نفسه ، لأن الكتب لاتجادل ولا تحاور ولا تقاوم ولا تناضل ، ولا تتطلب نشاطا ، ولا تستدعى حركة ، ولم يكن الحكم مستقل التفكير ، وثاب الخطرات ، واسع الخيال ، متشوفا للمجهول ، وانما كان يفكر فى الحدود المعلومة والمسائل المطروقة ، ولذا لا نستغرب منه أن يسير تفكيره فى توريث ابنه الخلافة على هذا النمط ، فلم يكن له طاقة على نقل المسألة الى أفق أوسع ، والنظر اليها من زاوية أخرى ، وقد نلتمس له العذر من الناحية الانسانية العاطفية ، ولكنه أخطأ من الوجهة السياسية خطأ جسيما ، وعرض ملك آبائه للضياع ، وجعله نهزة لمطامع الطامعين ، وهذا الخطأ الذى

تورط فيه هذا الرجل الفاضل وقع من قبل فيه الامبراطور الرومانى العظيم مرقس أورليوس صاحب كتاب « التأملات » ، فقد فرض على الدولة الرومانية ابنه كومودس ، ولم يكن يصلح بحال لتولى منصب الأباطرة الخطير ، ولاتزال هذه المسألة من غرائب التاريخ وعجائب الأقدار ، وقد كان الحكم كثيرا ما ينتقد سياسة العباسيين من هذه الناحية ، ولكنه لم يستطع أن يتجنب عثرتهم •

ورأى الخليفة أن خير ضمان لتوريث العرش هو المبادرة الى أخذ البيعة له ، فدعا أعيان الدولة ووجوه الأمة فى منتصف سنة ٣٦٤ وفى اليوم الموعود أعلن للمجتمعين عزمه على نقل الخلافة الى ولده هشام ، ودعاهم الى مبايعته ، ولم يجترىء أحد على الخلاف ، وأمر الخليفة ابن أبى عامر وميسورا ـ أحد معتوقى السيدة « صبح » ـ أن يرسلا وثائق بذلك الى مختلف الأنحاء فى الأندلس وافريقية ، ولم يمتنع أحد عن البيعة خشية اغضاب الخليفة المحبوب •

وبعد أن عاد ابن أبى عامر مع غالب ووفق فى المهمة التى أناطها به الحكم حاز اعجابه وتقديره ، وكان الحكم من قبل يرى فى برد هذا الشباب همة وفطنة ، ويعتقد أن له مستقبلاً حافلاً ، ولكن بعد عودته من المغرب ازداد به اعجاباً ، وجعل يؤثره ويقدمه ، وأضاف اليه النظر فى الحشم ، ولما أصبح هشام ولى العهد عظمت مكانة ابن أبى عامر لصلته بهشام ومكانته من السيدة «صبح» والدته ، وبلغت عنايتها به حدا لا يعرف له نظير ، وبدا لها أن السفينة فى

حاجـة الى من يقودها بين العواصف والأنواء ، وأدركت ما ينتظـر ابنها من الحوادث الجليلة فازدادت تعلقاً بابن أبى عامر واعتماداً عليه ، وثقة به ، وأصـــبح ابن أبى عامر من كبـار رجال الدولة ودعائم الخلافة ، وليس من المستبعد أن السيدة « صبح » كانت عاشقة مفتونة قبل أن تكون أماً مخلصـة ، وربما كانت عنايتها بمسـتقبل صـفيها ابن أبى عامر وتمهيد السبيل لبناء مجده ورفع منزلته أكثر من عنايتها بشئون ولدها الناشيء الذى كان فى حاجة ماسة الى التعهد الصالح ، والنصيحة المخلصة ، والتوجيه الرشـيد ، وتجنيبه مزالق السلطة الواسعة وحمايته من كيد الكائدين وطمع الطامعين .

وكان فى ابن أبى عامر قوة بركانية عاتية ، ونشـاط هائـل جبـار ، ومثـل هذه القدرة العظيمة لا تجد لها مخرجا مناسـبا فى الأعمال الكتـابية والشئون الادارية ، بل هى فى حاجـة الى ميدان واسع وأفق رحيب لتظهر فى جلالهـا الرائع ، وتدفقهـا وانبعاثهـا الهائلين ، ومثل ابن أبى عامر لا يستطيع أن يعيش عيشـــة الضيق والكفاف ، وطبيعته المتوثبة تفرض عليه أن يعيش مبذرا فى موارده باسـطا يده ، فهو فى حاجة الى البذخ والكرم والسماحة واصطناع الأنصار واصطياد القلوب والاستعانة بمختلف العناصر وتقريبها منه بطريق البذل والعطـاء ، وهو لا يحسن العمل الا محفـوفاً بالوفرة الزاخرة والمال العميم ، ومما يؤثر عنه قوله وقد نقل عن نمط الفقهاء والقضـاة الى خواص الدولة « قد قطعت الزنار ونبذت الرهبانيـة »

وأصبح قصره فى الرصافة قبلة القصاد ، يعشـون الى ضـوء ناره ، ويرجون قضاء حاجاتهم على يديه ، وعظم قدره ، وتوطدت مكانته ، وكانت صـلاته حسـنة بجميع الرجال البارزين ، وفى طليعتهم المصحفى الحاجب وأكبر رجال الدولة وأعظمهم نفوذا فى عهد الحكم المستنصر .

بدء البناء

اتصلت علة الخليفة الحكم من الفالج حتى اضعفت بنيته ، واستنزفت حيويته ، فأصعد آخر أنفاسه بين يدى الصقلبيين الخصيين: فائق المعروف بالنظامى صاحب البرد والطراز ، وجؤذر صاحب الصاغة والبيازرة ، وذلك ليلة الأحد لثلاث خلون من صفر سنة ٣٦٦ ، وتحققت المخاوف التى كانت تساور الحكم من ناحية اعتلاء ابنه هشام عرش الخلافة ، فقد كان الخصيان يعرفان أن الناس تنظر بعين الارتياب الى الانحراف عن النظام التقليدى للخلافة باسنادها الى أمير لم يبلغ سن الرشد ، ولم تظهر شخصيته أو تستقر شهرته ، ومجرد حق الوراثة لا يكفى لتسويغ ارتقاء العرش ، ولا يدرأ الأخطار التى تنجم عن نقص الخبرة وقلة الدراية ، ولم يكن هناك سوابق تبرر ذلك ، وحاول الخصيان أن يستغلا لمصلحتهما ما يعرفان من تذمر الناس واسترابتهم بمثل هذه الحالة ، وليس من المستغرب أن يستسيغ الخيانة الخصيان الناشئان فى القصور بين الدسائس والمكائد ، وأن يجدا فيها عوضا عما أنزله بهما المجتمع البشرى من العقوبة الصارمة والحرمان المؤلم ، وكان خصيان القصر

ينتهزون كل فرصة ليستزيدوا قوتهم ، وينموا أموالهم ، ويوطدوا أقدامهم ، وكان عددهم يقارب الألف ، ولهم جاه ونفوذ وثروات طائلة وضياع واسعة ، وكانوا خاصة الخليفة الناصر والحكم بعده ، وكانوا ينتهبون الأموال ، وينتهكون الحرمات ، ولا ينالهم القانون ، ولا تتعرض لهم الشرطة ، وظهرت منهم في عهد الحكم أمور قبيحة أغضى عنها مع ايثاره العدل ، واطراحه الجور ، وكان يقول عنهم : « هم أمناؤنا على الحرم فينبغي للرعية أن تلين لهم ، وترفق في معاملتهم فتسلم من معرتهم ، اذ ليس يمكننا في كل وقت الانكار عليهم » وقد زادهم ذلك الاغضاء غروراً وكبرياء وطغياناً ، وأصبح فائق وجؤذر يعتقدان ان اختيار الخليفة من حقهما وحدهما ، ولم يكن من رأيهما اختيار هشام ، لأنهما كانا يقدران أنه اذا ارتقى هشام عرش الخلافة عجز بطبيعة الحال عن تدبير الأمور وسياسة الدولة ، وآل الأمر الى المصحفي وغيره من الوزراء ، ولم يكن ما بينهما وبين المصحفي عامراً ، فاذا صار اليه الأمر تقلص نفوذهما ، وحقيقة أن البلاد أعطت البيعة ، وأقسمت يمين الطاعة ، ولكن يمين الطاعة السياسي مما يسهل التحلل منه ، وكانا يعتقدان أنهما يستطيعان أن يستردا حب الشعب وثقة الناس اذا قلدا الخلافة أميرا أكبر سنا وأنضج تجربة ، يضاف الى ذلك أن مثل هذا الأمير كان سيشعر بأنه مدين لهما فيمكن لهما في الحكم ويبسط من نفوذهما ، وكان عبد العزيز شقيق الحكم قد تقدمه بمد يده ، وأخوه الأصبغ قد

أصبح غير صالح للخلافة ، ولذا وقع اختيارهما على المغيرة ابن الناصر ، وكان عمره سبعاً وعشرين سنة على أن يقر ابن أخيه هشاما على العهد بعده ، فيمنا على المغيرة بسوق الخلافة اليه ، ويفيا لمولاهما بارتقاب كبر ولده ، ويكون الملك فى أيديهما ، ولما اتفقا على ذلك قال جؤذر لفائق « ينبغى أن نحضر جعفر بن عثمان المصحفى الحاجب ونضرب عنقه ، فبذلك يتم أمرنا » فقال له فائق « سبحان الله يا أخى تشير بقتل كاتب مولانا وشيخ من مشيختنا دون ذنب ، ولعله لا يخالفنا فيما نريده مع افتتاحنا الأمر بسفك الدم » فقال له جؤذر « هو والله ما أقول لك » ، ثم بعثا الى المصحفى ، ونعيا اليه الحكم ، وعرفاه برأيهما فى المغيرة ، وحاولا أن يجذباه الى صفهما بمعسول الكلم ، وعرضا عليه خطتهما ، وطلبا معاونته ، وكان المصحفى لايرى هذا الرأى ، ويعلم أن فيه ضياعه ، ولكنه كان يعرف الرجلين وما يستطيعان ، فتظاهر بالموافقة والتأييد ، وقال لهما « هذا والله أسد رأى ، وأوفق عمل ، والأمر أمركما ، وأنا وغيرى فيه تبع لكما ، فاعزما على ما أردتما ، واستعينا بمشاورة المشيخة فهى أنفى للخلاف وأنا أسير الى الباب فأضبطه بنفسى ، وأنفذ أمركما الى بما شئتما » وخرج عنهما فضبط باب القصر ، وتقدم فى احضار أصحابه الهاشمية مثل زياد بن أفلح مولى الحكم وقاسم بن محمد ابن القاسم القائد الذى قتل فى محاربة الحسن بن كنون ، ومحمد بن أبى عامر وهشام بن محمد بن عثمان ــ من أبناء عم

المصحفى ـ وأشباههم ، واستدعى بنى برزال اذ كانوا بطانته من سائر الجند ، واستحضر سائر قواد الأجناد الأحرار ، فاجتمع له من هذه الطوائف ما شد ركنه ، وقوى أيده ، فنعى لهم الخليفة ، وعرفهم مذهب الصقالبة فى نكث بيعة هشام ، وعرض لهم الموقف ، وقال لهم « ان أبقينا على ابن مولانا وحبسنا عليه الدولة أمنا على أنفسنا ، وصارت الدنيا فى أيدينا ، وان انتقلت الى المغيرة استبدل بنا وطلب شفاء أحقاده » فأشار عليه أصحابه بقتل المغيرة قبل أن يبلغه خبر موت أخيه فتمكنه الحيلة ، ولكن العزم شىء والتنفيذ شىء آخر ، فقد وافق المصحفى على هذا الرأى ، ولكن أصحابه تدافعوا فيما بينهم النهوض الى قتل الأمير المغيرة ، فكفوا وجبنوا ، وأحجم حتى الرجال الذين خاضوا الحرب ، وألفوا اراقة الدماء ، الاقدام على قتل هذا الأمير الرضى الأخلاق ، وتحرج الموقف ، فبدرهم محمد بن أبى عامر وقال « يا قوم انى أخاف فساد أمركم ، ونحن تبع لهذا الرئيس ـ وأشار الى جعفر المصحفى ـ فينبغى ألا تختلفوا عليه ، وأنا أتحمل ذلك عنكم ان أنفذنى ، فخفضوا عليكم » فأعجب جعفرا والجماعة ما كان منه ، وولوه شأنه ، وقالوا « أنت أحق بتولى كبره لخاصتك بالخليفة هشام ، ومحلك من الدولة » وأرسل جعفر مع محمد طائفة من الجند الأحرار وثق بهم لذلك .

وركب محمد الى المغيرة من ساعته ، وركب معه بدر القائد مولى الناصر ، فى مائة غلام من غلمان السلطان ، ووقف بهم خارج

باب دار المغيرة ، وأحاط سواه من أصحاب محمد بجهاتها ، واقتحم محمد عليه ، فوجده مطمئنا على غير استعداد ، فنعى اليه أخاه الحكم، وعرفه بجلوس ابنه هشام فى الخلافة ، وأن الوزراء خشوا خلافه فأنفذوه ليعرف رأيه ، فجزع المغيرة ، واشتد ذعره ، وأدرك ما ينطوى عليه هذا الكلام من خطر شديد ، ثم استرجع واستبشر بملك ابن أخيه ،وقال بصوت متهدج مرتجف « انى سامع مطيع واف ببيعتى ، فتوثقوا منى كيف شئتم » وأقبل يستلطف ابن أبى عامر ، ويناشده الله فى دمه ، ويسأله المراجعة فى أمره حتى رق له محمد ، وكتب الى جعفر يصدقه عنه ، ويصف له الصورة التى وجده عليها من السلامة والطمأنينة ، ويستأذنه فى شأنه ، فرد عليه جعفر يلومه فى التأخير ، ويعزم عليه فى التصميم ، ويقول له « غررتنا من نفسك ، فانفذ لشأنك أو فانصرف نرسل سواك » وكان ابن أبى عامر قد تأثر بصراحة الأمير ، وآمن بصدق كلامه ، وهو لم يحجم فى بادىء الأمر عن الاقدام على قتل الأمير عندما رأى أن الأمر لازم لمصلحة الدولة ومصلحته الشخصية ، ولكنه أصبح الآن غير راغب فى تلويث يديه بدم رجل برىء لا يخشى جانبه ، فلما اطلع على كتاب المصحفى اضطغنه فى نفسه ، ولم ينسه للمصحفى ، ولكنه لم يجد ندحة عن تنفيذ الأمر ، وعرض الرقعة على المغيرة ، وجعلها بين يديه ، وزال عن وجهه ، وأدخل عليه الجند ، وكانوا يعلمون ما ينتظر منهم ، فقتلوه خنقا فى مجلسه ، وعلقوا جسده

في مخدع متصل بمجلسه كهيئة المختنق من تلقاء نفسه ، وذلك كله بمعاينة حرمه ، ثم اشاعوا أنه خنق نفسه لما أكرهوه على الركوب لابن أخيه ، وأمرهم محمد بدفن الجثة في مجلسه ، وأن يسدوا الأبواب ليأمنوا على ولده ونعمته ، وعاد ابن أبي عامر الى جعفر وأخبره بما فعل ، فطابت نفس المصحفي وشكره وأجلسه الى جانبه لاظهار تقديره له ، ووصل ما أصاب المغيرة الى جؤذر وفائق فدهشا وسقط في أيديهما ، وقال جؤذر لفائق « قد نصحت لك فلم تسمع مني » وكان أكمل دهاء من فائق ، واضطر الى أن يظهرا بمظهر الراضي عن الحالة ، فذهبا الى جعفر المصحفي وأظهرا له السلامة والاستبشار بما أتاه والاعتذار عما ارتأياه ، وقالا « ان الجزع أذهلنا عما أرشدك الله اليه فجزاك الله عن ابن مولانا خيرا وعن دولتنا وعن المسلمين » وكان المصحفي يكره الخصيين كراهة شديدة ، ولكنه لم ير من أصالة الرأى المبادرة الى معاقبتهما ، فأظهر لهما بعض القبول وفي نفسه منهما أشياء كثيرة ، وفي نفسيهما له أبرح لوعة .

وفي اليوم التالي - يوم الاثنين لأربع خلون من صفر - أجلس جعفر هشاما بن الحكم للبيعة ، وتولى عقد الشهادة على الناس في البيعة بين يديه وكيله وصاحب شرطته الوسطى والسكة والمواريث محمد بن أبي عامر ، وكان قاضي الجماعة محمد بن اسحق ابن السليم يأخذها على من شهد المجلس من الأعمام وأبنائهم

والوزراء وطبقات أهل الخدمة ورجالات قريش وأعلام أهل الحضرة ، وكان لابن أبى عامر فى أخذ البيعة أثر كبير تذاكره الناس ، وبعد فى الناس صيته .

وبدا أن الأمور تسير سيراً حسناً ، وأن الجو قد صفا من الغيوم والسحب ، وأن الطريق قد خلا من العقبات والصخور ، والتزم الشعب الهدوء والسكينة حتى تبادر الى الظن أنه قد استراح الى فكرة الوصاية ولم يجد بها بأساً ، ولكن المظاهر خداعة ، فقد كانت النيران تشتعل تحت القشرة الخفيفة ، وكانت الناس تذم الطامعين الجشعين الذين استغلوا الظروف ، وقتلوا المغيرة ، واستولوا على السلطة ، وعمل الخصيان من ناحيتهم على زيادة التذمر بين الأهالى ومختلف طبقات الشعب ، وبدأت تظهر بوادر تنم على سريان النقمة والتبرم ، وتنذر بقرب هبوب العاصفة ، وانفجار الثورة ، ولم يغب سر هذا الشعور عن ابن أبى عامر الباقعة الذى لا يخفى عليه شىء ، فنصح المصحفى بأن يقوم بعرض الجند واظهار هيبة الدولة ارهاباً لأهل الخلاف ، وان يظهر الخليفة هشاما للشعب ليثير ولاءه العميق ، وعطفه الدفين ، وأن يسقط احدى الضرائب التى يكرهها الشعب ويضيق بها ، فوافق المصحفى على ذلك ، وفى يوم السبت السادس من جلوس هشام ، وهو العاشر من صفر سنة ٣٦٦ قلد الخليفة هشام المصحفى حجابته ، وأنهض محمد بن أبى عامر الى خطة الوزارة ، وأجراه رسيلا لحاجبه جعفر فى تدبير دولته ، وأخرجت

السيدة «صبح» أم هشام الى الحاجب جعفر ألا ينفرد عن ابن أبى عامر برأى ، وفى اليوم نفسه ركب الخليفة هشام ركبته المشهورة تحرسه الجيوش ، ومحمد بن أبى عامر بين يديه بعد أن كساه الخز ، وطاف بشوارع قرطبة ، وأمر الخليفة باسقاط ضريبة الزيتون المأخوذة على الزيت ، فسر الناس بذلك أعظم سرور ، وأذاع محمد بين الناس على ألسنة أصدقائه وشيعته أن رفع هذه الضريبة من ايحائه ، فنسب اليه شأنها ، وأنه أشار بذلك فأحبه الناس .

وكبرت على الصقالبة هزيمتهم ، وتمكنت الوحشة بينهم وبين المصحفى ، وانحرفوا عنه ، وأصحروا بالعداوة ، وكرهوا ولاية هشام ، وأخذ جعفر حذره منهم ، وأذكى عليهم العيون ، وشدد الرقابة ، وبلغه أن جؤذرا وفائقا يدبران على الدولة ، ويدسان فى ذلك الى بعض من فى قيادتهما من وجوه الغلمان والفحولة ، وكان الدخول والخروج اليهما من باب الحديد ، فأمر المصحفى بسده بالحجر ، وصير دخول الناس من باب السدة ، واستطاع بذلك أن يجعل الصقالبة تحت الرقابة ، ونظر جعفر فى ازالة الغلمان الفحولة عن رسم هذين الصقلبيين بمواطأة محمد بن أبى عامر ، وأخذ محمد يغريهم بالوعود الخلابة ، ويجتذبهم بالرشى ، ووفق فى ذلك فانحاز الى جانبه منهم خمسمائة غلام اشتد بهم أزره ، وفخم أمره ، وقدمهم فى الانزال والعطاء ، وانقلب بنو برزال الى محمد ابن أبى عامر ، وصاروا فى قيادته ، فاعتز بالطائفتين ، وتبعه سائر

الجند فهان الصقالبة ، ولم يكن جؤذر غافلاً عن ذلك ، فحاول أن يرمى بآخر سهم فى جعبته ، فقدم استقالته ، واستأذن السلطان فى الخروج الى داره مستعفياً من الخدمة ، وكان يظن أنه لا يجاب الى طلبه لفرط حاجة الخليفة اليه ، ولشد ما تحطمت آماله ، وخابت ظنونه ، عندما أذن له الخليفة فى الخروج ، وقبل استقالته ، وكان يأمل أن الخليفة لا يقبل استقالته ، ويستبقيه فيستطيع حينذاك أن يملى شروط العودة الى وظيفته ، ويفرض ارادته ، وغضب أنصار جؤذر ، واشتد وعيد الصقالبة ، وكان أشدهم فى ذلك درى الفتى أمير بياسة ، فقد بسط لسانه فى المصحفى ، وأكثر من التشنيع عليه ، والتنديد بسياسته ، فحرك جعفر ابن أبى عامر لازالته والخلاص منه ، فدس الى رعيته وأمرهم بتقديم الشكوى منه ، وكانوا كارهين لحكمه ، ناقمين على جوره وطغيانه ، فسارعوا الى ذلك ، ورفع الحاجب جعفر شكواهم الى السلطان ، وأحكم ابن أبى عامر التدبير ، وأعد للأمر عدته ، فصدر أمر الخليفة بالجمع بين درى وبين مقدمى الشكوى والنظر فى مصالحهم ، فاستدعى درى الى بيت الوزارة ، فلما أشرف على الدار ورأى من أعد فيها أحس بالشر ، وخنس راجعاً ، ولحظ ذلك محمد بن أبى عامر ، فمنعه من ذلك ، وقبض عليه ، فتجاذبا فبطش درى بابن أبى عامر ، وقبض على لحيته ، فصاح محمد بمن حضر من الجند فاحتشم الأندلسيون دريا وخشوا بأسه ، وأسرع بنو برزال الى اجابته ، فأوجعوا دريا

ضربا ، ولحقته ضربة بصفح السيف أزالت عقله ، وحمل للوقت الى داره ، فعوجل من ليلته بالقتل ، وصدر الأمر فى الوقت نفسه الى فائق وجماعة من كبار الصقالبة بالخروج الى ديارهم والتزامها ، فخرجوا اليها ، وذهبت شوكتهم ، وفل حدهم ، وتتبعهم ابن أبى عامر ، فاستصفى أموالهم ، وصادر أملاكهم ، وأصبحوا عاجزين عن مقاومة الوزيرين ، ونفى فائق الى الجزائر الشرقية (جزائر البليار) حيث مات هناك ، واستبقى المصحفى بعض الصقالبة الذين لم يشتركوا فى الحركة ، وقلد واحدا منهم ـ وهو سكر ـ أمر القصر والحرم ، فسكن أنفس الصقالبة ، وجرأهم على الطاعة ، فأصغوا اليه ، وقد قضى الوزيران على نفوذ الصقالبة ، وفصما عروتهم لمصلحتهما الشخصية ، وليخلو لهما الجو ، ولكن هذا الاجراء أرضى أهل قرطبة ، فقد كانت الصقالبة كابوسا جاثما على صدورهم ، وبذهاب دولة الصقالبة وضع ابن أبى عامر الحجر الأساسى فى بناء مجده ، وقد عاونه فى هذه المهمة الحاجب المصحفى معاونة قيمة .

في سبيل المجد

دالت دولة الصقالبة ، وتقلص نفوذهم ، واستقام أمر الدولة ، ولكن لم يلبث القلق أن ساور النفوس ، وأزعج الخواطر ، فقد بلغت بلاط نافار وليون أنباء الاضطراب الذى أعقب موت الحكم ، ورئى أن الفرصة سانحة لاسترداد المجد الحربى ، واستعادة ما أخذه المسلمون من المدن والحصون ، فجاشت جموع النصارى ، وخرجوا على أهل الثغور ، وكانوا قد أهملوا التسليح ، ولم يعدوا العدة لاستتباب الأمن ، واستقرار السلام فى عهد الحكم ، ولم يلق المعتدون مقاومة تذكر ، فدفعوا غاراتهم حتى جبل الشارات (١) ، وظهرت أعلامهم من حصون قرطبة وارتاعت السيدة « صبح » وخشيت أن يهيج ذلك الفتنة ، ويحدث أمراً جللاً ، وكان المسيحيون قد بدءوا يظهرون العداء منذ مرض الحكم ، ولم يكن ينقص المصحفى الرجال ولا المال لتقليم أظافرهم ، وكبح جماحهم ، ولكنه كان قصير الباع ، ناقص الكفاية ، لا يفهم غير الأوضاع الرتيبة ، والطرق

(١) Sierra Morena.

البالوغه ، وكان جاهلا الجهل كله بفنون الحرب ، ومما أظهر خطل سياسته ، وفشل تدبيره ، أنه أمر أهل قلعة رباح بقطع سد نهرهم ، يلتمس بذلك دفاع العدو عن حوزته ، ولم تتسع حيلته لأكثر من ذلك ، وكان ذلك من سقطاته التى أخذت عليه ، واستدعت السيدة « صبح » ابن أبى عامر ، وأفضت اليه بمخاوفها ، فقدح فى كفاية المصحفى ، ونعته بالضعف والخور ، واستغل الموقف ليظهر لها فسولة رأيه ، وفساد تدبيره ، وتكفل لها بعلاج الموقف ، والقيام بالتبعة ، اذا منح حرية الاختيار ، والعمل على اعداد حملة ليسد الخلل ، ويقتص من المسيحيين ، ويصون هيبة الدولة ، فوعدته بالتأييد ، وتلبية مطالبه .

وكان ابن أبى عامر لا ينازل عدوين فى وقت واحد ، ويتحاشى على الدوام أن يحارب فى جبهتين ، وكانت طريقته أن يستدرج أعداءه واحدا بعد الآخر ، وكان اذا كاشف أحدهم بعداوته ، وعالنه بالحرب ، بالغ فى التقرب من العدو الذى فى نيته أن ينازله بعد ذلك ، وقد استعان بالمصحفى على الصقالبة حتى بدد جمعهم ، وحطم قوتهم ، وكان الذى يعترض طريقه بعد ذلك هو المصحفى ، ففى أثناء فراغه لمجاهدة الصقالبة كان يبالغ فى التقرب من المصحفى ، ويتصنع الاخلاص له ، وأتقن تمثيل دوره حتى أوفى على الغاية ، ووثق به المصحفى ، ووصل يده بيده ، وأطلعه على سره واستراح الى كفايته ، وهو يمكر به ، وأشار عليه فى هذا

الموقف بضرورة الجهاد ، وخوفه سوء العاقبه فى تركه ، وأجمع الوزراء على ذلك الا جماعة منهم استطابت الدعة ، وألفت الخفض ، فلم تأنف من هذه السياسة الموسومة بسمة الضعف والتخاذل ، وكان ابن أبى عامر يريد أن يتوصل الى تقلد جيش المملكه ، والقيام بجهاد العدو تنفيذا لخطته ، وتحقيقا لطموحه ، وأراد أن يحتفظ لنفسه بحق اختيار القواد والجند اتقاء للفشل والهزيمة ، فلما اجتمع مجلس الوزراء ونظر فى الموقف ، وعرض الحالة ، وافق على فكرة الجهاد ، وعرض القيام به على جميع الأكابر فاحجموا الا ابن أبى عامر فقد بادر اليه على أن يختار من يخرج معه من الرجال ، ويتجهز لغزوه بمائة ألف دينار ، فاستكثر ذلك بعض من حضر من الوزراء ، فانبرى له محمد بن أبى عامر قائلا « خذ ضعفها وامض وليحسن غناؤك » فسكت المعترض عن ذلك ، وأقر المجلس اختيار ابن أبى عامر ، وتسليمه الجيش والمال .

وخرج ابن أبى عامر لثلاث خلون من رجب سنة ٣٦٦ على رأس قوة من الجيوش المختارة من نواحى المملكة ، وكان قد بلغ فى ذلك الوقت التاسعة والثلاثين ، وكان لا يعرف عن فن الحرب الا القليل الذى أفاده من مخالطته للقواد فى حرب المغرب الأقصى ، فقد أمضى حياته فى الوظائف الادارية التى لاتعين على الالمام بالشئون الحربية ، ولكن عقله المتفتح القوى الخصب مكنه من التغلب على هذه الصعوبة ، وقد استعاض عن نقص معلوماته العسكرية

وخبرته الحربيــة بما فيه من الحزم وصــدق الحكم على الأشـياء مع الاقدام المقترن بالروية واسـتيفاء الأهبة ، وبما عنده من قدرة فائقة على استنهاض همة الرجال واكتساب ثقتهم وولائهم ، وطالما نفعته هذه الموهبة فى المواقف الحرجة والأزمات الشديدة ، وقد أعانه على ذلك كرمه الشامل ، واثابته الشجاع لتزداد شجاعته ، ومسارعته الى عقاب المسيء حتى يقلع عن اساءته ويكون عبرة لغيره ، وقد ظلت هذه سياسته المتبعة فى الشئون الحربية •

ودخل بجيشــه على الثغر الجوفى فنازل حصن الحامة ، ودخل ربضه ، وأفشى النكاية فيه ، وغنم وقفل وعاد الى قرطبة بالسبى الى اثنين وخمســين يوما من خروجــه ، ولم يــكن هذا الانتصــار من الانتصارات العظيمة ، ولــكنه أعاد للخلافة هيبتها ، وأثار حماســة الجند بعد أن استطابوا الراحــة فى ظلال الأمن والســلام ، وابتعث الأمل فى العودة الى الأمجاد الحربية ، والانتصارات الباهرة ، وأقنع هذا القائد الجديد البــازغ نجمه ، الصاعد جده ، أعداء الاســلام أن سيف الخلافــة لم يعله الصـــدأ ، وان روح الجهـــاد فى الدولة الاسلامية لم تخمد ، وأمن المسلمون الى حد ما شر أعدائهم ، وعظم السرور فى قرطبة بهذا الانتصار ، وأخلص الجند لابن أبى عامر ، واستهلكوا فى طاعته لما رأوه من كرمه وحسن تعهده لهم ، واستقرت مكانته على أسس متينة ، وازداد نفوذه ، وعظم جاهه ، وأخذ يعمل على توسيع سلطته ، والبســط من نفوذه ، وكان ذلك يقتضى هدم

المصحفى واسقاطه والتخلص من سائر الموظفين الكبار الذين يعترضون طريقه ، واحلال غيرهم من رجاله محلهم ، فبدأ يعمل الحيلة فى القضاء على نفوذ المصحفى ، وكان المصحفى من أصل بربرى — كما سبق أن أوضحت — وقربه الحكم وفاء لوالده الذى كان معلمه واعجابا بأدبه — فقد كان المصحفى فى عصره يعد فى طليعة كتاب الأندلس وشعرائها — ولكن المصحفى كان فيه غرور محدثى النعمة وتأبههم ، وكان أشراف العرب وأبناء البيوتات القديمة والأسر المعروفة يلمزونه بالضعة ويسوؤهم تقلبه فى المناصب العالية حتى أصبح فى طليعة وزراء الأندلس ، ولم ينجح فى عقد الصداقات ، واكتساب المودات ، وكان خصومه وحساده يتربصون به الدوائر ، وينتظرون به المكروه ، ولم يظهر المصحفى كفاية ممتازة ولا قدرة خارقة ، ولذا كان معاصروه يستكثرون عليه تنقله فى مطالع الدولة ، والتياحه فى أفقها ، وقد حاول المصحفى فى عهد هشام أن يصلح ذلك ، فلما قلده هشام حجابته ، ورفع فراشه فوق فراش الوزراء أصحابه ، وأبدل بالكتان الديباج على سالف العادة قال « انى استحى من أصحابى أن أتمهد أفضل من فراشهم مع عجزى عن ادراك شأوهم ، غير أنا نسلم لأمير المؤمنين اختياره ، فاما أن يساوى بيننا فى فراش كرامته واما أقرنا على الأمر الأول ، ولا كفران لنعمته » فأفرش للجميع مذ زال فرش الديباج فرش الكتان ، وجرى الرسم على ذلك ، واستحسن فعل المصحفى يومئذ ،

والتزم هذه السياسة فلزم التواضع للناس ، وألان كنفه ، وأطلق لهم البشر ، ورأى بذلك أنهم يصلحون دون البذل لذات اليد ، والمواساة فى النعمة ، واستأثر بالأعمال ، واحتجن الأموال ، وشح بالنشب ، وكان ابن أبى عامر يعارضه فى ذلك ، ويأخذ معه بطرفى نقيض بالبخل جوداً ، وباقتناء الضياع اصطناع الرجال ، وكان المصحفى متعصبا لأقاربه ، فقد ملأ وظائف الدولة الكبيرة بأولاده وأولاد أخيه ، ولم يكن له مواهب السياسى البارع فلم يكن يستطيع البت فى الأحوال المتغيرة ، والمواقف المتجددة ، وصار لزاماً عليه أن يعتمد على غيره فى تدبير الأعمال السياسية ورسم الخطط ، ولما استوثق من ابن أبى عامر جعله ناصحه الأمين ، ومستشاره المخلص ، وظل ابن أبى عامر يظهر له الود المصفق ، والاخلاص المحض ، وكان أكبرهم المصحفى ان ينمو ماله ، وتمتلىء خزائنه ، وتكثر ضياعه ، وفى الوقت الذى كان ابن أبى عامر يظهر فيه آيات الاكبار وخالص النصائح للمصحفى أخذ يتصيد له العيوب ، ويحصى عليه السقطات ، وينصب له الفخاخ ، ويضع الألغام ، ويعمل من وراء ستار وفى تكتم شديد وتحفظ بالغ لهدمه ، ولا يترك فرصة تفلت دون أن يسترعى نظر السيدة صبح الى أخطائه المتوالية ، وعجزه البين ، وقلة غنائه ، ونقص كفايته ، وكانت السيدة صبح بعد وفاة زوجها الحكم لاتزال امرأة صبيحة الوجه ، ميادة القد ، ترف عليها نضرة النعيم ، وكانت منهومة بالمتعة واستمراء ما فى

الوجود من مسرات ، وتود أن تعيش ملء كيانها ، وحفل حياتها ، وقد عرف ابن أبى عامر الطريق الى قلبها ، وكيف يستولى على عواطفها ، وتأكدت بينهما المودة أو المحبة أو الوله ورفعت الكلفة ، وأصبح موقفها منه مثل موقف شجرة الدر من عز الدين أيبك ، وموقف الملكة مارى استيوارت من اللورد بوزويل ، فهى تأتمر بأمره ، وتطيع نصيحته ، وتأخذ بأحكامه ، وتتلقى وحيه ، ولا تضن عليه بتضحية ، وهكذا شأن المرأة القوية العواطف ، العارمة الميول ، اذا استولى عليها أخبث الشياطين وهو شيطان المتعة ، واستذل كبرياءها ، والهاها عن واجبها ، والسيدة صبح بشكنسية ، فهى من قوم فيهم عرامة أهل الفطرة ، وعنف ميول سكان الجبال والاماكن المنيعة ، وقد اخلصت لابن أبى عامر ، وشدت أزره ، وناصرته فى نضاله ، وعبدت له الطريق ، وأزالت منه الكثير من العقبات المعترضة .

وكان بين المصحفى وغالب صاحب مدينة سالم وشيخ الموالى وفارس الأندلس غير مدافع أشد ما كان بين اثنين من العداوة والتقاطع ، وكان المصحفى يخشى غالباً ، وكان غالب يزدريه ويمقته ولا يراه أهلا للمنصب الرفيع الذى يشغله ، وكان يرى نفسه ـ وهو الذى حاز النصر فى مختلف الميادين ـ أولى بمنصب الحجابة من الرجل الذى لم يجرد حساما ، ولم يقد جيشا ، وكان يضمر له العداوة ، ولا يتكلف مجاملته ومداراته ، وكان غالب يعد من

الوجهة الحكومية مرءوسا للمصحفى ، ولكنه كان يستهين بأوامر الحكومة ، ولا يعبأ برجالها وأظهر بسلوكه أن الحكومة لا تستطيع الاعتماد عليه ولا الثقة به ، وقد تباطأ بعد موت الحكم فى مدافعة المسيحيين ، وقعد عن ردهم لما هاجموا الثغور ، وهو لم يكن قد ارتكب بعد عملا من أعمال الخيانة ، ولم يقم بثورة ، ولم يلتمس مساعدة النصارى ، ولكن تصرفه كان يشعر بأنه سائر فى هذا الطريق ومندفع اليه ، وكان من الصعب على المصحفى فى هذه الحالة أن يثبت له ، ويرد عاديته ، فقد كان جيش غالب أحسن الجيوش دربة وأتمها تأهباً ، واذا عضده أهل قشتالة وأهل ليون اكتسح كل شىء ، وفرض ارادته ، ونال بغيته ، وكان المصحفى يعلم من ناحية أخرى أن اعداءه كثيرون ، وأنهم يتحينون الفرصة ليسلبوه منصبه وجاهه وماله وحياته اذا استطاعوا اليها سبيلا ، فأهم المصحفى شأن غالب ، وناظر الوزراء فيما بدا من تثاقله فى الذب عن الثغور ، فأشاروا عليه باستصلاحه وشراء صداقته بأى ثمن ، وكان فى طليعة هؤلاء المشيرين بذلك ، ابن أبى عامر لما أراده من مظاهرة غالب ، والاستعانة به على اسقاط المصحفى ، وأخذ ابن أبى عامر يلعب دورا من أدواره التى تدل على الحذق والبراعة والدهاء وسعة الحيلة ، فهو كان يريد هدم المصحفى وغالب معا ولكنه جريا على اسلوبه رأى أن يستعين بغالب فى اسقاط المصحفى ، واتباعا للقواعد التى سنها لنفسه أخذ يتظاهر بالاخلاص

لغالب ، ويبالغ فى التقرب منه ، ومجاملته واكتساب ثقته ، ونحرى الا يثير اى شبهة أو شكا فى نفس المصحفى ، وكان سبيل ذلك اقناع المصحفى بأن مصلحته تقتضى تقريب غالب ، وأخذ يعلى من مكانة غالب عند السيدة صبح وابنها الخليفة هشام ، وأقنع القصر بضرورة تقريب غالب واسترضائه ورعى ذمامه ، حتى خرج الاذن بترقية غالب الى منصب ذى الوزارتين ، وعهد اليه فى تدبير جيش الثغر ، والى ابن أبى عامر فى الاشراف على جيش الحضرة ، ولم يعارض فى ذلك المصحفى ، لأن ابن أبى عامر أقنعه بأن هذا هو السبيل لعقد الصلح بينه وبين غالب .

وفى يوم عيد الفطر من سنة ٣٦٦ ــ أى بعد شهر واحد من عودته الى قرطبة من غزوته الأولى ــ خرج فى غزوته الثانية ، وفى مجريط اجتمع مع غالب ، وتعاقدا على الايقاع بالمصحفى ، وخدم ابن أبى عامر فى سفره هذا غالبا خدمة ملك بها نفسه ، فمال اليه غالب بكليته ، واستمرا فى غزوهما ، وافتتحا حصن موله ، واستوليا على غنائم كثيرة ، وأسرا عددا عديدا من النصارى ، وكان أكثر الأثر فى هذه الغزوة لغالب ، فتجافى عنه لابن أبى عامر ، ولما انتهت الغزوة الظافرة افترق القائدان ، وعاد غالب الى ثغره بعد أن أبلغ فى مواطأة ابن أبى عامر على عدوه جعفر المصحفى ، وقال لابن أبى عامر عند وداعه « سيظهر لك بهذا الفتح اسم عظيم وذكر جليل وسيشغلهم السرور به عن الخوض فيما تحدثه من قصة ،

فاياك أن تخرج عن الدار (قصر الخلافة) حتى تعزل ابن جعفر عن المدينة وتتقلدها دونه » ووعده ابن أبى عامر بأنه سيعمل بنصيحته ، وسار ابن أبى عامر الى قرطبة ، وكان فخر هذه الغزوة لغالب واضع خططها والقائم بتنفيذ تفصيلاتها ، وابن أبى عامر كان يتابعه ولا يعارض خططه لأن غالبا كان قائداً قديماً محنكاً ، ولكن غالبا كان يريد اعلاء شأن ابن أبى عامر فأظهر المسألة فى ضوء آخر ، وخاطب الخليفة بحسن مناب ابن أبى عامر فى هذه الغزوة ، ونسب السعى والاجتهاد اليه ، وشكره وشد عضده عند الخليفة ، ووصلت هذه الرسالة قرطبة قبل عودة ابن أبى عامر ، ودخل محمد قرطبة منصرفا بالسبى والغنائم ، فاستمال بهذا الفتح قلوب العامة والخاصة ، وتعرفوا فيه يمن النقيبة ، فبعد صيته ، وهان عليه أمر جعفر المصحفى وغيره ، وشرع فى هدمه ، ولم يجد صعوبة فى أن يخلف ابن المصحفى ، وماذا يضن به على قائد يعود مرتين منتصرا ، ويشهد له أعظم قواد عصره ويزكيه ويطرى شجاعته ويشيد بقدرته ؟ فخرج أمر الخليفة يوم وروده بصرف محمد بن جعفر عن المدينة ومحمد بن جعفر لا يعلم ذلك ، وكان جالسا فى مجلسه تحفه الأبهة فاذا بابن أبى عامر يتقدم منه ومعه الاذن بتقلده المنصب فولى محمد بن جعفر ناكصا على عقبه ، وملك ابن أبى عامر باب القصر بولايته الشرطة والجيش ، وأصبحت المدينة والقصر والجيش فى يده ، فملك بذلك على جعفر وجوه

الحيلة ، وخلاه وليس في يده من الأمر الا أقله ، وضبط محمد المدينة ضبطاً أنسى أهل الحضرة من سلف من أفراد الكفاة وأولى السياسة ، وكان أهلها قبله فى بلاء عظيم يتحارسون الليل كله ، ويكابدون من روعات طراقه ما يكابد أهل الثغور من العدو ، وأصدر ابن أبى عامر الى رجاله أوامر مشددة بمقاومة الأشرار والضرب على أيدهم بغض النظر عن أشخاصهم ومكانة قومهم ، وهددهم بالعقوبة الشديدة اذا قبلوا الرشوة أو تهاونوا فى واجبهم ، فعاد الأمن الى نصابه ، وضرب لهم الحاكم الجديد مثلا لا ينسى ، فقد خالف ابنه الأمر ووقع فى يد الشرطة ، فأمر بجلده ، ولم يقصر فى عقابه ، ومات ابنه بعد أيام ، فخافت الناس صولة هذا الحاكم الذى لا يعفى من حكم القانون حتى ابنه وأقرب الناس اليه ، وتنزهت أعمال ابن أبى عامر عما كان ينسب الى ابن المصحفى من التقصير فى قمع الفسق والدعارات والاجرام لما كانوا يقدمونه اليه من رشى وشفاعات ، وانقمع الشر فى أيامه جملة ، واستيقظ المصحفى أخيرا من غفوته ، وانحسرت الغشاوة عن بصره ، فان عزل ابنه من منصبه بغير علمه ، وبدون مشورته ، لم يترك له مجالا للشك فى نيات ابن أبى عامر ، ولكن ماذا يصنع فى هذا الموقف ؟ كان ابن أبى عامر يستطيع أن يعتمد على مساعدة القصر وتأييده ، فقد أصبحت السيدة « صبح » أطوع له من بنانه ، وعلى أعيان الدولة الذين كانوا يؤثرون أن يروا فى مكان المصحفى رجلا من أسرة

قديمة وبيت معروف لا رجلا حديث النعمة طريف المجد يسيء اليهم بادعاء الكبرياء والتنبل أو بالتواضع المصطنع واللين الزائف ، وكان الحاكم الجديد يستطيع الاعتماد على ولاء الجيش الذى أصبح يميل اليه ويعجب به ، وعلى سكان قرطبة الذين أعجبهم ضبطه للمدينة وقطعه دابر الأشقياء والمفسدين ، ولم يكن المصحفى يستطيع أن يثق الا بولاء أفراد قلائل يعزون رخاءهم ومكانتهم الى علاقتهم به ، ويرتبط مصيرهم بمصيره .

ولم تكن القوى متعادلة فى هذا الصراع بين الرجل العبقرى والرجل العادى ، ولذا لم يكن صراعاً شائقاً له ناحيته الفنية الطريفة التى تهون مرارته ، وتسبغ عليه الروعة والجلال ، وتكشف عن الأفانين من مبتكر الحيل ، وغريب المفاجآت ، وكيف تقابل الصدمة بالصدمة ، ويرد الكيد بمثله، وكان المصحفى وابن أبى عامر رجلين من عالمين مختلفين ، وقد استطاع ابن أبى عامر بدهائه وحيلته أن يقيم جسرا مؤقتا للتعارف والتفاهم مع المصحفى ، وقد حطم هذا الجسر لما أصبح فى غير حاجة اليه ، وأدرك المصحفى حرج موقفه ، واقتدح زند قريحته ، فلم يجد سوى حيلة واحدة لانقاذ الموقف ، وهى المبادرة الى التقرب من غالب ، فكاتبه يستصلحه ، وخطب ابنته أسماء لابنه عثمان ، وكان هذا آخر سهم فى كنانته ، وتأثر غالب بطلبه ، ووافق على ذلك برغم ما كان بينهما من خلاف وعداء ، وكانت أسرة المصحفى معروفة فى

الأندلس بضخامة الثروة ، وكانت سلطة المصحفى لا تزال عظيمة ، وتمت كتابة العقد ، وحدد يوم الزفاف دون أن يعلم ابن أبى عامر بهذه التدبيرات القاضية عليه والهادمة لآماله ، ولكن مثل هذا الأمر لايطول خفاؤه ، ولا يتيسر كتمانه ، ولابن أبى عامر عيونه الذين يوافونه بما دق وجل من الأنباء ، فلما انكشف الأمر لابن أبى عامر قامت قيامته ، وثار ثائره ، وكاتب غالبا ينشـده العهد ، ويخوفه الحيلة ، ويهيج منه الحقد ، وأغرى رجال القصر فكاتبوه وصرفوه عن نيته ، ففسخ عقد الزواج ، وانحرف عن المصحفى ، وعرف غالب أنه قد أخطأ ، وتقدم ابن أبى عامر الى خطبة ابنته ، فوافق على ذلك ، وزوجه منها ، وتمت كتابة العقد فى أوائل المحرم سنة ٣٦٧ وفى أواخر شهر المحرم خرج ابن أبى عامر الى الغزو ــ وهى غزوته الثالثة ــ ودخل طليطلة فى غرة صفر ، واجتمع مع صهره غالب فعظمه وجرى الى موافقته وافتتحا حصنين من حصون المسيحيين ، ودوخا مدينة سلمنقة ، وأخذا أرباضها ، وقفل ابن أبى عامر الى قرطبة بالسبى والغنائم وبعدد عظيم من رءوس المشركين الى اربعة وثلاثين يوما من خروجه ، ورقى الى منصب ذى الوزارتين ، ورفع راتبه الى الثمانين دينارا فى الشهر ، وهو راتب الحجابة ، وبالغ الخليفة فى اكرامه والتنويه به ، واستقدم الخليفة غالبا لاستهداء اسماء الى زوجها محمد ، وأدخلت أسماء الى ابن أبى عامر من قصر الخلافة ، وكانت أعظم ليلة عرس

بالأندلس ، ووافق الزفاف ليلة النيروز ، وتكفل الخليفة بجميع النفقات ، وكانت أسماء توصف بالجمال البارع ، والأدب الصالح ، والثقافة الممتازة ، وحظيت عند ابن أبي عامر فلم يفارقها طوال حياته •

وعرف المصحفي منذ الساعة التي رفض فيها غالب طلبه ، والغى عقد الزواج أنه أصبح على شفا الهوة ، والتوى عليه أمره ، وقلت حيلته ، ووهن كيده ، وضاق به رحب الفضاء ، وهجره أصحابه ، وانفضوا من حوله ، وشرعوا يحرقون البخور لخصمه ، وكان غالب يجلس في مكان الشرف في الحفلات لأنه يحمل لقب ذي الوزارتين مع لقب الحاجب ، وعلى يمينه المصحفي ، والى يساره ابن أبي عامر •

وتدرع المصحفي بالصبر ، ووطن نفسه على احتمال المكروه ، وأصبح في يد ابن أبي عامر كالحجل في يد البازي ، وكف عن اعتراض ابن أبي عامر في شيء من التدبير ، وابن أبي عامر يداهنه ولا يكاشفه ، وجعفر يعجب من أمره ، وقد استولى عليه الأدبار والحيرة ، وأصبح يطأ الشوك ، ويخبط في الظلام ، وصار يغدو الى قصر قرطبة ويروح وحده وليس في يده من الحجابة سوى اسمها ، وابن أبي عامر قائم بشروطها ينصب الحبائل لسقوط جعفر والأقدار تساعده ، وعرف هذا الشيخ الذي كان يجر وراءه السنين أن العاصفة قريبة الهبوب ، فانتظرها ضارعاً

مستسلماً ، وكانت أسرع مما قدر ، ففي يوم الاثنين لثلاث عشرة ليلة خلت من شعبان سنة ٣٦٧ سخط الخليفة على جعفر ، وصرفه عن الحجابة ، وأمر بالقبض عليه وعلى ولده وأسبابه وعلى ابن أخيه هشام ، وصرفوا عما كان بأيديهم من الأعمال ، وطولبوا بالأموال ، وتوصل ابن أبي عامر بمحاسبتهم الى استصفاء أموالهم ، وانتهاك حقهم ، وترديد النكبات عليهم ، حتى مزقهم كل ممزق ، وسارع الى قتل هشام ابن أخي جعفر في المطبق اذ كان أشد آل عثمان عداوة له ، وبلغ من حسادته لابن أبي عامر ان سرق من رءوس النصارى التي أرسلها ابن أبي عامر الى الحضرة في غزاته الثالثة وأمر غلمانه فصبوها في النهر ، وغاظ ذلك محمد بن أبي عامر فكاشف المصحفي وأقاربه من ذلك اليوم ، وتجرد لابادتهم ، واستقصى ابن أبي عامر مال جعفر حتى باع داره بالرصافة ، وكانت من أعظم قصور قرطبة .

وكان ضمير المصحفي مثقلاً لأنه كان شاعرا بجرائر أخطائه، وعواقب أفعاله ، فقد ظلم كثيرا ، واستغل منصبه لجمع المال طويلا ، فلما أمر به الى المطبق ودع أهله وولده وداع الفرقة ، وقال « هذا وقت اجابة الدعوة ، وأنا ارتقبه منذ أربعين سنة » فسئل عما ذكره فقال « رفع على فلان أيام الناصر ، وسعى به اليه ، فأشرفت على أعماله ، فآل أمره الى ضربه ، وتغير نعمته ، واطالة حبسه فبينما أنا نائم ذات ليلة اذ أتاني آت فقال لى « اطلق فلانا فقد أجيبت

دعوته فيك ، ولهذا أمر انت لابد لاقيه » فانتبهت مذعوراً ، وأحضرت الرجل ، وسألته احلالى فامتنع على ، فاستحلفته على اعلامى بما خصنى به من الدعاء فقال « نعم ، دعوت الله ان يميتك فى أضيق السجون كما أعمرتنيه حقبه » فعلمت أنه قد وجبت دعوته ، وندمت حيث لا ينفع الندم ، وأطلقت الرجل ، ولم أزل أرتقب ذلك » .

وسجنوا فى سجن الحكومة بالزهراء ، وحوكم المصحفى أمام مجلس الوزراء ، وطالت محاكمته ، وكانت البراهين كثيرة على ارتشائه وانتهابه الأموال ، وتوالت عليه الاتهامات ، ونزعت أملاكه جميعها ، وكان الوزراء يشتدون فى محاسبته ارضاء لابن أبى عامر ، ففى آخر مرة سيق فيها الى مجلس الوزراء كان واثق الضاغط ينهره ويزعجه ويستحثه ، فقال له المصحفى : رفقا بى فستدرك ما تحبه وتشتهيه ، ويا ليت أن الموت يباع فأغلى سومه حتى يرده من قد أطال عليه حومه ثم قال :

لا تأمنن من الزمان تقلبا ان الزمان بأهله يتقلب

ولقد أرانى والليوث تخافنى وأخافنى من بعد ذاك الثعلب

حسب الكريم مذلة ومهانة الا يزال الى لئيم يطلب

واذا أتت أعجوبة فاصبر لها فالدهر يأتى بالذى هو أعجب

فلما بلغ المجلس جلس فى آخره دون أن يسلم على أحد

أو يومىء اليه بعين أو يد ، فلما أخـذ مجلسـه تسرع اليه الوزير محمد بن حفص بن جابر فعنفه وأنكر عليه ترك السـلام ، وجعفر معرض عنه ، الى أن كثر القول منه ، فالتفت اليه المصحفى وقال : « ياهذا جهلت المبرة فاسـتجهلت صـانعها ، وكفرت اليد فقصـدت الأذى ، ولم ترهب مقدمها ، ولو أتيت نكرا لكان غيرك أدرى ، وقد وقعت فى أمر ما أظنك تخلص منـه ، ولا يسعك السـكوت عنه ، ونسيت الأيادى الجميلة ، والمبرات الجليلة » فلمـا سـمع محمد ابن حفص ذلك قال « هذا البهت بعينـه ، وأى أياديك الغـر التى مننت بها ، وعنيت أداء واجبها ؟ أيد كذا أم يد كذا ؟ » وعدد أشياء أنكرها منه أيام امارته ، وتصرف الدهر طوع اشارته » .

فقال جعفر « هذا مالا يعرف ، والحق الذى لايرد ولا يصرف رقعى القطع عن يمناك » فأصر محمد بن حفص على الجحد ، فقـال جعفر « أنشد الله من له علم بما أذكره الا اعترف به فلا ينكره » .

فقـال الوزير أحمد بن عياش « قـد كـان بعض ماذكـرت يا أبا الحسن ، وغـيره أولى بـك وأنت فيمـا أنت فيـه من محنتك وطلبك » .

فقال المصحفى « أحرجنى الرجل فتكلمت » .

فأقبـل الوزير محمد بن جهـور على محمد بن حفص وقال « لقد أسأت الى الحاجب ، وأوجبت عليه غير الواجب ، أو ما علمت

أن منكوب السلطان لا يسلم على أوليائه لأنه ان فعل الزمهم الرد لقوله تعالى « واذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أوردوها » فان فعلوا أطاف بهم من انكار السلطان ما يخشى ويخاف ، لأنه تأنيس لمن أوحش ، وتأمين لمن أخاف ، وان تركوا الرد أسخطوا الله ، فصار الامساك أحسن ، ومثل هذا لا يخفى على أبى الحسن » •

فانكسر محمد بن حفص ، وخجل مما أتى به ، وأسفر وجه المصحفى وتهلل ، ثم أخذ القوم فى مناظرته على المال فقال « والله قد استنفدت ما عندى من الطارف والتالد ، ولا مطمع فى فى درهم ولو قطعت اربا اربا » فصرف الى محبسه فى مطبق الزهراء •

وكان ابن أبى عامر يحمله معه فى الغزوات تعنيتاً له ، وانتقاما منه ، واستمرت النكبة عليه سنين ، مرة يحبس ومرة يخلى ويقر بالحضرة ، وتارة يسير عنها ولا يراح فى الحالتين من المطالبة والأذى، واذا سئم ابن أبى عامر اعناته وكله الى غالب صهره فيتولى كيده ، ويضاعف عذابه •

وقد كتب الى ابن أبى عامر من سجنه يستعطفه بهذه الأبيات :

هبنى أسأت فأين العفو والكرم ... اذ قادنى نحوك الاذعان والندم
يا خير من مدت الايدى اليه أما ... ترثى لشيخ نعاه عندك القلم
بالغت فى السخط فاصفح صفح مقتدر ... ان الملوك اذا ما استرحموا رحموا

فراجعه ابن أبي عامر بهذه الأبيات ـ و يقال انه أمر عبد الملك الجزيرى الوزير الشاعر بنظمها :

الآن يا جاهــــلاً زلت بــه القــدم
تبغى التــكرم لمـا فاتـك الــكرم

أغــربت بى ملـــكا لولا تثبته
ما جاز لى عنده نطــق ولا كلــم

فايأس من العيش اذ قد صرت فى طبق
ان المـلوك اذا ما اســتنقموا نقمــوا

نفسى اذا ســخطت ليست براضــية
ولو تشــفع فيك العــرب والعجـــم

ولما بلغ المصحفى هذا الجواب قال :

لى مــدة لابد أبلغهــا — فاذا انقضت أيامهــا مت

لو قابلتنى الأسـد ضـارية — والمـوت لـم يدن لمـا خفت

فانظــر الى وكن على حــذر — فبمثل حالك أمس قد كنت

ومما يروى له عند ظهور ابن أبى عامر عليه ، وانتزاعه ما كان له من الحجابة ، واقصائه الى هذه الحالة من الهضم والاعتقال قوله :

تندمت والمغرور من قد تندما — وهل ينفع الانسان أن يتندما

غرست قضيبا خلته عود كرمه | وكنت عليه فى الحوادث قيما
أكرمه دهرى فيزداد خسة | ولو كان من عود كريم تكرما

ولم يصبر المصحفى لنكبته صبر الكرام ، ولم يتجلد تجلد الأقوياء الذين لا يستكينون للأحداث ، ولا تستذلهم نوازل الخطوب، وأبدى من الهلع والجزع ما لم يظن أنه يصدر من مثله حتى انه كتب الى ابن أبى عامر يطلب منه أن يقعد فى دهليزه معلما لأولاده ، فقال ابن أبى عامر وقد أدرك بدهائه وحذقه ما يرمى اليه المصحفى « ان هذا الرجل يريد أن يحط من قدرى عند الناس لأنهم طالما رأونى بدهليزه خادما ومسلما ، فكيف يرونه الآن فى دهليزى معلما ؟ » وكما كانت تنقصه فى حكمه أصالة الرأى وبعد النظر والهمة العالية فكذلك فى محنته كان ينقصه الاباء والكرامة ، وقد كان الألم يفطر قلبه ، ويعتصر نفسه ، فيرسل أشجانه فى أبيات سائرة يضمنها لوعته ، وينفث فيها زفرته ، من ذلك هذه الأبيات الباكية المؤثرة :

صبرت على الأيام لما تولت | وألزمت نفسى صبرها فاستمرت
فواعجبا للقلب كيف اعترافه | وللنفس بعد العز كيف استذلت
وما النفس الا حيث يجعلها الفتى | فان طمعت تاقت والا تسلت
وكانت على الأيام نفسى عزيزة | فلما رأت صبرى على الذل ذلت
فقلت لها يا نفس موتى كريمة | فقد كانت الدنيا لنا ثم ولت

وكان ابن أبي عامر على ما يظهر يستعذب ايلام هذا الرجل العاجز الواهن الذى جرد من سلاحه ، وفقد كل شيء ، وربما كان من الصعب أن نعرف سبب هذه الكراهة الشديدة ، وربما كان من الممكن ان نعزوها الى ما كان يتنزى فى نفس ابن أبى عامر من الحقد عليه لارغامه اياه على قتل المغيرة بدون مسوغ ، ولاهماله شأنه في اوائل أيامه ، ولا يبعد انه كان له أثر فى توجيه تهمة التلاعب بأموال السكة الى ابن أبى عامر عند الخليفة الحكم ، ومهما كان من أمره فقد ظل خمس سنوات يلقى الغصص ، ويتجرع الألم ، وهو مع ذلك متشبث بالحياة ، طامع فيها .

ولما بان عجزه وضعفه أقر فى المطبق الى أن وافاه هناك حمامه ، وأسلم ميتا الى أهله ، وما ترك الناس ان عدوه فى قتلى ابن أبى عامر ، وزعموا انه دس له شربة سم قضت عليه ، وقد شاءت الأقدار القاسية ان تكون خاتمة هذا الرجل العاثر الجد هكذا بلا مجد ولا فخار ، وكان لتقلبات الأيام بهذا الرجل وتبدل صورها على عينه أثر بالغ فى نفوس معاصريه ، وقد حفظ لنا أحدهم ــ وهو محمد بن اسماعيل كاتب المنصور ــ وقع هذا الحادث فى نفسه ، وتأثيره فى تفكيره فقال فى وصفه « سرت مع محمد بن مسلمة الى الزهراء لتسليم جسد جعفر الى أهله وولده والحضور على انزاله فى ملحده ، فنظرت اليه ولا أثر فيه ، وليس عليه شيء يواريه غير كساء خلق لبعض البوابين ستره به ، فدعا له محمد بن مسلمة بغاسل

فغسله والله على فرد باب اقتلع من ناحية الدار ، وأنا اعتبر من تصرف الأقدار ، وخرجنا بنعشه الى قبره وما معنا الا امام المسجد المستدعي للصلاة ، وما تجاسر أحد على النظر اليه ، وان لى في خبره لشأنا ما سمع بمثله طالب وعظ ، ولا وقع في مسمع ولا تصور للحظ ، وقفت له في طريقه أيام نهيه وأمره ، أروم ان أناوله قصة كانت به مختصة ، فوالله ما تمكنت من الدنو منه بحيلة لكثافة موكبه ، وكثرة من حف به ، وأخذ الناس السكك عليه ، وأفواه الطرق ينظرون اليه ، ويسلمون عليه ، حتى ناولت قصتي بعض كتابه الذين نصبهم جناحي موكبه لأخذ القصص ، فانصرفت وفي نفسي ما فيها من الشرق بحاله والغصص ، فلم تطل المدة حتى غضب عليه المنصور واعتقله ، ونقله معه في الغزوات ذليلا وحمله ، واتفق ان نزلت بجليقية في بعض المنازل الى جانب خبائه في ليلة نهى فيها المنصور عن وقد النيران ليخفى على العدو أثره ، ولا ينكشف له خبره ، فرأيت والله ابن عثمان يسقيه دقيقا قد خلطه بما يقيم أوده ، ويمسك به رمقه ، بضعف حال وعدم زاد ومال ، وسمعته يقول :

تأملت صرف الحادثات فلم أزل
أراها توفي عند مقصدها الحرا

فلله أيام مضت بسبيلها
فاني لا أنسى لها أبدا ذكرا

ليـالى لم يـدر الزمان مكانهـا
ولا نظرت منهـا حوادثه شـزرا
تجـافت بهـا عنـا الحوادث برهـة
وأبدت لنـا منهـا الطـلاقة والبشرا
وما هـذه الأيـام الا سـحائب
على كل أرض تمطـر الخير والشرا

ويعترف معاصرو جعفر المصحفى بأنه كان مقدما فى صناعة الكتابة ، مفضلا على طبقته بالبلاغة ، وله شـعر كثير مدون يدل فى بعض المقطـوعات على تمـكنه من الاجـادة ، وتصرفـه فى أفانين البلاغة ، من ذلك قوله فى الغزل :

ياذا الذى لم يدع لى حبـه رمقا
هـذا محبك يشـكو البث والأرقا
لوكنت تعلم ما شـوقى اليـك اذاً
أيقنت ان جميع الشـوق لى خلقـا

وقوله فى وصف سفرجلة :

ومصـفرة تختـال فى ثوب نرجس
وتعبق عـن مسـك ذكى التنفس
لهـا ريح محبـوب وقسـوة قلبه
ولون محب حلة السـقم مكتسى

فصـــفرتها من ضـــفرتى مســـتعارة
وأنفاســـــها فى الطيب انفاس مؤنسى

فلمـــا استتمت فى القضيب شـــبابها
وحـاكت لهـــا الانواء أبراد سندس

وكان لهـا ثـوب من الزغب أغبر
يرف على جســـم من التبر أملس

مددت يدى باللطف أبغى اقتطافهـــا
لأجعلهـا ريحانتى وســـط مجلس

فبزت يدى غصـبا لها ثوب جسمها
وأعريتهـا باللطف من كل ملبس

فلما تعرت فى يدى من لباســـها
ولم تبـــق الا فى غـلالة نرجس

ذكرت بهـا من لا أبـوح بذكـره
فأذبلهـــا فى الـكف حـــر تنفسى

ومما حفظ له فى ابن أبى عامر مستعطفا له قوله :

عفـا الله عنـك ! الا رحمـــة تجـــود بعفـوك ان أبعـدا
لئن جـل ذنب ولم اعتمده فأنت أجـــل وأعـلى يـدا
ألم تر عبدا عـدا طـوره ومـولى عفا ورشـيدا هـدى

ومفسد أمر تلاقيته فعاد فأصلح ما أفسدا
أقلنى أقا لك من لم يزل يقلك ، ويصرف عنك الردى

ونختم الحديث عن أدبه ونودعه بهذين البيتين من شعره :

لئن سلبونى شخصه ووصاله لما قدروا ان يسلبونى خياله
اذا حجبت عني الحوادث وجهه أقام الهوى لى حيث كنت مثاله

ولعله كان يستطيع ان يستحضر طيوف أيامه السعيدة السالفة فى أيام محنته لتواسيه في كربته ، وتؤنس من وحشته ، فاشد ما تنكر له الحظ ، واساءت اليه الأيام ، ولم يكن هو أول ولا آخر من هدمهم ابن أبى عامر فى سبيل مجده ، وبناء فخاره ، وتدعيم سلطانه ، وقد اسلم المصحفى آخر انفاسه فى سنة ٣٧٢ .

ولأبى نصر الفتح بن خاقان صاحب القلائد والمطمح رأى فى أسباب سقوط المصحفى جدير بالنظر ، فهو يقول فى تعليل ذلك « (١) وكان مما أعين به ابن أبى عامر على جعفر بن عثمان المصحفى ميل الوزراء اليه وايثارهم له عليه ، وسعيهم فى ترقيه ، وأخذهم بالعصبية فيه ، فانها وان لم تكن حمية اعرابية ، فقد كانت سلفية سلطانية ، يقتفى القوم فيها آثار سلفهم ، ويمنعون

(١) المطمح للفتح بن خاقان صفحة ٧ .

بها ابتذال شرفهم ، غادروها سيرة ، وخلفوها عادة اثيرة ، تشاح الملك فيها تشاح أهل الديانة ، وصانوا بها مراتبهم أعظم صيانة ، ورأوا ان أحدا من التوابع لا يدرك فيها غاية ، ولا يلحق لها راية . فلما أحظى المستنصر بالله جعفر بن عثمان المصحفى واصطنعه ، ووضعه من اثرته حيث وضعه ، حسدوه وذموه ، وخصوه بالمطالبة وعموه ، وكان أسرع هذه الطائفة من اعالى الوزراء وأعاظم الدولة الى مهاودة المنصور عليه ، والانحراف عنه اليه آل أبى عبدة وآل جهور وآل فطيس ، وآل شهيد وآل جهور وكانوا فى الوقت أزمة الملك ، وقوام الخدمة ومصابيح الأمة ، وأتم الخلق على جاه وحرمة ، فاحظوا محمد ابن أبى عامر مشايعة ، ولأسباب المصحفى منازعة ، وشادوا بناءه ، وقادوا الى عنصره سناءه ، حتى بلغ الأمل ، والتحف بمناه واشتمل ، وعند التئام هذه الأمور لابن أبى عامر استكان جعفر بن عثمان للحادثة، وأيقن بالنكبة ، وزوال المرتبة ، وكف عن اعتراض محمد وشركته فى التدبير ، وانقبض الناس عن الرواح اليه والتبكير ، وانثالوا على ابن أبى عامر ، فخف مركبه ، وغار من سماء العز كوكبه ، وتوالى عليه سعى ابن أبى عامر وطلبه حتى محاه ، وهتك ظلاله وأضحاه » .

في طريق البناء

خلا الجو لابن أبى عامر بسقوط المصحفى ، وحقق جانبا من برنامجه ، وفى اليوم الذى عزل فيه المصحفى رقى ابن أبى عامر الى مرتبة الحاجب ، وأصبح قسيما لصهره فى السيادة والنفوذ ، وثبتت دعائمه ، واستقرت مكانته ، وبدا للناس ان محاولة زعزعة سلطانه مركب وعر ، وخطة كثيرة الغمرات ، ولكنه برغم ذلك لقى مقاومة من جانب الحزب الذى كان يريد تنحية هشام عن الخلافة ، وكان زعيم هذا الحزب جؤذر ، فقد كبر عليه أن يصبح مهيض الجناح ، سليب الحول ، وتنتزع منه سلطته ، ويحرم مما كان يحف به من الشرف والجاه ، وانحاز اليه جماعة من اخوان ابن أبى عامر الذين ساءتهم وأوغرت صدورهم خطواته السريعة ، وطفراته الواسعة ، وأخذوا يمهدون لحركتهم بما كانوا يشيعون من قالات السوء عن العلاقة بين ابن أبى عامر والسيدة صبح ، ولم يكن ابن أبى عامر يحتمل أقل اشارة الى العلاقة الصميمة بينه وبين السيدة صبح ، وقد أدخلت مرة جارية عليه ليبتاعها ، فغنت شعرا

تغزل فيه بعض شعراء قرطبة بالسيدة صبح ، فأمر ابن أبى عامر (١) بقتلها .

واتفق جؤذر وعبد الملك بن منذر بن سعيد صاحب خطة الرد ـ رئيس المحكمة العليا ـ وغيرهما من الفقهاء والقضاة على الفتك بالخليفة هشام وخلعه ، واسناد الخلافة الى الأمير عبد الرحمن ابن عبيد الله من حفدة الخليفة الناصر ، ومن الذين اشتركوا فى هذه المؤامرة الرمادى الشاعر ، وكان حاقدا على ابن أبى عامر لأنه كان صديقا للمصحفى ، وظل وفيا له حتى بعد ان جفاه الحظ ، وكان حريصا على الانتقام من ابن أبى عامر ، ولذا أكثر من هجائه له ، ووثق المتآمرون من نجاح خطتهم لأن الوزير زياد بن أفلح حاكم قرطبة انضم اليهم ، وفى اليوم الذى اختاروه لتنفيذ خطتهم تحين جؤذر ركوب زياد الى داره بطرف المدينة ودخل القصر ، والتمس الوصول بين يدى الخليفة ، ولما توصل الى هشام المؤيد ، وحاول الفتك به تصدى له أحمد بن محمد بن عروس ، وبطش به ، وقبض عليه ، واستنجد ابن عروس بالحرس فساعدوه فى القبض على جؤذر ، ولما علم زياد بن أفلح بأن المؤامرة فشلت أقبل الى القصر مسرعآ ، فوبخه ابن عروس ، فأخذ فى الاعتذار ، وتعاونا على النازلة ، وما سلم زياد من التهمة ، ولما رد الى الخليفة الأمر فيما

---

(١) كتاب طوق الحمامة لابن حزم صفحة ٣٥ ـ نشر مكتبة عرفة بدمشق سنة ١٣٤٩ .

يختار لعبد الملك بن منذر بن سعيد من العقوبة أشار صاحب المدينة زياد بن أفلح بأن يصلب استبلاغا فى المثلة ، وكان يبغى بذلك التقرب الى ابن أبى عامر ، ونفى التهمة عن نفسه ، فعمل برأيه ، وذلك سنة ٣٦٧ ، وحوكم سائر المتآمرين وقتل الكثيرون منهم وبينهم الأمير عبد الرحمن بن عبيد الله ، ولا نعلم ما أصاب جوذرا ، ومن المرجح أنه صلب ، أما الرمادى فقد كان مصيره أهون من ذلك ، ولكنه لم يكن مصيرا يغبط عليه ، وكان ابن أبى عامر يرى نفيه ، ولكن أصدقاء الرمادى شفعوا له عند ابن أبى عامر ، فسمح ببقائه فى العاصمة ، ولكنه أعلن أنه سينزل العقوبة بكل من يتحدث اليه أو يتصل به ، وبذلك حكم على الشاعر بالصمت الدائم ، والعزلة الرهيبة ، ويظهر انه عفا عنه بعد ذلك وقربه ، وقد أظهرت هذه المؤامرة لابن أبى عامر أن ألد أعدائه والراغبين فى هدمه هم زملاؤه الذين كان يدرس معهم الفقه والشريعة فى جامعة قرطبة ، لما كان يلتهب فى صدورهم من الحسد له ، ولكن الحقد لم يكن هو السبب الوحيد فى تأريث بغضائهم ، فقد كان هناك سبب آخر له أهميته ، وذلك أن أكثر طلبة قرطبة وأساتذتها وفقهائها كانوا من المسلمين الشديدى المحافظة الكارهين للدراسات الفلسفية التى تفتح المجال للشكوك ، وتوهن العقيدة ، وتشوب صفاء الايمان ، وقد ظنوا بابن أبى عامر الظنون ، ورموه بوهن العقيدة لتساهله فى تشجيع الفلسفة ، واتهموه بأنه من الراغبين فى دراستها والمتعلقين بها ،

والواقع ان ابن أبى عامر كان سياسيا عمليا قبل كل شىء ، ولم يكن بطبيعته نزاعا الى الاستغراق فى التفكيرات الفلسفية ، ولكنه كان رجلا واسع الفكر ، كثير المرونة ، بعيدا عن التعصب ، ومثل هذه العقلية يرميها المتعصبون والمتشددون بالزندقة ، وكان ابن أبى عامر يهمه تثبيت مكانته السياسية ، ولذلك رأى أن يبذل الجهد فى درء هذه التهمة الخطيرة عن نفسه ، فاستدعى طائفة من العلماء أمثال الزبيدى وابن زكوان والأصيلى ، وأحرق بمحضرهم ما كان فى خزائن الحكم من كتب الفلاسفة ، ووقف من ذلك موقف الناهض للفلسفة ، والمدافع عن الدين ، ولم يستطع أحد أن يوجه اليه بعد ذلك تهمة التهاون فى أمر الدين ، والتقصير فى رعايته .

واطمأن ابن أبى عامر من هذه الناحية ، وأخذ بعد ذلك يرمى الى الغرض الأبعد من ضبط السلطان والحجر عليه ، والاستبداد بالدولة وأمورها ، وأراد أن يجرى فى ذلك على رسم المتغلبين على سلطان بنى العباس فى الشرق من أمراء الديلم ، وبدأ فى سبك الدولة على قالبه ، وطبعها بطابعه ، وكان ربما فاوض أصحابه فى الرأى فيشيرون عليه من الوجه الذى عرفوه ، والقانون الذى حمدوه ، فيعدل عن ذلك الى المذهب الذى شرعه ، والطريق الذى نهجه ، والخطأ الذى لا يجهل اقتحامه ، فيبهت القوم من حسن ما يقع له ، ولما استفحل أمره ، وكثر حساده برغم ما كان يغمرهم به من سابغ كرمه ، وما كان يبهرهم من لامع ذكائه ، وعظيم قدرته ،

وخاف على نفســه فى الدخول الى قصر السلطان ، أراد أن يتوثق لنفسه ، وسما الى ما سمت اليه الملوك من اختراع قصر ينزل فيه ، ويحله بأهله ورجاله ، ويجمع فيه فتيـانه وغلمانه ، فارتاد موضـع مدينته المعروفة بالزاهرة ، وأقامهـا بطرف قرطبة الشرقى على نهر الوادى الكبير ، وحشــد اليها الصناع والفعلة ، وجلب اليها الآلات الجليلة ، وتوسـع فى تخطيطها ، وبالغ فى رفع أسـوارها ، فاتسعت فى المدة القريبة وبنى معظمها فى عامين .

وفى سنة ٣٧٠ انتقل اليها ، ونزلهـا بخاصـته وعامته ، فبنوا بها ، وشحنوها بالسلاح والأموال والأمتعة ، واتخذ فيها الدواوين ، وجعل داخلها الأهراء ، وأقطع ما حولهـا لوزرائه وكتـابه وقواده وحجابه ، فابتنوا باكنافها كبار الدور ، وفخم القصـور ، وقامت بها الأسـواق ، وكثرت المرافق ، وتنافس الناس فى النزول بأكنافهـا للدنو من صاحب الدولة ، وتناهى الغلو فى البناء حوله حتى اتصلت أرباضها بأرباض قرطبة ، وكثرت بهـا العمارة وكتب الى أقطـار الأندلس والعدوة بان يحمل الى مدينتـه تلك أموال الجبـايات ، ويقصدها أصحاب الحاجات ، وحذر أن يعرج منها الى باب الخليفة عائج ، وعطل قصر الخليفة ، وجعله بمعزل ، وسد باب قصره عليه ، وجعل فيه ثقة من صنائعه يضبط القصر ، ويبسط فيه النهى والأمر ، ورتب عليه الحراس والبوابين والسمار والمتنابين يلازمون حراسة من فيه ليـلاً ونهاراً ، ويراقبون حركاتهـم فى السر والعلانيـة ،

وحجر على الخليفة كل تدبير حتى أصبح مهجور الفناء ، خفى الذكر ، محجوب الشخص ، مسدود الباب ، لا يراه خاص ولا عام ، ولا يعرف له الا الاسم السلطاني فى السكة والدعوة .

وأشاع ابن أبى عامر أن الخليفة قد فوض اليه النظر فى أمر الملك ، وتخلى له عنه لتفرغه للعبادة ، وأثبت ذلك فى أذهان الرعية حتى اطمأنوا اليه مع قوة ضبطه ، وشديد بطشه ، وانتظم له ذلك بعد أن حصن قصر الخليفة بالسور الذى أداره حوله ، وحفر الخندق المطيف به من جانبه ، ووكل بأبوابه الوثيقة من يمنع الوصول الى الخليفة الا باذن منه ، فان تجاوز أحد من الناس هذا الحد عاجله ونكل به ، فلم يكن ينفذ للخليفة أمر فى داره ولا عن حرمه الا عن اذنه ، وكان لاتخفى عليه خافية من حركات الخليفة وسكناته .

ويروى الزبيدى معلم هشام أنه كان طفلا واعدا ، وانه كان حسن الاستعداد ، جيد التحصيل ، صادق الحكم على الأشياء الى درجة غير معهودة فى الأطفال ، ولكن أمه السيدة صبح وابن أبى عامر عملا على اضعاف شخصيته ، وكسف مواهبه ، وليس من المستبعد أن يكونا قد مهدا له السبيل الى الانغماس الباكر فى اللذات الجنسية انهاكا لبنيته ، وتعطيلا لنماء عقله ، ومن ناحية أخرى وجهاه وجهة دينية محضة ، وأدخلا فى روعه ان من الخير له الاتجاه الى قراءة القرآن والافراط فى الصوم والصلاة ، والانقطاع

العبادة ، والاقتصار على ذلك حتى لا يفتح عينيه على حقيقة موقفه ، والحقيقة ان حياة هذا الخليفة المنكود الحظ كانت مأساة أليمة ، فقد جاءته الطعنة المنهرة من الناحية التى كان ينتظر منها العطف والحنان، والاخلاص والوفاء ، ورعاية مستقبله ، وتوطيد سلطانه •

ولما ترقى ابن أبى عامر الى هذا القدر أصبح صهره غالب هو العقبة الكؤود فى سبيل استئثاره بالسلطة ، فأخذ يعمل فى مكروهه ، والتوطئة لاسباب هدمه ، وقد نفعه غالب فى اسقاط المصحفى ، ولكنه الآن العقبة الوحيدة فى سبيله ، ولم يكن غالب راضيا عن معاملة ابن أبى عامر للخليفة هشام والحجر عليه ، وعز عليه أن يرى حفيد مولاه الناصر محبوسا فى قصره لا يملك من الأمر شيئاً ، وكان ابن أبى عامر من ناحية أخرى لايطيق أن يرى له معارضاً ، فصمم على التخلص من صهره ، ولكن غالبا لم يكن مرىء المأكلة مثل المصحفى ، فليست تكفى لاسقاطه دسيسة من دسائس القصر ، وغالب أقدر قواد الأندلس ، ولو انه اراد ان يستنقذ الخليفة ويرد اليه سلطانه الضائع لأطاعه الجيش ، وهدم ما بناه ابن أبى عامر ، ورأى ابن أبى عامر أن تحقيق غايته ، وتثبيت مكانته ، ودرء الخطر عن نفسه يقتضى أن يكون له جيش ضخم تام الأهبة ، حسن النظام ، يدين له بالولاء والطاعة العمياء ، وكان جيش الخليفة فى ذلك الوقت مكونا من العرب الأندلسيين ، وكان تنظيمه الحربى ناقصا •

ولم يكن اهتمامه بأمر غالب هو الباعث الوحيد على تفكيره في اعادة تنظيم الجيش ، فقد كان يفهـم الفهم كله تقلب القوم الذين يحكمهم ، وطبائعهم القلقة ، وأثبتت له التجارب الخطر الذى ينجم عن اطالة مدة السلم ، والدين يحض على ابعاد كلمة الاسلام واعلاء شأنه ، والغزوات الناجحـة ترضى الفقهاء والعامة من ناحية وتزيد في مجد الأشراف والجنود من ناحيـة أخرى ، وتتيح لهم فرصـة للنهب والسلب ، واشـتغال الجند بتلك الحملات يمنع الثورات ، ويشـغل الناس عن التحدث فى شئون الخليفة الخاصـة وأحوال القصر ، وكان ابن أبى عامر رجـلا ممتلىء النفس بالحماسة ، ظامئا الى المجد ، يريد توسيع حدود دولته ، وبسط سلطانها ، واسترداد النواحى التى استردها أعداء أمته ، وانتزعوها ممن جاءوا قبله .

وقد اعجب ابن أبى عامر فى أثنـاء زيارته للمغرب الأقصى بفرسان البربر ، وكانت أحوال مراكش فى ذلك الوقت مضطربة ، ولم يكن ابن أبى عامر قد وجه عنايته بعد الى المغرب الأقصى ، فقد علمته رحلته الى هنـاك ان مثل هذا الاقليم الجديد عبء على خزانة الدولة ، وقل ان ينتفع به ، فسار على سياسـة المصحفى ، واكتفى بابقاء الحرس فى سـبتة ، وعهد فى ادارة الولايات الافريقيـة الى الامراء الوطنيين ، وكانت هذه السياسـة صـالحة من وجهة النظر الأندلسية ، ولكنها كانت وبالا على المغرب الأقصى ، فلما رأى بلقين ابن زيرى بن مناد ــ وكان حاكم افريقية من قبل الفاطميين ثم استقل

بعد ذلك خلفاؤه بالحكم ـ ان البلاد متروكة لتحمى نفسها غزاها سنة ٣٦٩ ، فهرب الأمراء كلهم الى سبتة ، وضاقت عليهم أرض العدوة ، فقيل لابن أبى عامر قد أمكنك الله من اصطناع فرسان زناتة واعتقاد المنة عليهم ، فأرسل فيهم يأتوك سراعا ، فيجد احسانك اليهم مكانا ، ولم يقصر ابن أبى عامر فى اتباع هذه النصيحة، وعمل على ذلك ، وأنفذ كتبه الى قبائل العدوة يستدعيهم ، ويتضمن الاحسان اليهم ، والتوسعة عليهم ، فأسرعوا الى الأندلس ، وانثالوا عليه ، وكان يجيء الرجل منهم بلباس خلق على جواد أعجف فيبدل له بلباس الخز الطرازى وغيره ويركب الجواد العتيق المطهم ، ويسكن قصراً لم يتصور له فى منامه مثله .

وكان غالب يستطيل على ابن أبى عامر بأسباب الفروسية ، ويفوقه فى قيادة الجيش ، والقدرة على تدبير الخطط الحربية ، فلم يجد ابن أبى عامر خيرا من الاستعانة بخبرة الأمير الشجاع جعفر ابن على ، فجد فى استجلابه وهو مقيم فى أرض العدوة واليا على من أطاع الخليفة هشام من زناتة ، وتواترت كتب ابن أبى عامر اليه ، فأسلم العمل الى أخيه يحيى ، وعبر البحر الى الأندلس بجيشه ، فنزل قصر العقاب بعد أن أعد له ما يصلح فيه ، واستوزره وأحله محل الأخ فى الثقة ، وقدمه على الكفاة ، فوجد عنده ما أحبه وفوق ما قدره ، فاعتدل بالبرابرة أمره ، وقوى ظهره ، وكانت هذه القطعة من البربر نحو الستمائة ، ومازال بعد

ذلك يستدعيهم حتى كثرت جموعهم ، واشتد شرههم ، وكان ابن أبى عامر يبالغ فى برهم ، ولا يتعب من الاغداق عليهم ، ويدفع عنهم استهزاء الأندلسيين وزرايتهم بهم ، وقد اتفق مرة انه كان يعرض الجيش فتقدم اليه البربرى واترمار بن أبى بكر البرزالى ـ أحد جنود المغاربة ـ والميدان غاص بالناس ، وقد جلس ابن أبى عامر للعرض ، فقال له بكلام يضحك الثكلى « يا مولاى ، مالى ولك أسكنتى فانى فى الفحص » .

فأجابه ابن أبى عامر « وما ذاك ياوترمار ! وأين دارك الواسعة الأقطار ؟ » .

فقال واترمار « اخرجتنى عنها والله نعمتك ، فقد أعطيتنى من الضياع ما انصب على فيها من الأطعمة ما ملأ بيوتى ، وأخرجنى عنها وأنا بربرى مجوع حديث عهد بالبؤس ، أترانى أبعد القمح عنى ؟ ليس ذلك من رأيى » .

فتطلق وجه ابن أبى عامر وقال « لله درك من فذ عيى ، لعيك فى شكر النعمة أبلغ عندنا ، وآخذ بقلوبنا من كلام أشدق متزيد ، وبليغ متفنن » وأقبل على من حوله من أهل الأندلس فقال « يا أصحابنا هكذا فلتشكر الأيدى ، وتستدام النعمة ، لا ما انتم عليه من الجحد الملازم ، والتشكى المبرح » وأمر له بأفضل المنازل الخالية .

وأصبح ابن أبى عامر صبيحة يوم فى مطـر وابل غب أيام مثله ، فاستدعى حاجبه وقال « هذا يوم لا عهـد بمثله ، ولا حيلة للمواظبين لقصـدنا فى مكابدته ، فليت شعرى هل شذ منهم أحد عن التقدير فأغرب فى البكور ؟ اخرج وتأمل » .

فخـرج الحاجب ، وعاد إليه ضـاحكاً ، وقال « يا مولاى على الباب ثلاثة من البرابرة ، أبو الناس ابن صالح وانسـان معه ، وهم بحال من البلل انما توصف بالمشاهدة » .

فأجابه ابن أبى عامر « اوصلهم الى وعجل » .

فدخلوا عليه فى حال الملاح بللاً ونداوة ، فضحك اليهم ، وأدنى مجلسـهم ، وقال « خبرونى كيف جئتم ، وعلى أى حال وصلتم ، وقد استكان كل ذى روح فى كنـه ، ولاذ كل طائر بوكره ؟ » .

فقال أبو الناس « يا مولاى ليس كل التجار قعد عن سـوقه ، وإذا عذر التجـار على طلب الربح بالفلوس فنحن أعذر بادراكهـا بالبدر ومن غير رءوس الأمـوال ، وهم يتناوبون الأسـواق على أقدامهـم ، ويذيلون فى قصدها ثيابهم ، ونحن نأتيك على خيلك ، ونذيل على صهواتها ملابسك ، ونجعل الفضل فى قصدك مضمونا اذا جعله أولئك طمعـا ورجاء ، فترى لنا أن نجلس عن سـوقنا هذا ؟ » .

فضحك ابن أبى عامر ، ودعا بالكسى والصلات فدفعت لهم ، وانصرفوا مسرورين بغدوتهم .

وقدم ابن أبى عامر رجال البربر ، وأخر رجال العرب ، وأسقط من مراتبهم ليتم له ما أراد من الاستقلال بالملك ، والاستبداد بالأمر ، واستكثر من العبيد والمماليك والعلوج ليقهر بهم من يطاوله .

ولم يكتف بتقريب البربر واصطناعهم ، واجتلاب العبيد وشرائهم ، بل قرب قوما من مسيحيي الشمال ، وكانت الحالة فى شمال اسبانيا سيئة من جراء اضطرام الحروب الداخلية وكثرة المتنازعين على العروش ، وزاد عدد السكان ، وتناقصت الموارد ووسائل العيش ، وأغرت أهل قشتالة ونافار وليون الأجور العالية ، ولم يكن لهم وازع من قوة الوطنية وصدق العقيدة ينأى بهم عن خدمة ابن أبى عامر والارتماء فى أحضانه ، فانضموا تحت رايته ، وأخذ يغدق عليهم ، ويشملهم برعايته ، وبسط عليهم عدله ، ولم يكن العدل من شيمة حكامهم ، فأحبوه وتعلقوا به وأخلصوا له ، وكان بينهم جماعة من الجبليين الأشداء قد نسوا بلادهم ، وأصبحوا مدينين له بكل شيء .

وكان نظام القبيلة لايزال غالبا على الجيش الأندلسى ، فشرع ابن أبى عامر فى ازالة ذلك ، ووزع العرب بين فرق البربر

والمسحيين ، وبذلك قضى على التقاليد القديمة ، وبدل النظام المتبع ، وأبعد الأفراد الذين يشك فى ولائهم الى الولايات البعيدة والأقاليم النائيـة ، وأدمج صـنائعه والذين يثق بهم من العرب في فرق الجند المرتزقة .

وبرغم كرمه الغامر لم يكن يتسـاهل مع جنده فى الخروج على النظام ، ولا يغتفر أهون مخالفة ، وقد انتهت هيبتـه وضـبطه للجند الى غاية لم يبلغهـا ملك قبله ، فكانت مواقفهم فى الميدان على احتفاله مثلا فى الاطراق حتى ان الخيل لتتمثل اطـراق فرسـانها فلا تكثر الصهيل والحمحمة .

ولقد وقعت عينه مرة على بارقة سيف قد سـله بعض الجند بأقصى الميـدان لهـزل أوجـد بحيث ظن أن لحظ ابن أبى عامر لاينالة ، فقال « على بشاهر السيف » فمثل بين يديه لوقته ، فقال له « ما حملك على أن شهرت سيفك فى مكان لا يشهر فيه الا عن اذن ؟ » .

فقال « انى أشرت به على صاحبى مغمدا فذلق من غمده ! » .

فقال « ان مثل هذا لا يسـوغ بالدعوى ! » وأمر به فضربت عنقه بسيفه وطيف برأسه ، ونودى عليه بذنبه .

وبينما كان ابن أبى عامر يأخـذ أهبته ، ويعد للأمر عدته

للمعركة التى ستنشب بينه وبين صهره غالب كانت العلاقات بينهما لاتزال حسنة فى الظاهر ، وكانت لاتفوته فرصة لاظهار ولائه لغالب ومصانعته ومداراته ، ولكن هذا الجندى المجرب لم يكن ليستمر مخدوعا بمظاهر الملق والمداهنة والاحترام الزائف والولاء المصطنع ، واستشف ماوراء هذه التغيرات من غاية بعيدة ، فزاده ذلك ضيقا بابن أبى عامر وكراهة له ، ولما استقدم ابن أبى عامر جعفر بن على لم يبق عند غالب شك فى نيات صهره ، وأدرك مغزى سياسته ، وأراد أن يمكر به ويستدرجه ، فدعاه الى زيارته فى احدى غزواته وقد حل بظاهر مدينته المدعوة انتيسة ، وأعد له وليمة فى احدى قلاعها ، فلما صعد ابن أبى عامر القلعة فى خف من أصحابه وانفرد به شرع فى عتابه ، وشدد عليه النكير ، واحتدم الجدل بينهما ، واستشاط غالب غضبا ، فسب ابن أبى عامر وصاح به قائلا « يا كلب أنت الذى أفسدت الدولة ، وخربت القلاع » وسل سيفه وكر عليه به فضربه ، وكان بعض الناس حبس يده فلم تتم الضربة ، وشجه وأصابه بجراح أبانت بعض أنامله ، وأثرت أثرا كبيرا بصدغه ، وفر أمامه ، وألقى نفسه من رأس القلعة خوفا من أن يجهز عليه ، فأصاب عند استقراره ساباط بناء نشب فيه ، وتخلص جريحا ، ونجا من ورطة كانت النجاة فيها غريبة من آيات سعده ، وامتنع غالب بمعقله ، وبادر ابن أبى عامر الى مدينة سالم حيث دار غالب وولده فسبق اليها الخبر ، وضمن له

كاتب أمرها ، فاستولى عليها ، وعلى جميع ما كان له بها من مال ونعمة ، ففرق ذلك كله فى الجيش ، ولم يستأثر به ، وقفل الى قرطبة .

وأصبحت الحرب بينهما لا مندوحة عنها ، ولم يتأخر نشوبها ، ونصب غالب نفسه مدافعاً عن حقوق الخليفة ، وانحازت الى جانبه بعض الجيوش ، وتلقى مددا من مملكة ليون ، ونهض ابن أبى عامر فى جموعه الى مدينة سالم للقاء غالب ، وكان غرسية ــ قومس قشتالة ــ قد دخل الى بلده عند حركة ابن أبى عامر ليدفعه عنه ، وهو يرى انه قاصد لعادته ، فلما استبان قصده لغالب خرج اليه فى جمع من النصارى فيهم طائفة من البشكنس مع ابن ملكهم رذمير بن شانجة ، فنهد اليهم ابن أبى عامر الى انتيسة حتى نزل حصن شنت بجنت لليلتين خلتا من المحرم سنة ٣٧١ ، وبرز له غالب وقد عبأ ابن أبى عامر عسكره أحسن تعبئة ، فصار فى القلب مع الغلمان وطرائف جند الحضرة ، وصير الوزير جعفر ابن على مع البرابرة فى الميمنة ، وأبا الاحوص معن بن عبد العزيز التجيبى وحسن بن أحمد بن عبد الودود فى معظم أهل الثغور فى الميسرة ، ودارت أرحاء الحرب ثلاثة أيام ، وفى اليوم الثالث وقعت الحرب فى كل جهة ، واشتد القتال وحمى ، وأقبل غالب لما متع الضحى من هذا اليوم على فرس له عليه درعه السابغة ، وعلى رأسه طشتان مذهب مرتفع السمك قد عصبه بعصابة حمراء وشد جبينه

بعصابة أخرى ، وقد قارب فى وقتها الثمانين سنة ، وحوله كبكبة من أنجاد غلمانه وحماة رجاله ، فوقف ينظر فى صفوف ابن أبى عامر مصعداً ومصوباً ، ثم مال لمن حوله من هؤلاء وأشار الى الميمنة ، فقيل له « ابن الأندلسى والبرابرة » فقال شدوا عليهم ، وحمل عليهم حملة فضهم فيها ، ولم يثبت قدامه أحد ، وانتقضت لجولتهم الميمنة ، ثم عاد غالب الى موقفه فقال « من اولئك وأشار الى الميسرة ، فقيل له « معن وصنيعتك ابن عبد الودود مع الجيران والصحابه » فقال « الغادرون أولو القطيعة ، خصوهم على اسم الله بحملة ! » وشد عليهم ثانية كالليث العادى ، فانقلعوا قدامه طائرين لا يلوى أحد منهم على صاحبه ، واستوى له فض الجهتين فى وقت والقلب قائم مكانه قد ضبطه ابن أبى عامر بهيبته ، وهو على أحر من الجمر يصفق بيده دهشا ورجلاه تضطربان فى ركابه ينظر من أين يحاط به ولا يشك فى حتفه ومع ذلك يطامن نفسه ويردها على مكروهها فيسكن جأشه ، وقال غالب لأصحابه لما عاد من غمرة الشدة الثانية « كيف ترون عاقبة الصبر ؟ قد كسرنا جناحى القوم ، وبقى القلب ، وانما ثبت من فيه حياء من هذا (١) الاحدب الملعون ، وليسوا ذوى حفاظ ، فاصدقوا الحملة عسى الله ان يمكن منهم بقدرته » ثم رفع يدبه وقال « اللهم ان كنت تعلم أن بقائى

---

(١) المقصود بالأحدب هنا ابن ابى عامر وقد وصفه «بالحدب» كذلك الشاعر ابراهيم بن ادريس ودوزى ينفى عنه الحدب ويقول انه كان طويل القامة حسن البنية ، ولم اعثر فى المراجع العربية التى تيسرت لى قراءتها على وصف لهيئته .

أصلح للمسلمين وأعود عليهم من بقاء محمد بن أبى عامر فأهلكه وانصرنى عليه ، وان كان هو أولى بذلك منى فانصره على وأرحنى »
وحمل غالب على اثر ذلك وخوض فى القلب ، وخلط بين صفوفه ، وثار نقع عظيم فقد فيه شخصه ، وسقط فى مجال الخيل ، وأصيب مجدلا لجنبه ميتا لا أثر فيه لشيء من السلاح فى جسده ، فقيل ان قربوس سرجه أصاب قلبه ، وأرجح انه مات بسكتة قلبية ، وسيق الى ابن أبى عامر رجل من أصحاب غالب يبشره بمقتله فلم يصدقه حتى جيء برأسه ، فخر ساجداً وكبر المسلمون تكبيراً خلع قلوب أعدائهم فولوا وجوههم طائرين بكل سبيل ، ولم يكن لهم معرج على انتيسة ، وتبعهم المسلمون ، وقتلوا منهم خلقاً عظيما .

ولم يكتف ابن أبى عامر بهذا النصر الباهر ، وصمم على معاقبة أهل ليون لمساعدة خصمه ، فغزا مملكة ليون ، واقتص منها ، واقتحم مدينة سمورة وانتهبها ووضع السيف والنار فى أرباضها ، وقتل الكثيرين من سكان قراها ودساكرها ، وهدم الكنائس والصوامع والأديار ، وتحالف ملكها رذمير الثالث ـ ولم يكن قد بلغ العشرين ـ مع غرسية فرناذذ قومس قشتالة ومع ملك نافار وتقدم الثلاثة للاشتباك فى معركة مع ابن أبى عامر ، فهزمهم عند مدينة روطة Rueda فى جنوب غربى شنت منكش Simancas ، وسقطت بعد ذلك شنت منكش المنيعة فى يد ابن أبى عامر ، وقتل الكثيرين من أهلها ، واستأسر فريقا منهم ،

وزحفت جموعه بعد ذلك الى مدينة ليون ، وأسرع رذمير ليدافع عنها ، ويمنع تقدم ابن أبى عامر ، واستطاع أن يرد كرة جيوش ابن أبى عامر ، وكان يراقب سير المعركة من فوق منصة نصبت له ، فلما رأى ارتداد جنوده تملكه الغضب ، وثار ثائره ، ووثب من فوق المنصة ، ونزع خوذته الذهبية ، وانكب على الأرض ، وعرف رجاله معنى هذه الحركة ، وكانت تلك عادته عندما يعبر عن غضبه لتقصيرهم فى القيام بواجبهم ، وكان لرؤيتهم رأسه العارى من الخوذة تأثير سحرى فى نفوسهم ، فاعتذروا عن ارتدادهم ، وشدوا على العدو شدة قوية ، فلم يقو على الثبات ، ولاذ بالفرار حتى أبواب مدينة ليون ، واضطر ابن أبى عامر الى العودة الى قرطبة لدخول الشتاء ، ولما عاد مظفراً قاهرا لخصومه واعدائه تسمى بالمنصور ، وأمر ان يحيا بتحية الملوك ، ونفذت الكتب والمخاطبات والأوامر باسمه ، وأمر بالدعاء له على المنابر باسمه عقب الدعاء للخليفة ، ومحا رسم الخلافة بالجملة ، ولم يبق لهشام المؤيد من رسوم الخلافة أكثر من الدعاء على المنابر ، وأخذ الوزراء بتقبيل يده ، ثم تابعهم على ذلك وجوه بنى أمية ، فكان من يدخل عليه من الوزراء وغيرهم يقبلون يده ، واذا بدا لأبصارهم طفل من ولده قاموا اليه فاستبقوا ليده تقبيلا ، وعموا أطرافه لثماً ، وهكذا ساوى طالب قرطبة الخليفة فى هذه المراتب حتى تناهت حاله فى الجلالة والقوة .

وبدا للناس ان المنصور قد أصبح لا يطاوله مطاول ، ولا يستطيع أحد زعزعة مكانته ، وهدم نفوذه ، بيد ان المنصور كان لا يرى ذلك ، ولا يذهب هذا المذهب ، وكان هناك رجل شريف المحتد ، جليل القدر ، معروف المكانة ، له في نفوس البربر مكانة باسقة ، وقد أعانه هذا الرجل في محاربة غالب ، ولكنه قد تخلص من غالب فما حاجته الى هذا الرجل الذى قد يصبح منافسا له مرهوب الصولة ؟ كان هذا الرجل هو الأمير الشجاع جعفر ابن على الذى تقلبت على عينه الدنيا كثيرا ، وأقبل عليه الحظ وأدبر غير مرة ، وكان لجعفر منافسون وخصوم الداء من أشراف الأندلس ورجالاتها ، وفى ليلة من الليالى التى لم يكن يصل فيها الى المنصور أحد حضر الى بابه أبو الوليد محمد بن جهور ـ أحد أبناء البيوتات الأندلسية ـ واستأذن عليه ، وأدرك المنصور أنه لم يحضر فى ذلك الوقت الا لأمر ذى بال ، فوارى الحرم ، وكسر رائحة النبيذ ، وأذن له ، وأصغى اليه فأطلعه على اختلاف البربر الى جعفر بن على بقصر العقاب ، وأوصاه بالحذر ، فقبل المنصور نصيحته لأنها صادفت هوى فى نفسه ، وواطأ على قتله أبا الأحوص معن بن عبد العزيز التجيبى فارس العرب فى الأندلس مع طائفة من أصحابه الأندلسيين ، ففى ليلة الأحد لثلاث خلون من شعبان سنة ٣٧٢ دعاه المنصور الى حفلة ساهرة مكراً منه ، وحيلة لقتله ، ولما توجه الساقى بكأسه الى المنصور قال له « اسقها أعز الناس على »

فأمسك الساقي حيرة لكثرة من ضم المجلس من العلية ، فزجره ابن أبي عامر وقال « ناولها الوزير أبا أحمد عليك لعنة الله » فقام جعفر وقد أعجبه هذا الاطراء فتناولها على قدمه ، واستخفه الطرب حتى قام يرقص ، فلم يبق أحد في المجلس الا فعل كفعله ، وأميلت اليه الكؤوس حتى ثقل وانصرف في جوف الليل ثملاً مترنحاً مع بعض غلمانه ، فخرج اليه معن وأصحابه ، فلم يكن فيه امتناع لما كان عليه من السكر ، فأخذته السيوف حتى برد وحز رأسه ويده اليمنى وحمل الى ابن أبي عامر ، فأظهر الحزن عليه ، وقد بعث يحيى ولهه على أخيه الى أن قال لابن أبي عامر أول لقية لقيه غب قتل أخيه « قد علمنا من قتله ، وهذا جزاء مثله ، ولا مقام بأرضك بعده » فقال له ابن أبي عامر « لولا أن أصدق ظنك في أخيك لألحقتك به ، فاخرج الى لعنة الله غير مكلوء ولا مصاحب : » ووكل به من أزعجه فخرج الى العدوة ، وصار الى سجلماسة ، ثم ركب الصحراء الى مصر ، فقبله العزيز بالله أبو المنصور نزار ، وهو يومئذ الخليفة بها ، وأدخله في يوم زينته ، ثم جعل يعترف له بالزلة ، ويسأل الصفح والاقالة ، فقال له نزار « كلمتك بالزهراء قد أتت على ذلك كله » .

وهكذا كانت خاتمة صاحب المسيلة ، وأمير الزاب السابق وأحد النيرات الثلاثة في قوله ابن هانيء الأندلسي يمدحه :

المدنفان من البرية كلها   جسمي وطرف بابلي أحور

والمشرفات النيرات ثلاثة   الشمس والقمر المنير وجعفر

وقد مدحه بقصيدته الفائية المشهورة التى يقول فيها مادحا له :

فتى تسحب الدنيا به خيلاءها
وقد طمحت طرفا وقد شمخت أنفا
أبا أحمد قد كان فى الأرض موئل
فلم ابغ لى ركنا سواك ولا كهفا
أمنت بك الأيام وهى مخوفة
ولو بيديك الخلد أمنتنى الحتفا

ويقول له فى قصيدة أخرى :

ولا تشكر الدنيا على نيل رتبة
فما نلتها الا وأنت حقيق

وحينما وفد جعفر بن على المعز لدين الله الفاطمى مدحه ابن هانىء بقصيدة منها قوله :

كل الكرام من البرية قائل   فى المكرمات وانت وحدك فاعل
من كان يكفل شعبة من قومه   كرما فانت لكل حى كافل
واذا حللت فكل واد ممرع   واذا ظعنت فكل شعب ماحل

ولما أسرع المنصـور يطوى الدولة طيا ، وينشئها خلقاً جديداً منسوباً اليه ، معروفا باصطناعه ، وفى لأصـحابه القدماء ، وزملائه فى يوم متنزه الناعورة ، وحقق ما وعدهم به ، فاختـار ابن عمه عبد الله بن عمرو بن أبى عامر المعروف بابن عسـقلاجة حاكمـاً للمدينتين ـــ قرطبـة والزاهرة ـ وهكذا كان طالب قرطبة ، يدمر أعداءه ومنافسـيه ، ويفى لأصـدقائه القدماء اذا كان لا يخشاهم على سلطانه ، وكأنما عناه أبو الطيب بقوله :

فتى كالسحاب الجون يرجى ويتقى

يرجى الحيا منه وتخشى الصـواعق

بلوغ الذروة

كانت الممالك الاسبانية النصرانية فى القرن العاشر الميلادى ـ وهو يوافق القرن الرابع الهجرى ـ فى شقاق دائم ، ونزاع مستمر ، وكان توحيد جهودها ولم شعثها هو الطريق الوحيد لخلاصها وحفظ كيانها ، ولكن الكراهة المتأصلة والعداوة المتبادلة بين الولايات المختلفة كانتا تعوقان ذلك ، وكان الأشراف يطمعون فى العرش ، ويتوقون الى بسط النفوذ واستغلاله ، وقد استغوت الوعود الخلابة والمرتبات الضخمة الكثيرين من أشجع المحاربين الاسبانيين فكانوا يعملون جندا مرتزقة فى جيش الخليفة ، ولما اتسعت رقعة الولايات الاسلامية ، وتناقصت أملاك المسيحيين ، ازداد الخلاف بين الأمراء والقوامس الاسبانيين ، والتمس بعضهم العون من الخليفة ، وقبل فرض الجزية ، واعلان الطاعة ، والاعتراف بسيادة الخليفة ، وأصبحت قرطبة ملاذا للكثيرين من الملوك المغضوب عليهم والأمراء المخلوعين ، وكانوا يسعون لمناصرة أضرابهم وشيعتهم ، وكانت

مصلحة المسلمين في زيادة هذه الخلافات ، والاستفادة من الموقف في تأييد سلطانهم ، واعلاء كلمتهم •

وقد ساءت أحوال ليون الداخلية بعد انتصار المنصور على ملكها رذمير الثالث ، وكانت هزائمه وبالاً عليه ، فقد رغب أشراف ليون في عزل الأمير الذي خانه الحظ ، وتنكر له الدهر ، وهو برغم ذلك يتكبر ويحاول أن يكون طاغية ، وقامت ثورة في جليقية حيث اجتمعت كلمة الأشراف على تنصيب برمند عم رذمير ملكا عليهم ، واحتفل في سنة ٣٧٢ بتتويجه في كنيسة شنت ياقب ، فاسرع رذمير بجيشه الى الحدود بين ليون وجليقية ، ووقعت معركة شديدة ولكنها لم تكن فاصلة ، واعتصم بها رذمير بمدينة أسترقة ، وتفاديا للهزيمة اضطر الى التقرب من المنصور ، والاعتراف بسيادته، والتماس معونته ، وهلك على أثر ذلك في أوائل سنة ٣٧٤ ، وحاولت أمه ان تحكم ، وقدمت الطاعة للمنصور ، ولكنه تخلى عن مناصرتها وأدرك برمند أنه سيعجز عن اخضاع الأشراف ، وكسر شوكتهم ان لم يخطب ود المنصور ويقدم له الطاعة ، والظاهر أن الشروط التي قدمها كانت أكثر ملاءمة للمنصور من الشروط التي تقدمت بها أم رذمير ، فقد أيده المنصور ، وأرسل اليه جيشا من المغاربة لمظاهرته ، وتمكن من توطيد سلطانه ، ولكنه أصبح خاضعا للمنصور ، وبقي جزء كبير من جيش المنصور محتلا بلاده ، مراقبا حركاته ، فارضا عليه الحماية من أعدائه ، ولما اطمأن المنصور من

ناحية ليون صرف همه الى قطلونية ، وكانت من اقطاع ملوك فرنسا ، ولذا أمسك الخلفاء والأمراء عن مهاجمتها خشية الاشتباك فى حرب مع فرنسا ، فاستمتعت طويلا بالسلام والأمن ، ولكن المنصور لم تساوره مثل هذه المخاوف ، فقد كان يعلم أن فرنسا كانت فى ذلك الوقت مرتبكة الأحوال ، فريسة للفوضى ، وكان المجتمع الفرنسى فى طور من أطوار الانتقال ، وقد استعر الخلاف بين الملك وسادة الاقطاع ؛ ولم تكن عند حكومة فرنسا موارد كافية للانفاق على حرب طاحنة خارجية قد يطول أمدها ، ولم يكن أشرافها المتكبرون المختالون مستعدين لارسال رجالهم للاشتراك فى هذه الحملة ، ولالمام المنصور بهذه الحقائق كلها جهز جيشا ضخما ، وخرج على رأس هذا الجيش من قرطبة فى أواخر سنة ٣٧٤ ومعه طائفة من الشعراء لتتغنى بأمجاده ، وتصف مواقفه ، وجعل طريقه على شرقى الأندلس ، فمر بالبيرة وبسطة ولورقة ، ودخل مرسية قاعدة تدمير ، فتضيفه وجنده أبو عمر أحمد بن خطاب المعروف بالخازن ، وكان فى نهاية من الثراء والسرو والسماحة ، ومكث المنصور عنده ثلاثة عشر يوما وهو يقوم به وبجنده وبخدمهم جميعا على مقاديرهم، وينفذ الى باب كل واحد منهم كل يوم وظيفته من الدقيق واللحم والفاكهة (١) والقضيم ، وصار جميعهم فى كفالة ابن خطاب ما بين الوزير والشرطى ، ولم ينفق أحد منهم لنفسه طول هذه المدة

---

(١) القضيم هو شعير الدابه .

مثقال ذرة ، وكان يجدد للمنصور كل يوم نوعا من الأطعمة والفواكه لا يشبه الذى قبله ، وكانت الأوعية تختلف بحسب اختلاف الأنواع التى تقدم ، وبلغ من أمره أن صنع له ماء الحمام من ماء الورد ، ورحل ابن أبى عامر متعجباً مما تبرع به ابن خطاب ، مستغربا لمذهبه فى التحدث بنعمة ربه بعد أن أثنى عليه ، وحط جملة من خراج ضياعه وأمواله ، وكان المنصور فيما بعد يصف نعمة ابن خطاب وسروه ويقول « هى أحق نعمة بالحفظ ، وأولاها بالزيادة لسلامتها من الغمط ، وبعدها عن الجحود ، وقيامها بفرض التزكية » ويوعز الى عماله بتدمير بحفظ أسبابه ، وتحرى موافقته فى كل ما يرغب .

وسار المنصور بجيشه الى قطلونية ، وهزم الكونت بريل ، وتقدم الى برشلونة ، واقتحمها ، وقتل معظم جندها وأهلها وأسر الباقين ، وخربها ، وأشعل فيها النيران ، وقبل بريل ان يدفع جزية عالية صونا لبلاده من الخراب والتدمير .

وكان المنصور رجلا لا يعتريه الكلال ، ولا تفتر له همة ، فبعد عودته الى قرطبة تناول مشكلة المغرب الأقصى ، وقد ظل هذا الاقليم خاضعا لبلقين بن زيرى حاكم افريقية ، من قبل الفاطميين ، ولكن فى أواخر عهده وبعد موته فى أواخر سنة ٣٧٣ أخذت الشيعة الأموية تسترد جانبا من نفوذها ، وخلعت مدن كثيرة طاعة الفاطميين مثل سجلماسة وفاس ، وفى ذلك الوقت ظهر بالمغرب

الأقصى الحسن بن كنون الذى تركناه فى الفصل الثالث مقيماً عند الخليفة الفاطمى العزيز بالله نزار بن المعز لدين الله الفاطمى ، فقد ظل فى كنف العزيز بالله يتحين الفرص ، ويستنجز العزيز أن يبر بوعده بمساعدته ، والأخذ بثأره ، واسترداد عرشه ، ولان له العزيز فى النهاية ، وكتب له بعهده على المغرب وأمر عامله بلقين أن يقويه بالجيش ، وزوده العزيز بالمال ، فسار الحسن الى بلقين ، فأعطاه جيشا من ثلاثة آلاف فارس ، وافتتح بلاد المغرب ، وسارعت اليه قبائل البربر بالطاعة ، فشرع فى اظهار دعوته ، واتصل خبره بالمنصور فلم يطق السكوت على ذلك ، فبعث اليه ابن عمه الوزير عمرو بن عبد الله - ابن عسقلاجة - حاكم المدينتين فى جيش كثيف ، وقلده أمر المغرب وسائر أعماله ، وأمره بحرب الحسن ابن كنون ، فنفذ لوجهه ، وجاز البحر الى سبتة ، وخرج لحرب الحسن ، فاحاط به وحصره أياما ، ولم تطل مقاومة الحسن ، وأسقط فى يده ، ولم يجد حيلة ، وطلب الأمان لنفسه على أن يسير الى الأندلس كمثل حاله الأول ، فأعطاه الوزير من ذلك ما وثق به ، وكتب الى ابن عمه بخبره ، فأمره بتعجيله الى قرطبة موكلا به ، فبعثه ، ووصل الخبر الى المنصور بجوازه وقدومه فلم يمض أمان ابن عمه ، وأنفذ اليه من يقتله فى طريقه ، فقتل ليلا ، وقطع رأسه، ودفن جسده ، وحمل الرأس الى المنصور ، وذلك فى سنة ٣٧٥ ، والظاهر أن ابن عسقلاجة تجاوز حدوده فى الأمان الذى أعطاه

للحسن دون أن يرجع الى المنصـــور ، وكان الحسن رجـلا كثير الأطماع ، دائم التقلب والذبذبة غير مأمون الجانب ، فلم يكن المنصور يسيغ التسـامح فى معاملته وهو الذى يعرف ماضـيه وكثرة نقضه للعهـود ، ولعـل هذا هو الذى حـدا المنصـور على رفض أمان ابن عســـقلاجة وقتل الحسن ، وكان الحسن فظا غليظا شــديد الجـرأة قاسى القلب قليـل الشــفقة ، وكان فى ابان ســلطانه اذا ظفـــر بأحـــد من أعدائه أو قاطع طـريق أمر به فطـــرح من ذروة قلعته الشـــماء المســـماة بحجر النسر ، ولكن قتله على هذه الصـورة أظهـره بمظهر الشهيد ، واعتبر الناس عمل المنصور بغياً واثمـا لان أمان قائده أمانه ، وكثرت الأراجيف حـول مصرع الحسن ، وأشـيع أن فى الليلة التى قتـل فيها هبت ريح عاصفة على الجند الموكلين به ، وصـبتهم على وجوههـم ، وسلبتهم أثوابهم ، وحملت رداء الحسن المقتول فلم يجدوه ، وأظلم عليهـم الأفق حتى خافوا على أنفسهم ، وكثر اللغط فى هذا الموضـــوع حتى ساور المنصور القلق ، وخشى العاقبة ، ولذا اشتد غضبه لما علم أن ابن عمه عمرو بن عسقلاجة يتنقصه ويغض منه ويتسحب عليه ، فاستقدمه من المغـرب ، واتهمه باحتجان الأموال ، ورماه بالخيـانة العظمى ، وقتله سنة ٣٧٥ ، فضاعف ذلك السخط على المنصور ، وأضيف الى الى ذلك الســخط العطف على ابن عســـقلاجة ، وحاول أقارب ابن كنون من الادارســـة المقيمين فى الأندلس ان يثيروا الفتنة ،

فأخرجهم المنصور من الأندلس ، وقد صك أحدهم ـ وهو ابراهيم ابن ادريس الحسنى ـ المنصـــور بقصيدة من الهجاء اللاذع قبـل خروجه من الأندلس يقول فيها :

فيمـا أرى عجب لمن يتعجب ... جلت مصيبتنا وضـاق المذهب
انى لأكذب مقلتى فيمـا أرى ... حتى أقول غلطت فيما أحسب
أيكون حيـا من أمية واحـد ... ويسوس ضخم الملك هذا الأحدب
تمشى عساكرهم حوالى هودج ... اعـواده فيهن قـرد أشـهب
أبنى أمية أين أقمـار الدجى ... منـكم وما لوجوههـــا تتغيب
غابت أســـود منكم عن غابها ... فلذاك حاز الملك هذا الثعلب

ووجد « الثعلب » نفســه فى حاجة ماســة الى أن يقوم بعمل سريع يســترد به مكانتــه الشــعبية ، ويستدرك ما أصاب ســمعته الأدبية ، فصمم على توسيع أطراف الجامع الكبير الذى أصبح لا يتسع لأهل قرطبة والجيوش الافريقية ، فبدأ ينزع ملكية البيوت المقامة على الأرض المطلوبة ، وتحــرى تطييب نفوس أرباب الدور والمستغلات الذين اشـــتريت منهـم للهـدم لهذه الزيادة بانصـــافهم فى الثمن أو بمعاوضتهم معاوضة رابحة ، وصنع فى صحنه الجب العظيم قدره الواسع فناؤه ، وامتنعت احدى السيدات طويلا عن تســليم دارها لأن بحديقة تلك الدار نخلة عز عليها أن تفارقهــا ، ولما الح عليها رجال المنصــور بالرجاء ، ومنوها الأمانى ، اشترطت أن يقدم لها عوضا عنها دار بحديقتها نخلة سامقة مثل نخلة دارها التى ستفارقها ،

وكانت هناك صعوبة فى النزول على هذا الشرط ولكن المنصور لما بلغه ذلك قال « (١) لامندوحة عن اجابة طلبها ولو أفرغنا الخزانة » وكان لهذا السخاء وقعه الحسن فى النفوس ، ومن أعظم ما أعين به المنصور فى مختلف أدوار حياته سعة جوده ، وكثرة بذله ، وكان فى ذلك اعجوبة الزمان ، ولم يكن كرمه مجرد سياسة موضوعة ليتألف بها القلوب ، وانما كان الكرم عنصرا من عناصر شخصيته ، وطبيعة من طبائعه ، فلما بدأ بنيان قنطرة على نهر قرطبة الأعظم فى سنة ٣٧٨ كانت هناك قطعة من أرض لشيخ من العامة ، ولم يكن للقنطرة عدول عنها ، فأمر المنصور أمناءه بارضائه فيها ، فحضر الشيخ عندهم ، فساوموه بالقطعة ، وعرفوه وجه الحاجة اليها ، وأن المنصور لا يريد الا انصافه فيها ، فرماهم الشيخ بالغرض الأقصى عنده فيما ظنه أنها لا تخرج عنه بأقل من عشرة دنانير ذهبا كانت عنده أقصى الأمنية وشرطها صحاحا ، فاغتنم الأمناء غفلته ، ونقدوه الثمن ، وأشهدوا عليه ، ثم أخبروا المنصور بخبره ، فضحك من جهالته ، وأنف من غبنه ، وأمر أن يعطى عشرة أمثال ما سأل ، وتدفع له صحاحاً كما قال فقبض لشيخ مائة دينار ذهبا ، فكاد يخرج من عقله ويجن عند قبضها من الفرح ، وجاء محتفلا فى شكر المنصور ، وصارت قصته خبرا سائراً

---

(١) اعتمدت فى رواية هذا الخبر على دوزى ، لأنى لم اهتد اليه فى مراجعى العربية .

وقبل أن يستتم المنصور توسيع جامع قرطبة الكبير ثارت الحرب بينه وبين برمند ملك ليون ، وكان برمند قد ضاق ذرعاً بجند المسلمين المقيمين فى بلاده ، وشكا عبثهم غير مرة الى المنصور ، فأعرض عنه ، ولم يحفل به حتى نفد صبر برمند ، واستجمع شجاعته ، وأجلى جند المسلمين عن بلاده ، فرأى المنصور ضرورة تقليم أظافره ، وكسر شوكته ، ورحب المنصور بانطلاق الحرب من عقالها لأنها تلهى الشعب عن الخوض فى سياسة الدولة ، وطرائق الحكم ، وتشغله بطلب المجد والشهرة ، والتحدث عن الفتوح والوقائع ، وسرعان ما وجد الشعب مادة خصبة للحديث تثير طلعته ، وتصرفه عن غيرها ، فقد استولى المنصور على مدينة قلمرية ودكها دكا حتى تركها سبعة أعوام خاوية على عروشها ، وذلك فى اوائل سنة ٣٧٧ ، وفى السنة التالية عبرت جيوش المنصور نهر دويرة ، وتقدمت الى ليون تقدما حثيثاً وهى لا تلوى على شىء ، وتركت وراءها الخراب والدمار ، واحتمى برمند بمدينة سمورة ، وكان فى مأموله أن المنصور سيبدأ بمهاجمتها ، ولكن المنصور لم يقصد اليها ، ونهد الى ليون ، واستطاعت المدينة المقاومة لضخامة بروجها ومناعة اسوارها ولكن جيوش المنصور استطاعت أن تحدث ثغرة بأحد أسوار المدينة قرب بابها الغربى ، ونفذ منها المسلمون الى المدينة ، واستباحها المنصور ، وسفك دماء أهلها ، وبعد المقتلة نسف المدينة نسفاً فلم يترك بها جداراً قائماً ، ولا حجرا منصوباً ، وجعلها قاعاً

صفصفاً ، وصرف جيوشه بعد ذلك الى سمورة ، وحرق ما صادفه في طريقه اليها من البيع والصوامع ، وضرب حولها الحصار ، ففر عنها برمند ، وأسلمها الى المنصور ، فانتهبها ، ولم يبق لبرمند الا حصون يسيرة بالجبل الحاجز بين بلاده والبحر المحيط ، وخضعت القوامس للمنصور وأقروا له بالسيادة وعاد المنصور بعد هذه الانتصارات الباهرة الى قرطبة حيث كانت تنتظره مشكلات عدة في حاجة الى النظر السريع والحل الحاسم ، فقد علم ان جماعة من أعيان الدولة ورجالها البارزين يأتمرون به ، وان ابنه عبد الله ضالع معهم ، وكان عبد الله شابا في مقتبل العمر لا تتجاوز سنه الثانية والعشرين ، وكان فارسا صنديداً ، ولكنه لم يكن محبوبا من أبيه الذى كان يشك في بنوته ، وكان عبد الله يجهل ذلك ، وقد تغيرت نفسه على أبيه لاحظاء عبد الملك أخيه الأصغر منه سنا ، وكان عبد الله يرى أنه أشجع وأفهم وأرجل وأفرس من أخيه عبد الملك ، وأن اباه عين الظالم له في التسوية بعبد الملك فكيف في تقديمه عليه ، فكان في قلبه على أبيه سعير نار ، ونزل عبد الله ضيفاً على عبد الرحمن بن مطرف التجيبى صاحب سرقسطة والثغر الأعلى ، وكان عبد الرحمن قد فكر في شأن من أتلفه المنصور من كبار رجال الدولة ، وكيف استنزلهم من عليائهم ، واستذل كبرياءهم ، ورأى أنه لم يبق غيره ، وخشى أن يلحقه بالجماعة ، فسول له القدر المتاح التدبير على المنصور ، فلما أقام عبد الله

بسرقسطة عند عبد الرحمن أدرك من معاريض حديثه وفلتات لسانه أنه ناقم على أبيه ، واعتقد عبد الرحمن أن عبد الله آلة صالحة للانتقام من أبيه ، وأن الفرصة سانحة ، ولوح له فى بادىء الأمر تلويحات غامضة ، فلما اطمأن اليه ، وعرف دخيلة نفسه ، واتجاه تفكيره ، كشف له صفحته ، وصارحه بما يجول فى نفسه ، وتوافت أهواؤهما ، واتفقا على الوثوب بالمنصور فى أول فرصة على أن يقتسما ملك الأندلس ، فالحضرة ـ أى قرطبة وجنوب الأندلس ـ لعبد الله ، والثغر ـ شمال الأندلس ـ لعبد الرحمن ، وشرعا فى احكام سبيل ذلك ، والتماس وجهه ، وساعدهما عليه جماعة من وجوه أهل قرطبة من الجند والخدمة وغيرهم ، فيهم الوزير عبد الله ابن عبد العزيز المروانى صاحب طليطلة ، وكانت المؤامرة محكمة ، ولكنها كانت من اتساع الأطراف بحيث لايمكن أن تظل طويلا مستخفية ، وانبثت أراجيف ، وترامت اشاعات الى المنصور ، وأخذ الابهام ينجلى عنها شيئاً فشيئاً حتى تحقق المنصور صحتها ولم يشك فيها ، ورأى المنصور أن يصدم الكيد الخفى بمثله فاستدعى ابنه عبد الله من سرقسطة ، واستأنف له كثيرا من التقديم والمبرة خديعة ومغالطة ، وصرف المروانى عن طليطلة صرفا جميلاً ، ثم صرفه عن الوزارة بعد مديدة وألزمه داره وخرج فى عقب ذلك غازيا الى قشتالة بعد أن شل حركة اثنين فى طليعة المتآمرين ، وتوافت اليه أمداد الثغر ، وفيهم عبد الرحمن بن مطرف ورجال سرقسطة ، فلما

صـــاروا بوادى الحجارة أطبــق أهل الثغور على الشـــكوى من عبد الرحمن يدسيسة من المنصور لهم فى ذلك حيلة منه ، وذكروا فى شكواهم أنه يحتبس أرزاقهم ، ويحتجن لنفسه ، فصرفه المنصور عن سرقسطة فى منسلخ صفر سنة ٣٧٩ ، وقلدها مكانه ابنه يحيى الملقب بســـماجة اطماعا لقومه التجيبين فى المحافظـة على الولاء للمنصور ، ولبث عبد الرحمن فى العسكر متردداً الى ان قبض عليه يوم الثلاثاء لاثنتى عشرة ليلة خلت من ربيـع الأول ، وسخط عليه المنصور وأمر بحسابه ، ولم يشر المنصور أدنى اشارة الى اشتراك عبد الرحمن فى المؤامرة ، ولمـا ثبتت عليه تهمة اختلاس الأموال قتل بالزاهرة ، واستدعى المنصور ابنه عبد الله الى عسكره خشـية أن يحدث حدثا بأنفته ، فوافى العســكر ، فرفق به أبوه ، وأمـل استـصلاحه ، وقد تباعد ذلك عليه لسـقم سريرته ، وشدة حقده ، ونازل المنصور أثناء ذلك مدينة شنت اشتبن ، فلما اشتغل المسلمون بالقتال فر عبد الله بن المنصور من العسكر فى ستة نفر من غلمانه ، فلحق بغرســـية بن فرذلند صاحب ألبة فقبله وأجاره على أبيه ، فتحرك المنصور لغزو غرسية ومطالبته باســلام ابنه ، وأقســم له انه لا يقلع عنه حتى يمــكنه من ولده ، وأصر غرسية على الامتناع من ذلك ، فهزم المنصور غرسية ، وفض جمعه ، واشتق بلاده ، وافتتح حصن وخشمة عنوة ، وأسكنه المسلمين ، فضرع غرسية فى مسالمته على ماشـــاء من شروط فى عبد الله وغيره ، فعقد له المنصور على

ذلك ، فوكل غرسية بعبد الله جماعة من العلوج ، وحمل عبد الله وأصحابه على البغال ، وخرج سعد الخادم يستقبل عبد الله ، فدنا من سعد وهو على بغل فاره مرتفع الحلية ، وكان يرتدي ثوب وشي عجيب الصنعة ، وهو منطلق ناعم البال ، وقوي الرجاء في الاقالة ، فقبل سعد يده ، وأنسه وهون عليه الخطب ، ثم تخلف عنه بقرب الوادي الجوفي ، ووكل به من يتولى قتله فحف به الموكلون ، وأعلموه بأنه قد حل به ما كان يحذره ، وأمروه بالنزول ، فلم يمتنع لهم ، وترجل ومشى الى السيف ثبت الجنان ، وظهرت منه عند الموت صرامة عجب لها من شاهده ، وتقدم اليه ابن خفيف الشرطي فضرب عنقه صبراً عند غروب الشمس ، وأنفذ المنصور رأس ابنه الى الخليفة مع كتاب الفتح ، ودفن جسده في الموضع الذي قتل فيه ، وكانت سنه يوم قتل ثلاثا وعشرين سنة ، اما عبد الله المرواني فقد هرب ، والتجأ الى برمند ، وازداد ابن أبي عامر بما فعله بابنه هيبة ، وملئت قلوب الناس منه ذعرا ، وتكلموا في ذلك كثيرا ، ورجموا فيه الظنون ، ولم يتوجه لأحد فيه سبب يقضي بقتله ، واجترأ عليه مرة أحد أعيان البربر واسمه اطرزون وقد بسطه في بعض المجالس ، فقال له « يا مولاي لم قتلت عبد الله ابنك ؟ » ، ووصف شجاعته وخصاله فقال له المنصور « لا يسؤك ذلك فلو لم أفعل لقتلني » .

ولم يكتف المنصور بالقضاء على المؤامرة في مهدها ، ولم ينس

لغرسية أمير قشتالة ايواءه لعبد الله ابنه ، ولـكى يقتص منه أغرى به ابنه شانجة وحرضه على أن يثور بأبيه ، وظاهر أعيان القشتاليين شانجة ، فشق عصا الطاعة ، وحارب أباه ، وأيده المنصور ، واستولى على حصن شنت أشتبن وقلونية ، وكان المنصور تائقاً الى انهـاء هذه الحرب ، وعرف رجال حاشـيته الذين كانوا يتحرون مرضـاته هذه الرغبـة ، فكانوا يتقربون اليه بان يؤكدوا ان غرسـية لا يسـتطيع الثبات طويلا ، واتفق فى ذلك الوقت أن صاعدا[1] ابن الحسن اللغوي ـ وسـنتحدث عنه فيما بعد ـ أهدى الى المنصـور أيلا وكتب معه هذه الأبيات :

يا حرز كل مخوف وأمان كل مشرد ومعز كل مذلل

يا سلك كل فضيلة ونظام كل جزيلة وثراء كل معيل

جدواك أن تخصص به فلأهله	وتعم بالاحسـان كـل مؤمـل
لله عونك ما أبـرك بالهـدى	وأشد وقعك بالضلال المشعل
ما ان رأت عيني وعلمك شاهد	جدوى علائك فى معم مخول
مولاى مؤنس غربتى متخطفى	من ظفـر أيامى ممنع معقلى
عبد جذبت بضبعه ورفعت من	مقـداره أهـدى اليك بأيـل
سـميته « غرسـية » وبعثته	فى حبله ليصـح فيـه تفاؤلى
فلئن قبلت فتلك أنفس منـة	أهـدى بها ذو منحـة وتطول
صبحتك غادية السرور وجللت	أرجاء ربعك بالسحاب المخضل

فشاعت المصادفات ان يؤسر غرسية فى ذلك اليوم بعينه الذى بعث فيه صاعد بالأيل وسماه « غرسية » متفائلا بأسره ، فقال المنصور فى هذه القضية « انه لم يتفق لصاعد هذا الفأل الغريب الا لحسن نيته وسريرته وصفاء باطنه » ورفع قدره من ذلك اليوم فوق ما كان ، ورجحه على أعدائه ، ومات غرسية بعد أسره بخمسة أيام بسبب ما أصيب به من جراحات ، وتفرد شانجة بالسلطة ، ولكنه اضطر الى أن يدفع الجزية للمسلمين ، وذلك سنة ٣٨٥ ، وفى أواخر تلك السنة هاجم المنصور برمند ملك ليون عقاباً له على ايوائه عبد الله ابن عبد العزيز أحد المتآمرين ، وكان برمند مهيض الجناح مغلوبا على أمره قد استولى الأشراف على أملاكه وقطعانه ولم يتركوا له من الأمر شيئاً ، وعزف أن تحديه للمنصور كان ضربا من الحماقة ، وأدرك بعد فقد أسترقة التى اتخذها حاضرة له بعد تخريب ليون أن السبيل المأمون هو طلب الصلح ، وقبل المنصور ذلك على شريطه أن يسلم اليه عبد الله بن عبد العزيز ، ولم يسع برمند الا القبول والاستسلام ، وعاد المنصور الى قرطبة ومعه عبد الله ، فسجنه بالمطبق بعد ان طيف به قرطبة على جمل وهو مقيد ، وأظهر فى السجن تخاذلاً وجبناً ، فعف المنصور عن قتله احتقاراً لشأنه ، فظل محبوساً ، ولم يطلق سراحه الا بعد موت المنصور .

وأحاطت هذه الانتصارات الباهرة المتواترة اسم المنصور بهالة من النور ، ورفعته الى مصاف الأبطال ، وأعلت من بنيانه ،

وبسطت من سلطانه ، وجعلته الحاكم المطلق المتصرف فى شـؤون الدولة جليلها ودقيقها ، ظاهرها وباطنهـا ، ولكن المنصور لم يكتف بأن يـكون الحـاكم الفعلى للأندلس ، بـل كان يستشرف الى غاية كبرى ، ويعمل على تحقيقها بمثابرة لاتكل ، وخطـوات مطـردة مقدرة ، هذه الغاية هى أن يصـبح الحاكم الشرعى للأندلس ، ففى سنة ٣٨١ تنازل عن لقب « الحاجب » ـ أو رئيس الوزارة ـ وخلعه على ابنه عبد الملك ـ وكانت سنه لا تتجاوز الثامنـة عشرة ـ وقدم ابنه عبد الرحمن للوزارة ، واقتصر على التسمى بالمنصور ، وأمر أن يكتب فى الرسـائل « من المنصـور بن أبى عامر وفقه الله الى فلان » بحذف اسـم الحجابة ، ويذكر اسـم ولده عبد الملك بخطة الحجابة والقيادة العليا وسائر خطط المنصور ، وفى سنة ٣٨٦ أمر أن يخص بتسويده من بين سائر الناس كافة فى المخاطبات ، وأن يرفع ذلك عن سائر أهل الدولة مع الاقتصاد فى مراتب الأدعية ، وأنفذ الكتب بذلك ، وجرى العمل عليه بقية حيـاته ، وخوطب من هذا الوقت « بالملك الكريم » وقد صار اذن ملكا كريما ، ولكن لم يصبح « خليفة » والخـلافة أمله المرتجى ، وبغيته المشـــتهاة ، ولقد كان المنصور سيد الموقف ، ورجل الساعة ، وقد أصبحت غزواته المتوالية جديرة بأن تسـلكه بين أشـهر رجال الأندلس فلماذا يحجم عن المبـادرة الى تنفيذ خطته واحـداث الانقلاب الذى يحقق بغيته ؟ لم يكن الخليفة هشام الثانى هو العقبة القائمة فى سبيله ، لأنه كان أهون

خطراً وأذل شـأناً من ذلك ، وكان في ذلك الوقت في ربيع العمر وميعة الصبا ، ولكنه لم يظهر أقل رغبة في الاستقلال والاضطلاع بأعباء الحكم ، ولم يحاول صدع قيوده والافلات من العزلة التى فرضها عليه المنصور ، وكان مشغولا بالعبادات ومجالسة النساء ومحادثة الاماء ، وضاق أفق تفكيره ، وغام عقله ، واستغل باعة الآثار المزيفة قبوله للترهات ، وايمانه بالخرافات ، فكانوا يعرضون عليه ألواحا من الخشب منسوبة الى سفينة نوح ، وحوافر منسوبة الى حمار العزير ، ويقدمون له أخفافاً ، ويدخلون في روعه أنها لناقة صالح ، الى سبحات ومصليات منسوبة لجماعة من العباد والزهاد ، ولم يسترب في تعددها ، ولا فكر في مقدار ما يحتاج اليه الحيوان منها ، وبذل في ذلك من الأموال ما يزن أضعاف أوزانها ، وكان يحرص على اقتنائها لاكتساب البركات والتماس الحسنات .

ولم يكن المنصور يخشى أمراء بنى أمية ، فقد قتل من يخشى منه من بنى أمية خوفا من أن يثوروا به ، وكان يظهر أنه يفعل ذلك شفقة على هشام المؤيد حتى أفنى من يصلح منهم للولاية ، ثم مزق باقيهم في البلاد ، وأدخلهم زوايا الخمول ، ولم يكن يخشى الجيش فقد كان معظمه من البربر ومسيحيى الشمال والصقالبة ، وهم صنائعه وغرس يده ، وهو المتفضل عليهم ، وولى نعمتهم .

كان يخشى أمراً واحداً ، وهو ثورة الرأى العام ، وغضبة

الشعب ، وكان المنصور يعلم أن افرادا أقلاء من سكان العاصمة قد رأوا الخليفة هشاماً ، فقد حجر المنصور هشاماً بحيث لم يره أحد منذ ولى الحجابه ، وربما أركبه فى بعض الأحايين وجعل عليه برنساً وعلى جواريه مثل ذلك فلا يعرف منهن ، ويأمر من ينحى الناس من طريقه حتى ينتهى هشام الى موضع تنزهه ثم يعود ، وكان المنصور اذا سافر وكل بالمؤيد من يفعل به ذلك ، ولكن هشاماً برغم ذلك كان محبوباً من الشعب لأنه ابن الحكم الثانى الخليفة العادل الصالح ، وحفيد عبد الرحمن الثالث الخليفة العظيم ، ثم هو قبل كل شيء الحاكم الشرعى للبلاد وسليل الأسرة الأموية !

وكان احترام صفة الخليفة الشرعية بعيد الأعراق فى قلب الأندلسيين وكان فى نفوس الشعب أقوى منه فى نفوس الأشراف والأعيان ، وكان أكثر الأشراف من أصل عربى ، وكانوا يستطيعون أن يقنعوا أنفسهم بأن تغيير الأسرة الحاكمة من الحين الى الحين قد يكون نافعا لهم ، ولكن مثل هذه الفكرة كان يمقتها الشعب المطبوع على الولاء والتأثر بذكريات الماضى المجيد ، وكان حب الأمويين ممتزجاً فى النفوس بالعواطف الدينية والتعلق بالماضى والاستمساك بالتقاليد ، ولقد اجتلب المنصور ألبابهم بفتوحه الكثيرة ، وملأ الأندلس غنائم وسبايا ، وأصبح الناس فى عيش راغد ، ورخاء مستفيض ، ولكنهم لم يستطيعوا أن ينسوا له حجره على الخليفة ،

وكانوا متأهبين للثورة الجائحة لو اجترأ الوزير على تقلد الخلافة ، واسقاط الأسرة الأموية .

ولم يكن المنصور صاحب رسلة وتهاون ، ولكنه كان أحد ذهناً وأدق نظراً من أن يجهل ميول الشعب الحقيقية ، وكان سياسياً عمليا يبنى سياسته على الواقع وينسج خيوطها منه ، وقد استطاع بالتزامه هذه السياسة الا يترك لأعدائه ثلمة يقتحمون عليه منها ، وكان يعلل نفسه بأن ميول الشعب ستتغير على مر الأيام ، وينسى أمر الخليفة ، ويندثر ذكره ، وتتعلق به الأنظار ، وينساط به الرجاء ، فتتحقق أحلام صباه كاملة غير منقوصة ، ويصل الى غايته دون أن يحدث ذلك رجة مدوية ، وكان خيرا للمنصور أن أخر تحقيق أمنيته فانه سرعان ما أدرك أن قوته برغم مابذل من جهود وقام به من فتوح لاتزال فى مهاب الرياح ، فقد تصدت لمناوأته امرأة ، ونصبت لحربه وكادت تهدم له ما بنى وتنقض ما أبرم ، وهذه المرأة هى السيدة صبح أم الخليفة هشام .

وقد أحبته هذه السيدة ، وتدلهت به ، ومهدت له السبيل ، وأعانته بجاهها ونفوذها ، وأفاءت عليه ظلها ، ولكنه شعر أخيرا بأنه فى غير حاجة اليها ، وقد ساءها أن يتنكر لها ، ويهمل أمرها بعد أن قوى نفوذه ، وترامت سلطته ، وثبتت مكانته ، وكبر عليها أن يتخلى عنها بعد أن ولى شبابها ، وترحلت نضارته ، وزايلتها أحلامه وبهجته ، ولقد أحاطها فى الماضى من شامل رعايته وفرط عنايته بجو

سحرى عبق ، وهبت على روحها من ناحيته نسمات منعشة ، ورياح أرجة ، أما الآن فقد ترك فى نفسها صدعاً لا يشعب وجرحا لايندمل ، ولقد كان همه أن يترضى غرورها ، ويتملق نزواتها ، وطالما أشادت من أجل ذلك بسجاياه الموموقة ، وخلاله الباهرة ، وكفايته الممتازة ، وقد غمر قلبها حبه ، وغطى على فكرها ، وتغلب فى نفسها على حنان الأمومة ، فضحت من أجله بمستقبل ولدها الوحيد ، ومعقد أملها ، ومناط فخرها ، وقد ظل المنصور حينا من الدهر يبالغ فى ارضائها ، ويتجنب سخطها ، ويستوحى سماءها حتى خدعها عن حقيقته ، فخالت أن لها فى نفسه مكانة لا تبليها الأيام ، ولا تخترمها الحوادث ، ولكنه الآن لا يعيرها اهتماما ، ولا يظهر لها رعاية ، وكان هو كذلك قد تقضى شبابه ، وعلت سنه ، وثقل عليه عبء السنين ، وزاده صرامة تقلب الحوادث وأعاصير الحروب ، ولقد فقد ما كانت تعهد فيه من طلاقة البشر ، ولين الكلام، وتعاوره الهم الملازم لتحمل التبعات الجسيمة ، والنهوض بالأعباء المبهظة ، ولكن هل تستكين وتقبل الهزيمة صاغرة ؟ لقد كان فى طبعها عرام وشدة ، وفى عواطفها عنف وقوة ، وهى من سلالة أقوام أشداء جبليين ، وقد أحبت بكل جوارحها ، ومثل هذا الحب العاصف لاتفتر قوته ، ولا تنطفىء جذوته ، وانما قد يستحيل عداوة صماء ، وحقدا متلظيا ، فلابد من معركة هائلة بين هذه المرأة القادمة من ثنيات الشمال وهذا الرجل المقبل من هضبات الجنوب ، ولقد

قصم هذا الرجل أعداءه جميعا ، وعصبهم عصب السلمة ، ومحقهم محقاً ، فهل تراه يتبت لكيد هذه المرأة العظيم ، ويلزمها حدودها ، ويتغلب عليها ؟ وماذا تستطيع أن تصنعه هذه السيدة برجل لا تكبو قريحته ، ولا يمترج عليه تدبير ، ولا تضيق به خطة ، ولكل عقدة عنده حلها المناسب ، ولكل معركة سلاحها المدخر ، وعتادها المهيأ ؟

حاولت السيدة صبح أن تستنهض عزيمة ابنها ، وأن تبصره بواجباته ، وأغرته بتفكيك القيود التى قيده بها الوزير ، وقد استطاعت أن تشعل خابى الحماسة فى هذه النفس الخائرة المستضعفة ، وأدرك المنصور ذلك ، فقد أخذ الخليفة يعامله فى شىء من الفتور ، بل اجترأ ووجه اليه بعض اللوم ، وأراد الوزير أن يهدىء العاصفة ، ويطفىء الثائرة ، ففرق جماعة من حاشية قصر الخليفة ، ومزقهم ولم يدع فى خدمة القصر الا من استشعر له هيبة ورهبة ، وأذكى مع ذلك العيون عليهم حتى ملك نفوسهم وأمن شرهم ، ولكن ذلك لم ينل من ارادة السيدة صبح القوية ، فقد كانت خصما جديرا بمنازلة المنصور ، وأوحت الى أعوانها أن يذيعوا بين الناس ان الوقت قد حان ليباشر الخليفة السلطة بنفسه ، ويضع زمام الأمور فى يده ، وأنه يعتمد على ولاء الشعب لانقاذه من سجنه ، وانصافه من ظالمه ، وجازت رسلها البحر الى العدوة ، وفى الوقت الذى حدثت فيه قلاقل فى العاصمة رفع زيرى بن عطية حاكم المغرب

الأقصى علم الثورة لحجر المنصور على الخليفة هشام ، واستئثاره بالحكم دونه •

وزيرى بن عطية المغراوى الخزرى أول ملوك زنانة بالمغرب ، وقد قام منذ سنة ٣٦٨ بدعوة الخليفة هشام وحاجبه المنصور ، وذلك بعد انقطاع أيام الادارسة ، وملك زيرى مدينة فاس ، واستوطنها ، وصيرها دار ملكه في سنة ٣٧٧ ، واستقام له أمر المغرب ، وعلا قدره ، وفي سنة ٣٨٢ استدعاه المنصور الى قرطبة ، فاستخلف على المغرب ولده ، وحمل بين يديه هدية عظيمة ، فأكرمه المنصور وأنزله بقصر جعفر الحاجب ، وتوسع له في الاكرام ، ولقبه باسم الوزراء ، وأعطاه أموالا جسيمة ، وخلعا نفيسة ، وصرفه الى عمله ، وجدد له عهده على المغرب وعلى جميع ما غلب عليه ، فجاز البحر ، ودخل مدينة طنجة ، فلما استقر بساحلها وضع يده على رأسه وقال « الآن علمت أنك لى » واستقل ما وصل اليه من المنصور ، واستقبح اسم الوزارة ، فلما خاطبه بعض رجاله بلقب الوزارة نهاه عنه وقال « ويحك لست وزيرا ، وانى لأمير ابن أمير ، وأعجب من ابن أبى عامر ومخرقته ، وسماعك بالمعيدى خير من ان تراه ، ولو كان بالأندلس رجل ما تركه على حاله ، وان لنا ليوما معه » وبلغت كلمته المنصور ، فصم عليها أذنه ، وزاد في اصطناعه ، ولو صدر مثل هذا الكلام من غير زيرى لكان جزاء قائله القتل الوحى •

ولما استثارته السيدة صبح ، ولاذت به فى محنتها بسط لسانه فى المنصور ، وأكثر من انتقاصه والتعريض به ، فقطع المنصور عنه ما كان يجريه عليه ، فعزم زيرى على قتاله ، وقطع ذكره من الخطبة ، وترك الدعاء له ، واقتصر على ذكر هشام المؤيد ، فأنفذ اليه المنصور واضحا الفتى لقتاله .

وكانت السيدة صبح تعلم أن زيرى هو الرجل الوحيد الذى يقيم له المنصور وزنا ، ويحذر جانبه ، ويحرص على تقريبه واصطناعه ، وأن هذا الرجل الناشىء فى الخلوات الفيح كان يمقت المنصور لطغيانه وتفرده بالسلطان ، وكانت تعرف فى الوقت نفسه شدة شره البربر وحبهم للمال ، ومثل زيرى لايحدث حدثا ، ولا يقوم بحركة الا اذا دفع له الأجر سلفا ، فكيف ترسل اليه المال اللازم ؟

فكرت فى الموضوع ، وهداها تفكيرها الى حيلة بارعة لارسال المال الى حليفها الجديد ، وكان بالقصر أموال مختزنة تبلغ ستة ملايين قطعة من الذهب ، فاستولت السيدة صبح على ثمانين ألف قطعة منها وأمرت بوضعها فى مائة كوز مختومة ملأتها ذهبا وفضة ، وموهت على ذلك بالمربى والشهد وغير ذلك من الأصباغ الرقيقة ، وكتبت على رءوس الكيزان أسماء ذلك ، ومرت بصاحب المدينة فحسبها كما كتب عليها ، وعهدت بها الى خادم صقلبى لنقلها خارج المدينة الى جهة تعلمها ، ونجحت الحيلة ، وعرف المنصور ذلك

والنقود في طريقها الى المغربي الأقصى ، وأهم الأمر المنصور وأخافه وأزعجه وأثار ثائره وأقام قيامته ، وقد استخلص من الظروف التي أحاطت بالحادث أن الخليفة كان على علم بهذا التدبير ، فالموقف اذن حرج ، وفي حاجة الى العلاج السريع ، فاستدعى المنصور على الفور الوزراء والحكام والفقهاء وأعيان المدينة ورجال الحاشية ، وأعلمهم أن الخليفة مشغول عن حفظ الأموال بانهماكه في العبادة ، وأن في تضييعها على المسلمين وعلى الدولة أعظم الآفة ، وأشار بنقلها الى حيث يؤمن عليها ، فرأت الجماعة ان كون الأموال بيد المنصور أسلم ، وأنه على حفظها أقدر وأقوم ، ونالت المنصور في اثر ذلك علة طارئة طاولته ، فأرجف به خصومه ، وكشفوا وجوههم عند استحكام الارجاف به ، وبذلوا جهدهم سرا وجهراً للقيام عليه ، وكانت السيدة صبح هي المدبرة لهذه الحركة الهدامة ، ولكن القائمين بها لم تكن لهم خبرة ناضجة ، ولا دراية واسعة ، ولم تكن هناك شخصية قوية لتتزعم الحركة ، وتوجه القائمين بها ، واشتد ذلك على المنصور ، فتقدم الى ابنه عبد الملك بان يقود ألفي فارس من المصطنعين للدولة والغلمان العامريين ، وان يبيتوا معه بالزاهرة لانفاذ أمره بحمل الأموال اليه ، وأحكم الأمر مع الوزراء والفقهاء ، فركب ذلك الجيش بين يديه ـ في جمادى الأولى سنة ٣٨٦ ـ فأتى قصر الخلافة بقرطبة ، وأذن لمن وافى من الفقهاء والوزراء بالوصول الى مجلسه ، وشافههم بهذا الأمر ، فاعترف الملأ بفضل أبيه

المنصور ، فقال لهم عبد الملك « ان قوما ممن يتصل بأسباب الخليفة هشــام يؤثر الفتنة ويكره الدعة » فأنكرت الجماعة ذلك ، وأحب عبد الملك الوصول بهم الى مجلس هشام ليشــافهوه بهذه الـكروب العظام، فكره هشام ذلك ، وامتنع منه ، وتبرأ من أعداء ابن أبى عامر، وانصدع الجمع على انتقال المـال ، فنقل على ثلاثة أيام حتى اســتنفد جميع ما ظهر عليه من بيت المال ، وتعذر نقل ما كان بجوف القصر من بيت مال الخاصــة ، ودافع عنه أهـل الدار لقيام السيدة صبح أم هشام دونه ، وقد أظهرت فى ذلك الموقف صرامة وعناداً ، ورمت ابن أبى عامر وولده بكل عظيمة ، وعبد الملك يومئذ ساكت يتجرع غصصــه لايرد بكلمة ، وبلغ عبد الملك رغبته ، وانكفأ الى أبيــه بالزاهرة بعد أن ثقف القصر ، فسكن جأش المنصور باحراز تلك الأموال ، وزعموا أن جملة ما حمل خمسة آلاف ألف دينار دراهم قاسمية ، ومن الذهب سبعمائة ألف جعفرية ، ثم استبل المنصور من علته ، ووصــل الى مجلس الخليفة هشــام مع ابنه عبد الملك وسائر عظماء الدولة ، فخلا هشام مع ابن أبى عامر ، واعترف له بالفضل والاضطلاع بالدولة والغناء فى حفظ قواعدها ، فخرست الألسنة ، وأذاع المنصــور اعتراف الخليفة وتفويضــه اياه فى جميع الانحـاء وبمختلف الطرق ، وانتفى أمل المحرضين على الثورة ، فمن ذا الذى يجترىء الآن على تحرير أســير يجفل من الحرية ، ويفرق من

احتمال تبعة تصرفه ، ويؤثر أن يعيش مطموس الشخصية خفي الشأن ؟

وعلم المنصور ما في نفوس الناس لظهور هشام ورؤيتهم له اذ كان منهم من لم يره قط ، فأبرزه للناس ، وركب هشام ركبته المشهورة ، وقد برزوا له في خلق عظيم ، وازدحمت شوارع قرطبة ، وتقدم هشام على فرس مطهم في لبوس فاخر وهيئة سرية ومعمما على الطويلة سادلا للذؤابة والقضيب في يده - وهو زى الخلافة - ، والى جانبه المنصور يسايره ، وقدامه الحاجب عبد الملك راجلا يمشي ، ويسير الجيش أمامه ، ومن المواكب وطوائف الجند والغلمان والفتيان القصريين والعامريين ما جعل الناس يعجبون من كثرتهم ، وكان النظام تاماً ، ومر الموكب على خير ما يكون ، وانتصر المنصور ، وهزمت السيدة صبح ، وسلمت أمرها للأقدار ، ولم يبق لها الآن وقد تحطم قلبها ، وهيض جناحها ، ونسل ريشها ، واستذلت كبرياؤها ، الا أن تلتمس في الدين وأعمال الخير والبر السلوى عن الماضي ونسيانه ، والاستعاضة عن آمالها الضائعة وأحلامها المطوية .

السنوات الأخيرة

كانت تصل المنصور القوارض التي يرميه بها زعيم زناتة : زيرى بن عطية فيغض الطرف عنها ، ويتصنع الحلم ، ويعزوها إلى الصراحة التي نشأ عليها زيرى وقلة تحفظه ، وكان يعلم ان زيرى على سذاجته الظاهرة ليس بالخصم الذى يستهان بقوته ويسهل التغلب عليه وهزيمته ، ويلوح أن المنصور على صدق فراسته وقوة حدسه لم يدرك ما كان يخفيه زيرى من الدهاء والطموح وراء بساطته العادية ، وقد تحالف زيرى مع خصوم المنصور ، وكان التدبير هو أن تحدث القلاقل والاضطرابات فى العاصمة فى الوقت الذى يثور فيه زيرى مطالبا برد حقوق الخليفة واعادة سلطانه ، لذا رأى المنصور أن زمن المفاوضة والتفاهم والاسترضاء والملاينة والاغضاء قد تولى ، فأعلن أن زيرى طريده وطلبته ، وأمر مولاه واضحاً بمهاجمة زيرى ومنازلته ، واعترى موقف زيرى شىء من الضعف ، فقد أصبح لا يستطيع الاعتماد على تأييد الخليفة هشام ، ولا أموال السيدة صبح .

وكان المنظور الا يقوم المنصور بغزوة حتى تنتهى حرب العدوة ، ولكنه لم يتردد فى الاستعداد للقيام بأعظم غزواته وأروعها وأسيرها ذكراً ، وقد أراد أن يعرف خصومه وأصدقاؤه أنه يستطيع أن يحارب فى جبهتين فى وقت واحد وينتصر ، ولذا أعد عدته فى عناية ودقة وافيتين ، وسما الى الاستيلاء على مدينة شنت ياقب قاصية جليقية وأعظم مشاهد النصارى الكائنة ببلاد الأندلس وما يتصل بها من الأرض الكبيرة ، وكانت كنيستها عندهم بمنزلة الكعبة عند المسلمين ـ كما يقول ابن عذارى ـ يحلفون بها ، ويحجون اليها من أقصى بلاد رومة وما وراءها ، ويزعمون ان القبر المزور بها قبر يعقوب بن زبدة الحوارى ، وكان أخص الحواريين بالمسيح ، وهم يسمونه أخاه للزومه اياه ، وكان أسقفا ببيت المقدس فجعل يستقرى الأرضين داعيا لمن فيها فجاز الأندلس حتى انتهى الى هذه القاصية ، ثم عاد الى أرض الشام فقتل بها وله من العمر مائة وعشرون سنة شمسية ، واحتمل أصحابه رمته فدفنوها بهذه الكنيسة التى كانت أقصى أثره ، ولم يكن أحد يهتدى الى مكانها الى أن كشفها المطران تيودمير أسقف اريا فى عهد شارلمان ، فقد جاءه بعض الناس وأخبروه أنهم شاهدوا فى الليل أضواء عجيبة فى الغابة ، وسمعوا موسيقى سماوية ساحرة ، فخطر بباله أنها احدى المعجزات الخارقة ، وصام ثلاثة أيام ابعد نفسه لشاهدتها ، ودخل الغابة بعد أن صلى ، فكشف هناك قبرا مشيدا بالرخام ، وأوحى اليه أن هذا

القبر يضم رفات الرسول يعقوب ، ولم يكن من الميسور مناقشة هذا الزعم فى تلك العصور الخالية التى غلبت عليها النزعة الدينية والاعتقاد الراسخ ، وقد أيد البابا نفسه هذا الزعم ، فليس من سبيل الى انكاره أو الشك فيه ، وأصبح لهذا المزار شهرة عظيمة ، ومكانة سامية فى النفوس ، وكثر قصاده من شتى الأنحاء ، وكان احترام هذا المزار عظيما لكثرة ما أشيع حوله من القصص ، وما نسج من الخرافات ، وكان يشاع أن الرسول المدفون يظهر على جواد أغر يقود كتيبة من فرسان المسيحيين مبشرا بانتصار المسيحية وهزيمة الاسلام ، وأثرت هذه الاسطورة تأثيرها ، وقبلها الناس .

ولم يطمع أحد من ملوك المسلمين فى قصدها والوصول اليها لصعوبة مدخلها ، وخشونة مكانها ، وبعد شقتها ، ولكن المنصور كان يطمح الى نيل ما أعجز غيره وعز على سواه ، وطالما ردد الاسبانيون أن سلامة تلك المدينة من الغزو راجع الى احتمائها بجثمان القديس الطاهر لا الى العقبات الطبيعية القائمة فى طريق الفاتح ، فلو هوجمت وهددت لحدثت المعجزة ، ووقع مالا ينتظره ، وقد أراد المنصور أن يبطل هذا التخرص ، ويدحض تلك الأباطيل الملفقة ، ويثبت عجز هذا القديس الدفين عن حماية مدينته ، ووقاية ضريحه ، ووضع المنصور خطة محكمة للغزو ، واستعد لكل احتمال ، فخرج من قرطبة سنة ٣٨٧ على رأس جيش ، ودخل على مدينة قورية ، وتقدم منها الى مدينة بازو ، ووافاه بها عدد عظيم من

القوامس المتمسكين بطاعتــه فى رجالهم وعلى اتم احتفالهم ، وكان المنصور قد تقدم فى انشاء أسطول كبير فى الموضع المعروف بقصر أبى داناس من ساحــل غرب الأندلس ، وجهــزه برجاله البحريين وصنوف المترجلين ، وحمل الأقوات والأطعمة والأسلحة الى أن خرج بمدينة برتقال Oporto الواقعة على مصب نهــر دويرة ، وعقد هنـاك من الأسطول جسرا عبر عليه الجيش ، ولما كان الاقليم الواقع بين نهر دويرة ونهر منهو تابعا للقوامس الموالين للمنصــور فقد تقدم فيه جيش المنصور دون أن يلقى مقاومة أو أن تعترضه عقبة سوى العقبات الطبيعية التى كان يذللها ، وتوسع الجند فى التزود من الميرة ، وصادفهم فى الطريق جبل أشم ، فشق رجال المنصور فوقه طريقا مر منــه الجيش ، وبعد عبور نهر المنهو دخــل الجيش بــلاد الأعداء ، فاشتدت يقظة المنصــور ، وصار يتقدم فى حذر واحتياط ، وكان فى الجيش بعض المرتزقة من ليون ، ولم يكن ضميرهم مطمئناً الى الغرض الذى قصده المنصور بهذه الغزوة ، وآلمهم أن يشتركوا فى حملة قد تسفر عن انتهاك حــرمة ضريح القديس الذى يحمى بلادهم ، وهموا بتدبير يكيدون به للجيش ، ويفســدون به أمــر الحملة ، ولكن يقظــة المنصور فوتت عليهم هذا الغرض ، ففى ليلة شديدة البرد والريح والمطر دعا المنصور بأحد الفرسان ، وقال له « انهض الآن الى فج طيالس ، وأقم فيه ، فأول خاطر يخطر عليك ســـقه الى » فنهض الفارس ، وبقى فى الفج فى البرد والريــح

والمطر واقفا على فرسه ، فلما لاحت أضواء الفجر أبصر شيخا هرما على حمار له ومعه آلة الحطب ، فأمره بالوقوف ودنا منه وقال له « الى أين تريد يا شيخ ؟ » فقال « وراء الحطب » فقال الفارس فى نفسه هذا شيخ مسكين نهض الى الجبل يسوق حطباً ، فما عسى أن يريد المنصور منه ؟ فتركه ، ولما ابتعد قليلا فكر الفارس فى قول المنصور ، وخاف سطوته ، فنهض الى الشيخ ، وقال له « ارجع الى مولانا المنصور » فقال الشيخ « وماذا عسى أن يريد المنصور من شيخ مثلى ؟ سألتك بالله أن تتركنى أذهب لطلب معيشتى » فقال له الفارس « لا أفعل » ، وقدم به على المنصور ، ومثله بين يديه ، وهو جالس لم ينم ليلته تلك ، وفلما رآه المنصور قال للصقالبة « فتشوه »ففتشوه فلم يجدوا معه شيئاً ، فقال « فتشوا بردعة حماره » فوجدوا داخلها كتابا من المرتزقة من نصارى ليون الذين كانوا يخدمون عنده الى أصحابهم من النصارى ليكمنوا فى احدى النواحى المرطومة ويضربوا ويقتلوا ، فلما انبلج الصباح أمر باخراجهم ، وضربت أعناقهم ، وضربت رقبة الشيخ معهم ، وقضى هذا الاجراء السريع الحاسم على الاسترسال فى الخيانة .

واستأنف الجيش تقدمه يريد شنت ياقب ، وانبسط المسلمون فى بسائط عريضة ، وأرضين أريضة وانتهت مغيرتهم الى دير قشطان وبسيط بلنوط ، وفتحوا حصن شنت بلاية وغنموه ، وعبروا سباحة الى جزيرة من البحر المحيط لجأ اليها خلق عظيم من

أهل تلك النواحي فسبوا من فيها ممن لجأ اليها ، وانتهى العسكر الى جبل موراسيه المتصل من أكثر جهاته بالبحر المحيط ، فتخللوا أقطاره ، واستخرجوا من كان فيه ، وحازوا غنائمه ، ثم أجاز المسلمون بعد هذا خليج لورقي في معبرين أرشد الادلاء اليهما ، ثم نهر أيلة ، ثم أفضوا الى بسائط واسعة العمارة كثيرة الفائدة ، ثم انتهوا الى موضع من مشاهد ياقب صاحب القبر تلو مشهد قبره عند النصارى في الفضل يقصد له نساكهم من أقاصي البلاد فغادره المسلمون قاعا ، وكان النزول بعده على مدينة شنت ياقب البائسة وذلك يوم الأربعاء لليلتين خلتا من شعبان سنة **٣٨٧** فوجدها المسلمون خالية من أهلها ، فحاز المسلمون غنائمها ، وهدموا مصانعها وأسوارها وكنيستها ، وعفوا آثارها ، ووكل المنصور بقبر ياقب من يحفظه ، ويدفع الأذى عنه ، ولم يجد المنصور بشنت ياقب الا شيخا من الرهبان جالسا على القبر ، فسأله عن مقامه ، فقال « أونس يعقوب » فأمر بالكف عنه ، وكانت مصانعها بدبعة محكمة ، فغودرت هشيما كأن لم تغن بالأمس ، فلم يكن بعدها للخيل مجال ، وانكفأ المنصور عن شنت ياقب وقد بلغ غاية لم يبلغها أحد قبله من حكام الأندلس ، وكان يعيث ويفسد في النواحي التابعة لبرمند ملك ليون ، ولما دخل بلاد القوامس المعاهدين أمر بالكف عنها ، ومر مجتازاً حتى خرج الى حصن مليقة ، وأجاز هناك القوامس على أقدارهم ، وكساهم وكسى رجالهم وصرفهم الى بلادهم ، وكتب من

مليئة بالفتح الى الخليفة ، وكان مبلغ من كساه المنصور في غزاته هذه من ملوك النصارى ومن حسن غناؤه من المسلمين ألفين ومائتين وخمسا وثمانين شقة من صنوف الخز الطرازى ، وواحدا وعشرين كساء من صوف البحر ، وكسائين عنبريين ، وأحد عشر سقلاطونا وخمسة وعشرين مريشاً ، وسبعة أنماط ديباج ، وثوبى ديباج رومى ، وفروى فنك ، ووافى جميع المعسكر قافلاً الى قرطبة سالما غانماً ، وعظمت النعمة على المسلمين ، ودخل المنصور قرطبة في احتفال فخم ، ووراءه أسرى الأسبانيين يحملون على عواتقهم أبواب مدينة شنت ياقب وأجراس كنيستها .

أما حرب المغرب الأقصى فقد سارت فى بادىء الأمر سيراً حسناً ، فقد انتصر واضح على زيرى انتصارات باهرة ، واستولى على مدينة أصيلا ونيقور ، وفاجأ زيرى فى معسكره ليلا وأوقعه فى كبد ، وأثخن فى رجاله ، وتنكر له الحظ بعد ذلك فهزمه زيرى واضطره الى دخول طنجة والتحصن بها ، فأرسل الى المنصور يلتمس المدد ، فأردفه المنصور بولده عبد الملك ، وجاء المنصور الى الجزيرة الخضراء يمدها بالقواد والأجناد ، وسار عبد الملك من طنجة الى زيرى ، ودارت بينما حرب شديدة ، ثم انهزم زيرى ومن معه ، ونجا مثخناً بالجراح ، ومات بعد ذلك من جراحه فى سنة ٣٩٢، واستقامت طاعة المغرب للمنصور ، وقفل عبد الملك الى قرطبة ،

واستعمل مولاه واضحا على المغرب ، وعقد لملوك زناتة على ممالك المغرب وأعماله من سجلماسة وغيرها •

وقد بلغ المنصور ذروة المجد ، ولم يحقق أمنيته الكبرى ، وقد كانت حياته الآن موشكة على النهاية ، فقد أخذ الضعف يدب فى بنيته الوثيقة ، وبدأت تثقل عليه علة خفية حار فى تشخيصها الأطباء ، ولم يعرفوا لها دواء ناجعا أو علاجا شافيا ، وقد ظل المنصور يتحين الفرص ، ويترصد المناسبات لنيل أمنيته ، فذهبت آماله أدراج الرياح ، وعيل صبره ، وتكاثرت همومه ، وأخذ مستقبل الدولة التى حاطها برعايته يشغل باله ، ويقلق خاطره ، ولقد أضعف الخلافة باغتصابه لسلطان الخليفة ، وأذهب هيبتها ، ولم يستطع برغم ذلك أن ينيل أولاده حقا باقيا ، ولم يكن أحد يقدر هذه الحقيقة المؤلمة مثله ، ولقد كانت تشغله الشاغل ، وهمه المقعد المقيم ، وقد كان شبحها يطالعه فى غزواته الظافرة ، ومواقفه الباهرة ، فيغيض من بشره ، وينتقص من سروره ، ولقد هد ركن الخلافة ، وجعله مطية للطامعين ، دون أن يجنى ثمرة باقية مؤكدة فلأية غاية اذن ضحى بما ضحى به ، وبذل ما بذل وأنفق ما أنفق من جهد وأراق من دماء ؟

ومن يدرى فربما أخذت تلاحقه فى أحلامه وغدواته وروحاته أشباح هؤلاء الرجال الذين غدر بهم فى سبيل مطامعه !

خرج يوما للنزهة بمركب فى النهر ، ومعه نفر من أصحابه

بين يدى قصر الزاهرة ، فأخذ يصعد بصره ويصوبه فى قصوره بالزاهرة ، ويتأمل محاسنها ، وينظر الى مياهها المطردة ، وينصت لأطيارها المغردة ، وملأ عينه من جمالها وحسنها ، والتفت من اليمين الى الشمال ، فتجهم وجهه ، وانحدرت دموعه وقال « واها لك يازاهرة الحسن ، لقد جمل مرآك ، وراق منظرك ، فليت شعرى من المدبر المشؤوم الذى يكون خرابك على يديه من قريب ؟ » .

فاستعظم أصحابه ما كان منه ، وحسبوا أن النبيذ عمل فيه ، وأفرط أحدهم فى الاستنكار حتى قال له « ما هذا الكلام الذى ما سمعناه من مولانا قط ؟ وما هذا الفكر الردىء الذى لايليق بمثله شغل البال به ؟ » .

فقال المنصور « والله لترون ما قلت ، وكأنى بمحاسن الزاهرة قد محيت ، ورسومها قد غيرت ، وبمبانيها قد هدمت ونحيت ، وبخزائنها قد نهبت ، وبساحتها قد أضرمت بنار الفتنة وألهبت » .

وقد صحت نبوءة المنصور بعد أعوام قلائل ، وكان ذلك نتيجة محتومة لسياسته التى أضعفت احترام مبدأ السلطة ، ولم يغب ذلك عن تقدير المنصور بل كان مصدر همه وقلقه فى سنواته الأخيرة .

وفى سنة ٣٩٢ خرج المنصور الى الغزوة الأخيرة من غزواته ، ولم تكن طمحات هذا السياسى الحصيف مقصورة على الامجاد الأرضية ، بل اشتملت على السعى لتأثيل مكانته فى السماء والعالم

الآخر ، ولم يقصر فى الاحتياط للقاء ربه على عادته فى التأهب لكل شيء ، وكان يسـأل الله تعالى أن يتوفاه فى سـاحة الوغى وميدان الجهاد ، وكان على ثقة من اجابة دعوته ، وقد اعتنى بجمع ما علق بوجهه من الغبار فى غزواته ، ومواطن جهاده ، فكان الخدم يأخذونه عنه بالمنديل فى كـل منزل من منـازله حتى اجتمع له منـه صرة ضخمة ، وأوصى بتصييره فى حنوطه عند موته ، وكان يحمله حيثما صار مع أكفانه توقعا لحلول منيته ، وكان قد اتخذ الأكفان من أطيب مكسـبه من الضيعة الموروثة من أبيـه وغزل بنـاته ، وكان المنصور متنزها عن كل ما يفتتن به الملوك سـوى الخمر ، وقد أقلع عنها قبل موته بسنتين ، وخط بيده مصحفا كان يحمله معه فى أسفاره يدرس فيه ، ويتبرك به .

واقتحم أرض قشـتالة ، وخرب صـومعة القديس امليـان ومرضه يخف وقتا ويثقل وقتا ، وكانت الغزوة ظافرة موفقة كسائر غزواته ، وشعر فى عودته باشتداد المرض ، ولم تتفق آراء الأطباء على طريقة العـلاج ، ولذا أصر المنصور على رفض تناول ما يقدم له من الدواء ، واقتنع بان هذا هو مرضه الأخير ، وقويت عليه العلة حتى أصـبح لايستطيع أن يمتطى صهوة جواده ، فاتخذ له سرير خشب ، وسـوى مهاده بحيث يمـكنه الاضطجاع عليه متى خارت قواه ، وجعلت عليه ستارة ، وكان يحمل على أعناق الرجال وسجفه منسـدل عليه ، وعسـاكره تحف به ، وتطيع أمره ، وكان يقول

« ان زمامي يشتمل على عشرين ألف مرتزف ما فيهم أسوأ حالة مني ، وددت أن أقال زلتي وأنا كبعض هؤلاء السودان الحاملين لسريري » وكان يحمل سريره السودان الرقاصة للين مشيتهم ـ ولعله كان يعني من حضر معه تلك الغزاة ، والا فعساكر الأندلس في ذلك الزمان أكثر من ذلك العدد ، وقطع أربعة عشر يوما حتى وصل الى مدينة سالم ، وأيقن هنالك بالموت ، وشغل ذهنه يومئذ بقرطبة ، فاستدعى ابنه عبد الملك ، وأمره بالتوجه الى قرطبة لشدها وضبطها في طائفة من ثقات غلمانه بعد أن أوصاهم كلهم أشتاتا وجماعة ، ثم خلا بولده عبد الملك يوصيه ويودعه ويقبض على يده ، وكلما ذهب عنه استرده مستدركا بوصيته ، وعبد الملك يبكي فينكر عليه ذلك ويقول « هذا أول العجز والفشل » وكان مما قاله له وأوصاه به « يا بني لست تجد أنصح لك ولا أشفق عليك مني ، فلا تعدين وصيتي ، فقد جردت لك رأيي ورويتي ، على حين اجتماع من ذهني ، فاجعلها مثالا بين يديك ، وقد وطأت لك مهاد الدولة ، وعدلت لك طبقات أوليائها ، وعايرت لك جباية تزيد على ما ينوبك بجيشك ونفقتك ، فلا تطلق يدك في الانفاق ، ولا تقض لظلمة العمال فيختل أمرك سريعا ، فكل سرف راجع الى اختلال لا محالة ، فاقتصد في أمرك جهدك ، واستثبت فيما يرفع أهل السعاية اليك ، والرعية قد استقصيت لك تقويمها ، وأعظم مناها أن تأمن البادرة ، وتسكن الى لين الجنبة ، وصاحب القصر قد علمت

مذهبه ، أنه لا يأتيك من قبله شيء تكرهه ، والآفة ممن يتولاه ويلتمس الوثوب باسمه ، فلاتنم عن هذه الطائفة جملة ، ولا ترفع عنها سوء الظن » وعاجل بها من خفته على أقل تهمة مع قيامك بحق صاحب القصر على أتم وجه ، فليس لك ولا لأوليائك شيء يقيكم الحنث في يمين بيعته الا ما تقيمه لوليها من هذه النفقة ، فأما الانفراد بالتدبير دونه مع ما بلوت من جهله وعجزه عنه فاني أرجو أني واياك منه في سعة ما تمسكنا بالكتاب والسنة ، والمال المخزون عند والدتك هو ذخيرة مملكتك ، وعدة لحاجة تنزل بك فأقمه مقام الجارحة من جوارحك التي لا تبذلها الا عند الشدة تخاف منها على سائر جسدك، ومادة الخراج غير منقطعة عنك بالحالة المعتدلة ، وأخوك عبد الرحمن قد صيرت اليه في حياتي مارجوت أني قد خرجت له فيه عن حقه من ميراثي ، وأخرجته عن ولاية الثغر لئلا يجد العدو مساغا بينكما في اختلاف وصيتي فيسرع ذلك في نقض أمري ، ويجلب الفاقرة على دولتي ، وقد كفيتك الحيرة فيه فاكفه الحيف منك ، وكذلك سائر أهلك فيما صنعت فيهم بحسب ما قدرت به خلاصي من مال الله الذي في يدي ، وخلافتك بعدي أجدى عليهم مما صدقته اليهم ، فلا تضيع أمر جميعهم ، والحظهم بعيني فانك أبوهم بعدي ، فخرج ذكورهم باستخدامك ، والحف اناثهم جناحك ، جبر الله جماعتهم وأحسن الخلافة عليكم ، فان انقادت لك الأمور بالحضرة فهذا وجه العمل ، وسبيل السيرة ، وان اعتاصت عليك فلا تلقين بيدك الفاء

الأمة ، ولا تبطر بك وبأصحابك النعمة والسلامة فتنسوا ما لكم في نفوس بني أمية وشيعتهم بقرطبة ، فان قاومت من توثب عليك منهم فلا تذهل عن الحزم فيهم ، وان خفت الضعف فانتبذ بخاصتك وغلمانك الى بعض المعاقل التى حصنتها لك ، واختبر غدك ان أنكرت يومك ، واياك أن تضع يدك فى يد مرواني ما طاوعتك بنانك فاني أعرف ذنبي اليهم » .

وأوصى ثقات غلمانه قائلا « تنبهوا لأمركم ، واحفظوا نعمة الله عليكم فى طاعة عبد الملك أخيكم ومولاكم ، ولا تغرنكم بوارق بني أمية ومواعيد من يطلب منهم شتاتكم ، وقدروا ما فى قلوبهم وقلوب شيعتهم بقرطبة من الحقد عليكم ، فليس يرأسكم بعدى أشفق عليكم من ولدى ، وملاك أمركم أن تنسوا الأحقاد ، وأن تكونوا كرجل واحد ، فانه لا يطمع فيكم » .

ومازال يكرر هذا وشبهه لطائفة بعد أخرى حتى ضعف وشغل بنفسه ، ولما قضى وطره مما بينه وبين عبد الملك أمره أن يستخلف أخاه عبد الرحمن على العسكر الى أن ينفذ اليه حكمه فيه ، وخرج عبد الملك الى قرطبة ومعه القاضي ابن ذكوان فدخلها فى صدر شوال من العام (٣٩٢) فسكن الارجاف بموت أبيه ، وعرف الخليفة كيف تركه ، ووجد المنصور بعض الراحة ، وأمر أن تدخل عليه جماعة من خاصته ، فدنوا منه وهو كالخيال لا يبين

كلاما ، وأكثر عمله بالاشـــارة كالمسـلم المودع ، وكان هذا آخر العهد به ، فقد أوجف اليه رائد المنون ليلة الاثنين لثـلاث بقين من رمضان ، فهمدت حركته ، وخبا برقه ، وفارقت عالم الدثور والفناء هذه الشخصية الفذة التى لايجود بأمثالها الدهر الا لماما ، وهزم فى المعركة الدائبة بين الحياة والموت ، هذا الرجل الذى لم ينكب قط فى حرب شهدها ، وما انصرف عن موطن الا قاهرا غالبا على كثرة مازاول من الحروب ومارس من الاعداء وواجه من الأمم ، ولقد هلك هذا الرجل الذى لم يكن وريث عروش ولا ربيب ملوك وهو فى أوج المجد وأعظم ما كان قوة ، ودفن بمدينة سالم ، وكتب على قبره .

آثاره تنبيك عن أخبـــاره   حتى كأنـك بالعيـــان تـراه

تالله لا يأتى الزمـان بمثـــله   أبدا ولا يحمى الثغور سـواه

وكتب راهب مسيحى فى حولياته « مات المنصور سنة ١٠٠٢ ودفن فى النار » والفضل ما شهدت به الأعداء ، والحقيقة أن نصارى الشمال فى اسبانيا لم يجدوا رجلاً أشد عليهم وطأة من المنصور ، فقد غزاهم ستا وخمسين غزوة فى سائر أيام ملكه لم تنتكس له فيها راية ، ولا فل له جيش ، ولا أصيب له بعث ، وأخبتت له ملوكهم ؟ وانقادوا لحكمه ، وضرب عليهم الجزية ، فأدوها صاغرين ، وقد افتتح عواصمهم الثلاث وهى ليون وبنبلونة وبرشلونة ، ومدنا أخرى كثيرة ، وخرب كنيسة حامى جليقية ، وهدم مزار حامى قشتالة ،

وكان المسيحيون يرتجفون رعبا اذا ذكر اسـمه ، وقد نسى بعض أجناده رايته مركوزة على جبل بغرب احدى مدائن اسبانيا الشماليه، فأقامت عدة أيام لا يعرف الاسبانيون ماوراءها بعد رحيل العساكر لأن قلوبهم أشربت خوف جنود المنصور •

ومر فى بعض غزواته بين جبلين عظيمين فى طـريق عرض بوسط بلاد الافرنج ، فلما جاوز ذلك المحل وهو آخذ فى التحريق والتخريب والغـارات والسبى يمينا وشـمالا ، لم يجسر أحـد من الافرنج على لقائه حتى أقفرت البـلاد مسـافة أيام ، ثم عاد فوجد الافرنج قد استجاشوا من ورائه وضبطوا ذلك المدخل الضيق الذى بين الجبلين ـ وكان الوقت شتاء ـ فلما رأى ما فعلوه رجع واختار منزلا من بلادهم أناخ به فيمن معه من العساكر ، وتقدم ببناء الدور والمنازل وبجمع آلات الحرب ونحوها ، وبث سراياه فسبت وغنمت، فاسترق الصغار ، وضرب أعناق الكبار ، وألقى جثثهم حتى سد باب المدخل الذى من جهته ، وصارت سراياه تخرج فلا تجد الا بلدا خرابا ، فلما طال البـلاء على العدو أرسلوا اليه فى طلب الصلح ، وان يخرج بغير أسرى ولاغنائم ، فامتنع من ذلك ، فلم تزل رسلهم تتردد اليه حتى سألوه أن يخرج بغنائمه وأسراه ، فأجابهـم « ان أصحابى أبوا ان يخرجوا وقالوا انا لا نكاد نصل الى بلادنا الا وقد جاء وقت الغزوة الأخـرى فنقعد ههنـا الى وقت الغزاة ، فاذا غزونا عدنا » فمازال الافرنج يسـألونه الى أن قرر عليهم أن يحملوا على

دوابهم ما معه من الغنائم والسبى ، وأن يمدوه بالميرة حتى يصل الى بلاده ، وأن ينحوا جيف القتلى من طريقه بأنفسهم ، ففعلوا ذلك كله ، وانصرف .

وملأ المنصور الأندلس غنائم وسبيا من بنات الافرنج وأولادهم ونسائهم ، وفى أيامه تغالى الناس فيما يجهزون به بناتهم من الثياب والحلى والدور ، وذلك لرخص أثمان بنات الافرنج ، ولولا ذلك ما تزوج أحد حرة ، وقد روى المراكشى فى المعجب أنه نودى على ابنة عظيم من عظماء الافرنج بقرطبة وكانت ذات جمال رائع فلم تساو أكثر من عشرين دينارا عامرية .

ولما ورد الخبر بموته قرطبة ركب ابنه عبد الملك الى هشام الخليفة ، ونعى اليه المنصور أباه ، فأظهر الاشفاق ، وكان عبد الرحمن بن المنصور قد تلوم بالعسكر فى مدينة سالم بعد وفاة أبيه وهو ينتظر رأى أخيه عبد الملك فى القفول ، والغلمان مضطربون عليه ، وطمعوا فى رد الدولة الى هشام ، ولما قال لهم عبد الرحمن اصبروا كشفوا ما فى أنفسهم له ، وطلبوا أن يلحقوا بباب الخليفة ، وتقدمه الى قرطبة نحو سبعمائة منهم ، ولما عرف عبد الملك بما اضطرب من أمر الفتيان أمره بتدبير أمرهم بحسب ما يستقيم به أمر الدولة ، وحذره مواقعة الدماء وتلقيح الفتنة ، وخلع عليه وأخرج معه كتابا بولاية الحجابة مكان أبيه ، وقرىء على

الكافة ، وانشأ الكتب الى الأقطار ، وعاقب بعض الفتيان العاصين ، وأخرج بعضهم الى سبتة ، ثم وافى العسكر الكبير مع أخيه عبد الرحمن ، واجتمع الشمل ، وتمكنت الطاعة ، وأيس الأعداء من دولة بنى عامر وعلموا أنها وراثة ، وأسقط عبد الملك سدس الجباية لأول ولايته فى جميع أقطار الأندلس ، فراقت أيامه ، وأحبه الناس سرا وعلانية ، وانصب التأييد والاقبال عليه انصباباً لم يسمع بمثله ، وسكن الناس منه الى عفاف ونزاهة نفس ، وسار عبد الملك فى آثار أبيه ، وجرى على سنته ، وبلغت الأندلس فى أيامه الى نهاية الجمال والكمال والاستقرار والازدهار حتى قيل فيه انه كان على أهل الأندلس أسعد مولود ولد ، وانهمك هشام طول أيام عبد الملك فلم يظهر للناس ، ولا شهد صلاة ، واحتجب فى نزهه الباطنة المستورة على رسمه فى أيام المنصور ، وبلغه عبد الملك منها بغيته ، وجعل يخرجه اليها مع حرمه مستخفياً بعد طرد الناس من طريقه ثم يعود الى قصره ، ولم يطل امد عبد الملك ، فقد مات فى أول سنة ٣٩٩ وخلفه أخوه عبد الرحمن ، وجرى على سنن أبيه وأخيه فى حجر الخليفة هشام والاستبداد عليه ، والاستقلال بالملك دونه ، ثم ناب له رأى فى الاستئثار بما بقى من رسوم الخلافة ، فطلب من هشام المؤيد أن يوليه عهده ، فأجابه الى ذلك ، وكان عبد الرحمن مفرطا فى الشراب ، منغمساً فى الشهوات ، وقد اتهم بانه سم أخاه عبد الملك ، وربما كان هذا الاتهام لايقوم على أساس ، ولكن المحقق

أنه لم يكن فى حزم المنصور وكياسته وبعد نظره ، ولم يكن له همة أخيـه عبد الملك ويقظته ، وبرغم ذلك تطـاول الى حيث أحجـم المنصـور ، وأراد أن يجعل نفســه وارث الخلافة ، وقد أفضى ذلك الى قتله وصلبه وسقوط الأسرة العامريه ، ولم يكن من المنظور أن ينجح شنجول ـ وهو لقب عبد الرحمن ـ حيث لم يوفق المنصور •

المنصور والأدب والفن

عرض المنصور مرة بظاهر قرطبة خيله ورجله ، وقد جمع من أقطار الأندلس ما ينهض به الى قتال العدو ، وتدويخ بلاده ، فنيف الفرسان على مائتى ألف ، والرجالة على ستمائه ألف ، وبقوة هذا الجيش الكامل الأهبة ، الحسن الدربة ، دانت له الأندلس، ولم يضطرب عليه شيء ، واستطاع أن يمكن لحضارة الأندلس وثقافتها ، ويوفر لها الرخاء ، فاضطرد رقى الفنون والصناعات ، وتقدمت الحياة الفكرية ، الا أن المنصور لأسباب سياسية محضة اضطر الى الامساك عن تشجيع الفلسفة خشية اثارة غضب رجال الدين ـ وكان أكثرهم فى الأندلس من الغالين فى التشدد ـ وحسماً لأسباب الانتقاض والاختلال ، وكان مع ذلك يعطف على المفكرين الأحرار ، ويساعدهم ما وسعته المساعدة .

وقد أظل المنصور رجال الأدب برعايته ، وخصهم بتشجيعه وعنايته ، فقصده الشعراء ، وتكاثروا ببابه ، وصحبوه فى غزواته الظافرة ، وحروبه العديدة ، وكان المنصور رجلا عمليا قبل كل

شيء ، ولكنه برغم ذلك كان لا يشجع الأدباء استيفاء لشرائط السيادة ، واستكمالاً لأسباب الأبهة فحسب أو جريا على سمت الأمراء والخلفاء الأمويين ، بل لأنه كان يتذوق الشعر ويميز ألوان الأدب ، وان لم يصل فى ذلك الى دقة بصر بعض الأمراء والخلفاء الأمويين وجودة تمييزهم للملكات الأدبية ، والكفايات الفنية ، وكان المنصور يقدر قيمة الكتاب والشعراء بوجه خاص من الناحية السياسية والوجهة الاجتماعية ، ويعرف أثرهم البعيد فى تكوين الرأى العام وتوجيه الأفكار ، ولفت الانظار ، واكتساب الشهرة ، وتوطيد المكانة ، وكان هذا هو أكبر البواعث عند هذا السياسى الداهية الى تقريبهم ، والعناية بهم ، واجتذابهم الى صفه لاستغلال ملكاتهم فى بناء مجده ، وتحقيق أهدافه .

واشتهر من بين هؤلاء الأدباء والشعراء : أبو العلاء صاعد ابن الحسين ، البغدادى النشأة اللغوى الشاعر ، وكان أحب رجال بطانته اليه ، وأكثرهم ادخالا للسرور على نفسه ، وأخفهم ظلا على قلبه ، وربما لم يكن صاعد أهلا لأن يشغل هذه المكانة السامية فى نفس هذا الرجل العظيم ، ولكن مهما يكن من الأمر فان صاعدا كان رجلا متوقد الذكاء ، طبا باستمالة الأهواء ، وقد عرف المنافذ الى قلب المنصور ، وكيف يستدر عطفه ، ويستنزل بره ، ويفوز باعجابه ورضاه ، وقد كان الأندلسيون شديدى الغيرة من الوافدين على بلادهم من المشرق ، ميالين الى الالحاد فى كفايتهم ، والزراية بهم ،

وقد استجهلوا صاعدا عند قدومه وثلبوه ، وطعنوا فى علمه ودينه وخلقه ، ولم يتركوا له أديما مصحاً ، ولكنه بدهائه وذكائه استطاع أن يحملهم بعد ذلك على الاعجاب ببديهته الحاضرة ، وأجوبته المسكتة ، ونكاته المستملحة ، وكان صاعد رجلا كذوبا ساخرا لعوباً ، ولوعا بتصيد الغرائب ، والاتيان بالطرائف ، ولم يكن فيه دقة العلماء وتحريهم ولا صدق سريرة الأدباء وتساميهم ، وانما كان فيه لباقة المحدثين الفكهين البارعين ، وذكاء أهل الدنيا المداورين الناجحين ، وكان يحسن تحين الفرص ويجيد الضرب على الأوتار الحساسة ٠

ودخل صاعد قرطبة سنة ٣٨٠ فى خلافة هشام المؤيد ، وبلغ المنصور قدومه وما أذاعه عن نفسه ، ففى مجلس من المجالس الأدبية التى كان يعقدها المنصور للمناظرة والمساجلات الأدبية ، وقد اجتمع عنده أعيان مملكته ودولته من أهل العلم مثل الزبيدى والعاصمى وابن العريف وغيرهم قال لهم المنصور « هذا الرجل الوافد علينا يزعم أنه متقدم فى علوم النحو واللغة والأدب ، وأحب أن يمتحن » فوجه اليه ، فلما مثل بين يديه ، والمجلس قد احتفل ، خجل واعتاقت جنانه الهيبة ، ولحظ المنصور ذلك ، فرفع محله ، وأقبل عليه ، وسأله عن أبى سعيد السيرافى فزعم أنه لقيه وقرأ عليه كتاب سيبويه ، فبادره العاصمى بالسؤال عن مسألة من الكتاب فلم يحضره جوابها ، واعتذر بأن النحو ليس جل بضاعته ٠

فانبرى له الزبيدى وقال له « فما تحسن أيها الشيخ ؟ »

فقال صاعد « حفظ الغريب »

فقال له الزبيدى « فما وزن أولق ؟ »

فضحك صاعد ، وقال « أمثلى يسأل عن هذا ؟ انما يسأل عنه صبيان المكتب !» .

فقال الزبيدى « قد سألناك ولانشك أنك تجهله » .

فتغير لون صاعد ، وقال « (١) أفعل وزنه » .

فقال الزبيدى « صاحبكم ممخرق » .

فقال له صاعد ساخرا « اخال الشيخ صناعته الأبنية ! » .

فقال الزبيدى « أجل » .

قال صاعد « وبضاعتى أنا حفظ الأشعار ، ورواية الأخبار ، وفك المعمى ، وعلم الموسيقى ! » .

وناظره الأديب ابن العريف ، فظهر عليه صاعد ، وجعل لايجرى فى المجلس كلمة الا أنشد شعراً شاهداً أو أتى بحكاية تجانسها .

وتحول صاعد بعد ذلك من الدفاع الى الهجوم ، فسألهم عن معنى قول امرىء القيس فى معلقته :

كأن دماء الهاديات بنحره عصارة حناء بشيب مرجل

(١) الأولق بفتح الهمزة وسكون الواو شبه الجنون ، ووزنه فوعل ، وأصله «ألق» .

فقالوا « هذا واضح ، وانما وصف فرسا أشهب ، عقرت عليه الوحش فتطاير دمه على صدرها فجاء هكذا » .

فقال صاعد « سبحان الله ، أنسيتم قوله قبل هذا .

كميت يزل اللبد عن حال متنه كما زلت الصفواء بالمتنزل

فبهتوا كأنهم لم يقرءوا هذا البيت قط ، واضطروا الى سؤاله عنه ، فقال « انما عنى أحد وجهين ، اما أنه يغشى صدره بالعرق ، وعرق الخيل أبيض ، فجاء مع الدم كالشيب ، واما شيء كانت العرب تصنعه ، وهو انها كانت تسم باللبن الحار في صدور الخيل ، فيتمعط ذلك الشعر ، وينبت مكانه شعر أبيض ، فأيما عنى من أحد هذين الوجهين فالوصف مستقيم » .

فأعجب المنصور به ، وأراه كتاب النوادر لأبى على القالى ، فقال صاعد « ان أراد المنصور أمليت على كتاب دولته كتاباً أرفع منه وأجل لا أورد فيه خبرا مما أورده أبو على » فاذن له المنصور فى ذلك ، وكان المنصور يريد ان يعفى به آثار أبى على البغدادى الوافد على بنى أمية ، ووالى صاعد الجلوس بجامع مدينة الزاهرة حتى أتم كتابه المترجم بالفصوص ، فلما أكمله تتبعه أدباء عصره فلم تمر فيه كلمة صحيحة عندهم ، ودحضوه ورفضوه ، وأقنعوا المنصور بأن الكتاب لا يحوى سوى أكاذيب ملفقة ، وادعاءات مستمدة من خيال مؤلفه ، وساء ذلك المنصور الذى كان يريد أن يفاخر بصاعد

بنى أميـة ، وفى بعض الروايات أنه أمر بالقاء الكتـاب فى النهر ، ولكنه برغم ذلك ظل راضيا عن صاعد •

ومما أضعف الثقة بصاعد على سـعة علمه ، والتماع ذكائه ، كثرة أكاذيبـه ، وادعاؤه معرفة كل شيء ، والاجابة عن كل سؤال يوجه اليه من غير تدبر ولا اعمال روية ، وقد أراد مرة جماعة من منافسيه أن يطلعوا المنصور على كذبه وادعائه ، فاقترحوا على المنصور تجليد كراريس بيض تزال جدتها حتى توهم القدم ، فلما جمعت فى مجلد كتب فى أوله « كتـــاب النكت » تأليف أبى على الغوث الصنعانى » •

فلما جاء صاعد ورأى الكتاب ترامى عليه وجعل يقبله ويقول « أى والله قرأته بالبلد الفلانى على الشيخ أبى فلان » •

فأخذه المنصور من يده خوفا أن يفتحه ، وقال له « ان كنت قد قرأته كما تزعم فعلام يحتوى ؟ » فقال صـاعد « وأبيك لقد بعد عهدى به ، ولا أحفظ الآن منه شيئاً ، ولكنه يحتوى على لغة منثورة لا يشوبها شعر ولا خبر » •

فقال له المنصـور « أبعد الله مثلك ! فما رأيت أكذب منـك » وأمر باخراجه ، وتقول الرواية انه أمر بأن يقذف كتاب الفصوص » فى النهر ، فقال فيه بعض الشعراء :

قد غاص فى البحـر كتـاب الفصوص

وهـكذا كـل ثقيـل يغـوص

فأجابه صاعد :

عاد الى معـــدنه انمـــا توجد فى قاع البحار الفصوص

على أن المنصـور ألف بعد ذلك أكاذيب صـاعد ، وصـــار يجد فيها نوعا من التسـلية يتلهى به فى أوقات فراغه واستجمامه ، قال له المنصور مرة وقد قدم طبق فيه تمر « يا أبا العلاء ما التمر كل فى كلام العرب ؟ » .

فقال صـــاعد « يقال تمـر كل الرجـل تمر كلا اذا التف فى كسائه » .

ودخـل مرة على المنصور وبيده كتـاب ورد عليه من عامل له فى بعض البلاد اسمه ميدمان بن يزيد يذكر فيه « القلب والتربيل ، وهما عندهم من معاناة الأرض قبل زراعتها ، فقال له « يا أبا العلاء !» قال « لبيك يا مولانا » .

قال « هـل رأيت فيما وقع اليك كتـاب « القوالب والروالب لميدمان بن يزيد ؟ » .

فقال « أى والله يا مولانا ، رأيتـه ببغداد فى نسخة لأبى بكر ابن دريد بخط كأكرع النمـل ، فى جوانبهـا علامات الوضـــاع هكذا هكذا » .

فقال له « أما تستحى أبا العـلاء من هذا الكذب ؟ هذا كتـاب

عاملنا ببلد كذا وكذا واسمه كذا يذكر فيه للذى تقدم ذكره ، وانما صنعت هذا تجربة لك » .

فجعل يحلف له ما كذب ، وأنه أمر وافق .

على أن صاعدا برغم مزاحه واكاذيبه كانت تصدر منه فى مجلس المنصور بداهات تدل على واسع علمه ، ودقيق فهمه ، فقد سأل مرة جماعة من أهل الأدب فى حضرة المنصور عن قول الشماخ:

دار الفتاة التى كنا نقول لها ... ياظبية عطلا حسانة الجيد

تدنى الحمامة منها وهى لاهية ... من يانع المرد قنوان العناقيد

فقالوا « هى الحمامة تنزل على غصن الأراكة والكرم فتثقله ، فتتمكن الظبية منه فترعاه » ، فأنكر ذلك عليهم صاعد ، وقال « ان الحمامة فى هذا البيت هى المرآة ، وهى اسم من أسمائها ، فأراد أن هذه الجارية المشبهة بالظبية اذا نظرت فى المرآة أدنت المرآة منها فى المنظر شعرها الذى هو كقنوان العناقيد من يانع الكرم أو المرد فرأته » .

ويقول الحميدى (١) ان صاعدا ألف للمنصور كتابا آخر غير كتاب الفصوص على مثل كتاب الخزرجى أبى السرى سهل بن أبى غالب سماه « كتاب الهجفجف بن غدفان بن يثربى مع الخنوت بنت

---

(١) جذوة المقتبس صفحة ٤٠ .

مخرمة بن أنيف » وكتـابا آخـر فى معناه سـماه « كتاب الجواس ابن قعطل المذحجى مع ابنة عمه عفراء » ويروى أن المنصور كان كثير الشغف بهذا الكتاب حتى رتب له من يخرجه أمامه فى كل ليلة ، والظاهر أن هذا الكتـاب كان حافلا بالقصص الطريفة ، والنوادر المضحكة ، التى كان يتسلى بسماعها المنصور •

وجمع صـاعد مرة خرق الأكيـاس والصرر التى قبض فيها صـلات المنصور ، فقطعت لكافور غلامه الأسـود قميصا كالمرقعة ، وبكر به الى قصر المنصور ، واحتال فى تنشيطه والتسرية عنه حتى طابت نفسه فقال له « يا مولاى لعبدك حاجة ! » •

فقال له المنصور « اذكرها » •

فقال « وصول غلامى كافور الى مجلسك » •

فقال المنصور « وعلى هذا الحال ؟ » •

فقال صاعد « لا أقنع الا بحضوره بين يديك » •

فقال المنصور « ادخلوه » •

فمثل كافور قائما بين يديه فى مرقعته وهو كالنخلة اشرافاً •

فقال المنصور « قد حضر وانه لبازل الهيئة ، فمالك أضعته ؟ » •

فأجاب صـاعد « يا مولانا هنالك الفائدة ، أعلم يا مولاى أنك وهبت لى الى اليوم ملء جلد كافور مالا » •

فتهللْ وجـه المنصـور وقال « لله درك من شـاكر مستنبط لغوامض معـانى الشـكر » وأمر له بمال واسـع ، وكسا كافوراً أحسن كسوة .

وكان مـرة بين يدى المنصـور ، فأحضرت اليه وردة فى غير وقتها لم يستتم فتح ورقها ، فقال فيها صاعد مرتجلا :

أتتـك أبا عامـر وردة   يذكرك المسـك أنفاسـها

كعـذراء أبصرها مبصر   فغطت بأكمامهـا رأسـها

فسر بذلك المنصـور ، وكان ابن العريف حاضرا ، فحسـد صـاعدا ، وجرى الى مناقضته ، وقال للنصور « هذان البيتان لغيره ، وقد انشدنيهما فى مصر بعض البغداديين لنفسـه ، وهما عندى على ظهر كتاب بخطه » .

فقال له المنصور « أرنيه » .

فخرج ابن العريف ، وركب من فوره دابته حتى أتى مجلس ابن بدر ، وكان أحسن أهـل وقته بديهة ، فوصف له ما جرى ، فقال هذه الأبيات ، ودس فيها بيتى صاعد :

عشـوت الى قصر عباسـة   وقد جـدل النوم حراسـها

فألفيتهـا وهى فى خـدرها   وقد صرع السـكر أناسـها

فقالت « أسـار على هجعة ؟ »   فقلت « بلى » فرمت كأسـها

ومدت يديهـا الى وردة يحاكي لك الطيب أنفاسـها
كعـذراء أبصرها مبصر فغطت باكمامهـا رأسـها
وقالت خف الله لاتفضـحن في ابنـه عمك عباسـها
فوليت عنهـا على غفـلة وما خنت ناسي ولا ناسـها

فطار ابن العريف بها ، وعلقها على ظهر كتاب بخط مصرى وبمداد أشقر ، ودخل بها على المنصور ، فلما رآها اشتد غيظه ، وقال للحاضرين « غداً أمتحنه ، فان فضحه الامتحان أخرجته من البلاد ، ولم يبق في موضع لى عليه سلطان » .

فلما أصبح وجه اليه ، فأحضر وأحضر معه جميع الندماء ، فدخل بهم الى مجلس محتفل قد أعد فيه طبق عظيم فيه سقائف مصنوعة من جميع النواوير ، ووضع على السقائف لعب من ياسمين في شكل الجوارى ، وتحت السقائف بركة ماء قد ألقى فيها اللآلىء مثل الحصباء ، وفى البركة حية تسبح ، فلما دخل صاعد ورأى الطبق قال له المنصور « ان هذا اليوم اما أن تسعد فيه معنا ، واما أن تشقى بالضد عندنا ، لأنه قد زعم قوم أن كل ما تأتى به دعوى ، وقد وقفت من ذلك على حقيقته ، وهذا طبق ما توهمت أنه عمل لملك مثله ، فان وصفته بجميع ما فيه علمت صحة ما تذكره » .

فقال صاعد بديهة :

أبا عامر هـل غير جدواك واكف
وهـل غير من عادك فى الأرض خائف

يســـوق اليه الدهـر كل غريبـــة

وأعجب ما يلقـــاه عنـــدك واصـــف

وشـــائع نور صـــاغها هامر الحيـــا

عـلى حافتيهـــــا عبقـــر ورفارف

ولمـا تنـــاهى الحسن فيهـا تقابلت

عليهـا بأنـــواع المـلاهى الوصـــائف

كمثـــل الظباء المســـتكنة كنسـاً

تظللها بالياســـــمين الســـــقائف

وأعجب منهـــــا أنهن نواظـــــر

الى بركة ضـــمت اليهـا الطرائف

حصـاها اللآلى سـابح فى عبابهـــا

من الرقش مشنـــؤوم الثعابين زاحف

تـرى ما تشـــــاء العين فى جنباتهـــا

من الوحش حتى بينهن السلاحف

فعجب الحاضرون من بديهته فى مثـل ذلك الموضع ، وكتب المنصور الأبيات بخطه ، وكان الى ناحية من تلك السقائف سـفينة فيها جارية من النوار تجذف بمجاذيف من ذهب لم يرها صـاعد ، فقال له المنصور « أحسنت ! الا أنك أغفلت ذكر المركب والجارية »

فقال للوقت :

واعجب منهـــا غادة فى ســـــــفينة
مكللة تصـــبو اليهـــا المهـاتف

اذا راعهـــا مـــوج من المـــاء تتقى
بســـكانها ما أنذرته العواصـــف

متى كانت الحســـناء ربان مركب
تصرف فى يمنى يديهـا المجاذف

ولم تــر عينى فى البـــلاد حديقـــة
تنقلهـــا فى الراحتين الوصـــائف

ولا غرو ان شـاقت معاليك روضـــة
وشـــتها ازاهـير الربى والزخارف

فانت امـرؤ لو رمت نقـــل متـــالع
ورضـــوى ذرتهـــا من سطاك نواسف

اذا رمت قـــولاً أو طلبت بديهـــة
فكلنى لهـــا انى لمجـــدك واصـــف

فأمر له المنصـــور بألف دينـار ومائة ثوب ، ورتب له فى كل شـــهر ثلاثين دينـاراً ، وألحقه فى ديوان الندماء ، وتربص صـاعد بقوة عارضته وحضور ذهنه لابن العريف ، لينتصر عليه فى معركة حاسـمة ، وسرعان ما أسعفته الأقدار ، فقد دخل ابن العريف على

المنصور وعنده صاعد ، فأنشده وهو بالموضع المعروف بالعامرية من أبيات :

فالعامرية تزهى على جميع المباني
وأنت فيها كسيف قد حل في غمدان

فأظهر صاعد للمنصور أن في استطاعته أن يرتجل خيرا من هذا الشعر الذى أعده ابن العريف وروى فيه ، فطلب منه المنصور أن يفعل ليظهر صدق دعواه ، فقال من غير فكرة طويلة :

يا أيها الحاجب المعتلى على كيوان
ومن به قد تناهى فخار كل يماني
العامرية أضحت كجنة الرضوان
فريدة لفريد ما بين أهل الزمان

ثم مر فى الشعر الى أن قال :

انظر الى النهر فيها ينساب كالثعبان
والطير يخطب شكراً على ذرا الأغصان
والقضب تلتف سكراً بمبس القضبان
والروض يفتر زهوا عن مبسم الأقحوان
والنرجس الغض يرنو بوجنة النعمان
وراحة الريح تمتار نفحة الريحان
فدم مدى الدهر فيها فى غبطة وأمان

فاستحسن المنصور ارتجاله ، وقال لابن العريف « مالك فائدة فى مناقضة من هذا ارتجاله ، فكيف تكون رويته ؟ » .

فأجابه ابن العريف « انما أنطقه وقرب عليه المآخذ احسانك ! » فقال له صاعد « يفهم من هذا أن قلة احسانه اليك اسكتتك وبعدت عليك المأخذ ! » .

فضحك المنصور ، وقال « غير هذه المنازعة أليق بأدبكما ! » .

ومن عيون شعر صاعد القصيدة التى هنأ بها المنصور بفتح جربيرة ، وهى الغزوة التى لم يباشر المنصور أشد عليه منها ولا أصعب مقاما ، وقد أشرف فيها المنصور على الهزيمة لولا رباطة جأشه ، وحضور ذهنه الذى أنقذ الموقف ، وفيها يقول صاعد :

جددت شكرى للهوى المتجدد ... وعهدت عندك منه مالم يعهد
اليوم عاش الدين وابتدأ الهدى ... غضا وعاد الملك عذب المورد
ووقفت فى ثانى حنين وقفة ... فرأيت صنع الله يؤخذ باليد
من فاته بدر وأدرك عمره ... جربير فهو من الرعيل الأسعد
ما استكين لروعة ومحمد ... وبنوه أنصار النبى محمد
عهدى بى والله ينظر صبره ... والموت بين مصوب ومصعد
غطى عليه المشركون فلم يكن ... فى القوم الا صخرة فى فدفد
حتى تحصن بالملائكة التى ... حفته بين معفر ومردد

حملت ميامنهم عليك نشيجة كالسيل يحطم جلمدا عن جلمد
ورأوك فارتدوا على أعقابهم مثل ارتداد تنفس المتنهد
ماناجزوك وفى الجوانح موضع لتصبر ومكانة لتجلد
طال الشقاء عليهم وتبرموا بالجيش فى الذل المقيم المقعد
فتحالفوا لمحنث وتجمعوا لمفرق وتألفوا لمبدد

ويقول ابن الخطيب فى كتابه « أعمال الأعلام » عن غزاة المنصور الصائفة فى سنة ٣٩٠ التى وصف فيها صاعد موقف المنصور « لم يباشر المنصور حربا أشد عليه ولا أصعب مقاما وأغلظ كريهة من حربه فى غزاته الصائفة سنة ٣٩٠ وقد كانت الهدنة امتدت وفترت الشهامة وأنس الناس بالجمام ، وتعاقدت ملوك النصارى واستجمعوا من كل أوب ، وهي تعرف بغزوة جربيرة ، وذلك أن المنصور اقتحم قشتالة من ناحية مدينة سالم فوجد شانجة فى جمع عظيم فيه سائر ملوك الجلالقة وقادتهم من حيز بنبلونه الى استرقة ثم أقبل شانجة حتى أنزلهم جبل جربيرة ، واتخذ معسكرا ، وكان نعم المراد لامتناعه وحصانته ، ولما وراءه من الأعمال التى لا تبعد عن قبلها الميرة ، وكاد يهزم المنصور لولا صبره وثباته » ولما عاد المنصور منتصرا الى قرطبة أمر كاتبه على الرسائل عبد الملك بن ادريس الجزيرى بانشاء كلام ينطوى على توبيخ للجيش ورجاله جاء فيه « وكثيرا ما فرط من قولكم انكم تجهلون قتال المعاقل والحصون ،

وتشتاقون ملاقاة الرجال الفحول ، فحين جاءكم شانجة بالأمنية ، وقاتلكم بالشريطة أنكرتم ما عرفتم ، ونافرتم ما ألفتم ، حتى فررتهم فرار اليعافير من آساد الغيل ، وأجفلتم اجفال الرئال عن المقتنصين ، ولولا رجال منكم رحضوا عنكم العار ، وحرروا رقابكم من الذل ، لبرئت من جماعتكم وشملت بالموجدة كافتكم ، وخرجت للامام والأمة عن عهدتكم ، ونصحت للمسلمين فى الاستبدال بكم ، ولم أعدم من الله تعالى عاجل نصر ، وحسن عقبى ، فلابد أن ينصر دينه بمن شاء » .

وموقف المنصور فى هذه الغزوة الخطيرة كان جديرا بما وصفه به فيها صاعد الذى استوحى فى هذه القصيدة وحى الشعر من أحداثها ومواقفها ، وقد كان صاعد كثيرا ما يمدح بلاد العراق بمجالس المنصور ، ويصفها ويقرظها ويبالغ ويتزيد فى ذلك على مألوف عادته ، فكتب الوزير أبو مروان عبد الملك بن شهيد الى المنصور فى يوم اشتد برده بهذه الأبيات :

أما ترى برد يومنا هذا	صيرنا للكمون افذاذا
قد فطرت صحة الكبود به	حتى لكادت تعود أفلاذا
فادع بنا للشمول مصطليا	نغذ سيرا اليك اغذاذا
وادع المسمى به وصاحبه	تدع نبيلا وتدع أستاذا
لو معبداً أو غريضه لحقا	لكان عن ذا وذاك اخاذا

ولا تبـــالى أبا العـــلاء زها بخمـــر قطـــربل وكلواذا

مادام من ارملاط مشربنـــا دع ديرعمـــا وطيزنابإذا

وكان المنصـور قد عزم فى ذلك اليوم على الانفراد بالحـرم ، فأمر باحضـار من جرى رســمه من الوزراء والندماء ، وأحضر ابن شهيد فى محفه لنقرس كان يعتاده ، وأخذوا فى شأنهم ، فمر لهم يوم لم يشهدوا مثله ، وطما الطرب ، وسما بهم حتى تهايج القوم ورقصوا ، وجعلوا يرقصون بالنوبة حتى انتهى الدور الى ابن شهيد الوزير ، فأقامه الوزير أبو عبد الله بن عياش فارتجـل يرقص وهو متوكىء عليه ، ويرتجل ويومى الى المنصور وقد غلب عليه السكر :

هـاك شــيخ قاده عـذر لـكا قام فى رقصـــته مســتهلكا

لم يطـق يرقصـــها مستثبتا فانثنى يرقصـها مستمســكا

عاقـه عن هزها منفـــرداً نقـرس أخنى عليه فاتـكا

من وزير فيهـــم رقاصـــة قام من طيب يناغى ملـــكا

انا لو كنت كمـــــا تعـرفنى قمت اجـلالا على رأسى لكـــا

قهقه الابـريق منى ضاحــكاً ورأى رعشـــة رجلى فبكى

وكان حاضرهم فى ذلك اليوم رجـل بغدادى يعرف بالكك حسن النـادرة سريعها ، وكان ابن شـهيد استحضره للمنصـور فاستظرفه ، فلما رأى ابن شهيد يرقص قائما مع ألم المرض الذى

كان يمنعه من الحركة قال « لله درك يا وزير ! ترقص بالقائسة ، وتصلى بالقاعدة » فضحك المنصور ، وأمر لابن شهيد بمال جزيل ولسائر الجماعة وللبغدادى .

ودخل صاعد على المنصور فى يوم عيد وعليه ثياب جدد وخف جديد ، فمشى على حافة البركة لازدحام الحاضرين فى الصف ، فزلق فسقط فى الماء ، فضحك المنصور ، وأمر باخراجه ، وقد كاد البرد يأتى عليه ، فخلع عليه ، وأدنى مجلسه ، وقال له « هل حضرك شىء » فقال :

شيئان كانا فى الزمان عجيبة ضرط ابن وهب ثم وقعة صاعد

فاستبرد ما أتى به ، ولم تسعفه بديهته فى هذه المرة أو فى هذه « الوقعة » بخير من هذا الشعر ، وكان أبو مروان الجزيرى حاضرا ـ وهو من وزراء المنصور وشعرائه ـ فقال يا أبا العلاء هلا قلت :

سرورى بغرتك المشرقة وديمة راحتك المغدقه
ثنانى نشوان حتى هويت فى لجة البركة المطبقه
لئن ظل عبدك فيها الغريق فجودك من قبل ذا أغرقه

فقال له المنصور « لله درك يا أبا مروان قسناك بأهل بغداد ففضلتهم ، فبمن نقيسك بعد ؟ » وأنهض الجزيرى يومئذ للشرطة كما يقول ابن بسام .

وكان الجزيرى شاعرا بليغا حاضر البديهة جزل الأسلوب ، وكان ليلة بين يدى المنصور ، والقمر يبدو تارة ويخفيه السحاب تارة ، فقال بديهة :

أرى بدر السماء يلوح حينا ... فيبدو ثم يلتحف السحابا
وذاك لأنه لما تبدى ... وأبصر وجهك استحيا فغابا
مقال لو نمى عنى اليه ... لراجعنى بتصديق جوابا

وفى يوم احتفال المنصور بتطهير ابنه عبد الرحمن ـ وكان عام قحط ـ نشأت فى السماء سحابة عمت الأفق ، ثم أتى المطر الوابل ، فاستبشر الناس ، وسر المنصور ، فقال الجزيرى بديهة :

أما الغمام فشاهد لك أنه ... لاشك صنوك أو أخوك الأوثق
وافى الصنيع فحين تم تمامه ... فى الصحو أنشأ ودقه يتدفق
وأظنه يحكيك جودا اذ رأى ... فى اليوم بحرك زاخرا يتفهق

ومن قوله فى قصيدة يمدحه :

ملك جهلنا قبله سبل العلى ... حتى وضحن بنهجه وشراعه
فى سيفه(١)قصر لطول نجاده ... وتمام ساعده وفسحة باعه
ذو همة كالبرق فى اسراعه ... وعزيمة كالحين فى ايقاعه

---

(١) واضح من هذا الوصف ان المنصور كان طويل القامة .

ومن الشعراء الكتاب الذين ظهروا فى عصر المنصور وبعدت شهرتهم وعلت مكانتهم : أبو عمر أحمد بن دراج القسطلى ، ويقول عنه ابن بسام فى الذخيرة « كان أبو عمر القسطلى وقته لسان الجزيرة شاعراً وأولاً حين عد معاصريه من شعرائها المشهورة ، وآخر حاملى لوائها ، وبهجة أرضها وسمائها ، وأسوة كتابها وشعرائها » وقد ذكره الثعالبى فى كتاب « يتيمة الدهر » وقال عنه « بلغنى أن أبا عمر القسطلى كان عندهم بصقع الأندلس كالمتنبى بصقع الشام ، وهو أحد شعرائهم الفحول هنالك ، وكان يجيد ما ينظم » وقال عنه المؤرخ الأندلسى المعروف ابن حيان « أبو عمر القسطلى سباق حلبة الشعراء العامريين ، وخاتمة محسنى أهل الأندلس أجمعين » وذكره الشاعر النقادة أبو عامر بن شهيد فقال عنه « الفرق بين أبى عمر وغيره أن أبا عمر مطبوع النظام ، شديد أسر الكلام ، ثم زاد بما فى أشعاره من الدليل على العلم بالخبر واللغة والنسب ، وما تراه من حوكه للكلام وملكه لأحرار الألفاظ ، وسعة صدره ، وجيشة بحره ، وصحة قدرته على البديع ، وطول طلقه فى الوصف ، وبغيته للمعنى وترديده ، وتلاعبه به وتكريره ، وراحته بما يتعب الناس ، وسعة صدره فيما يضيق الأنفاس » ويقول عنه ابن حزم « لو قلت انه لم يكن بالأندلس أشعر من ابن دراج لم أبعد » وقال مرة أخرى « لو لم يكن لنا من فحول الشعراء الا أحمد بن دراج لما تأخر عن شأو « حبيب » و المتنبى » .

ونستدل من ذلك على عظيم مكانته في نفوس معاصريه ومن جاء بعدهم من النقاد والعلماء المتذوقين للشعر ، وهو ينسب الى قرية من قرى الأندلس تعرف بقسطلة دراج ، ويرجح الدكتور مكي في المقدمة القيمة التي كتبها لديوانه أنها في منطقة جيان ، ولم تذكر المراجع العربية شيئا عن نشأة ابن دراج وأساتذته الذين أخذ عنهم ، والظاهر انه لم يلتفت اليه ويعني بذكره الا بعد اتصاله بالمنصور ، ومهما يكن من الأمر فان تلك الفترة التي ولد فيها القسطلي ونشأ كانت من خير الفترات في تاريخ الأدب الأندلسي فقد ولد سنة ٣٤٧ أي في أواخر عهد الخليفة الأموي عبد الرحمن الناصر ، وعاصرت نشأته عهد الخليفة الحكم المستنصر وابنه هشام المؤيد ، وكانت الدولة الأموية الأندلسية قد استقرت دعائمها ، وعظمت في النفوس هيبتها على أثر الجهود العظيمة التي بذلها الخليفة الناصر لفرض طاعته ، والقضاء على الثورات ، واصبحت قرطبة في ذلك الوقت نجعة القصاد ، وموئل العلماء والأدباء والشعراء ، ويمكن أن نستدل من شعر ابن دراج على أن دراسته الأدبية كانت دراسة وافية شاملة عميقة مستوعبة ، وبرغم أنه ينتسب الى اسرة منحدرة من أصل بربري ينتمي الى قبيلة صنهاجة الشهيرة الا أن شعره يدل على سليقة عربية سليمة ، واستعداد أدبي صميم زادته جدية الدراسة ، والعكوف على الاطلاع ، ومعرفة أوابد اللغة وشواردها .

والظاهر أن القسطلي حينما نضجت شاعريته . وقويت ثقته

بنفســه رأى أن يقدم على اقتحام بلاط المنصور بن أبى عامر ، وهو يعلم أن سدة المنصور كانت مزدحمة بالشـعراء والنقاد واللغويين والنحاة والفقهاء ، وكان المنصور على كثرة اشتغاله بالغزوات الحربية والمشكلات السياسية معنيا بالأدب والثقافة ، ومحبا للعلم ، وميالا الى تكريم الكتاب والشعراء والعطف عليهم ، ولكنه كان لا يسمح فى الوقت نفســه لشـــاعر أو عالم بالمثـول بين يديه الا بعد أن تختبر موهبته ، ويتبت امتيـازه وتفوقه ، وقد رأينـا الاختبار القاسى الذى تعرض له صاعد البغدادى حين قدومه الى قرطبة ، وغشـيانه بلاط المنصور ، وحضوره مجلسه الأدبى العامر وكان يتوقف على هذه الامتحانات مصير الشـاعر ، فاذا أثبتت التجربة كفايته استحق أن يثبت فى ديوان العطاء ، ويصـبح بذلك « شاعرا رسـميا » يجرى عليه راتب منتظم ، وحينما اتصـــل ابن دراج بالمنصـور ، وضعت فى طريقه العقبات واسـتهدف لأمثال هذه الاختبارات ، وقد اقترح عليه مرة أن يرتجل ابياتا فى وصف طبق تفاح أحيط بأزهار البهار ، فنظم على البديهة الأبيات الآتية :

ياحبــذا خجل التفاح فى طبق	منضد بجنى الزهـــر متسـق
فيه عيون بهـــار قد أحطن به	نواظراً بجفون العاشـق الأرق
كأن ما احمر من تفاحه خجلاً	بدر بدا قطعا من حمرة الشفق
فى مجلس الملك المنصور يانعة	كأنما غذيت من جوده الغدق

وكانت أول قصيدة أنشدها ابن دراج فى حضرة المنصور قصيدته التى يقول فى مطلعها :

أضاء لها فجر النهى فنهاها عن الدنف المضنى بحر هواها

وكان أول هذا الاتصال فى سنة ٣٨٢ ، وقد استهل القصيدة بالغزل جريا على الطريقة التقليدية فى البدء بالغزل والنسيب والتخلص منهما الى المديح ، وقد أشار فى هذه القصيدة الى رحلته من بلده قاصدا المنصور وتركه زوجته وأولاده فقال :

ولله عزمى يوم ودعت نحوه نفوساً شجانى بينها وشجاها

وربة خدر كالجمان دموعها عزيز على قلبى شطوط نواها

وبنت ثمان ما يزال يروعنى على النأى تذكارى خفوق حشاها

وموقفها والبين قد جد جده منوطا بحبلى عاتقى يداها

تشكى جفاء الأقربين اذا النوى ترامت برحلى فى البلاد فتاها

وأقسم جود العامرى ليرجعن حفيا بها من كان قبل جفاها

والظاهر انه بعد انشاد هذه القصيدة التى أعجب بها المنصور من غير شك ، وحاول الحساد والمنافسون المنتفعون بكرم المنصور أن يبعدوا هذا المنافس الجديد بالنيل من شاعريته ، والتشكيك فى قدرته ، وكان أقرب طريق الى ذلك اتهامه بسرقة الشعر وانتحاله ،

وقد اضطر ذلك القسطلى الى انشاء قصيدة أشار فيها الى ذلك ومطلعها :

حسبى رضاك من الدهر الذى عتبا
وجود كفيك للحظ الذى انقلبا

وقد أشار الى هذا الاتهام ، ودافع عن نفسه بقوله :

حاشى لقدرك أن أزجى الثناء له
دعوى وأهدى اليه الدر مغتصبا

لكنها همم انشأتها نعماً
تشاكها بنفيس القدر فاصطحبا

ولست أول من أعيت بدائعه
فاستدعت القول ممن ظن أو حسبا

ان امرأ القيس فى بعض لمتهم
وفى يديه لواء الشعر « ان ركبا »

والشعر قد أسر الأعشى وقيده
خبرا وقد قيل « والأعشى اذا شربا »

وكيف أظما ـ وبحرى زاخر فطناً
الى خيال من الضحضاح قد نضبا

فان نأى الشك عنى أو فهأنذا
مهيأ لجلى الخبر مرتقبا

عبد لنعماك فى كفيه نجـــم هـــدى
صار بمدحك يجلو الشـــك والريبـا

ان شئت أمـلى بديع الشـــعر أو كتبـا
أو شئت خاطب بالمنثـــور أو خطبـــا

وقد كانت قدرة ابن دراج فى النثر لا تقـل عن قـدرته فى الشعر ، والفصـول التى اختارها له ابن بسـام فى الذخيرة من نثره تؤيد ذلك ، وقد استهلها ابن بسـام بقوله « وقد أتيت من شعره بما يبهر نيران الألباب ، ويظهر خفيات الأسباب ، ومن نثره ما يبهـر العقول ، ويباهى الغـرر والحجول ، ويســامى التيجان والأكاليل ويستأهل التقليد والتأويل » وقليل من الشعراء من استطاع أن يجمع بين التفوق فى كتابة النثر ونظم الشعر ، فالبحترى والمتنبى مثلا وهما فى طليعة شعراء الأدب العربى لا نكاد نعرف لهما نثرا ، وقد كان البحترى يرد على بعض الرسائل التى ترد اليه من أصدقائه بالشعر ، وقدرة ابن دراج فى النثر ساعدته على اتخاذه من كتاب الرســائل بديوان الانشاء فى عهد المنصور .

ويقول الحميدى فى « جذوة المقتبس » ، ان المنصور لما فتح شنت ياقب أو غيرها من القلاع الحصينة التى يقال ان أحدا لم يصل اليها قبله ، استدعى أبا عمر أحمد بن دراج وأبا مروان عبد الملك ابن ادريس المعروف بابن الجزيرى وأمـرا بانشـاء كتب الفتح الى

الحضرة والى سائر الأعمال ، فأما ابن الجزيرى فقال « سمعا وطاعة ، وأما ابن دراج فقال « لا يتم لى ذلك فى أقل من يومين أو ثلاثة »، وكان معروفا بالتنقيح والتجويد والتؤدة ، فخرج الأمر الى الجزيرى بالشروع فى ذلك فجلس فى ظل السرادق ، ولم يبرح حتى أكمل الكتب فى ذلك ، وقيل لابن دراج افعل ذلك على اختيارك ، فقد فسح لك فيه ، ثم جاء بعد ذلك بنسخة الفتح ، وقد وصف الغزاة من أولها الى آخرها ، ومشاهد القتال ، وكيفية الحال بأبدع وصف ، فاستحسنت ، ووقع الاعجاب بها . ولم تزل منقولة متداولة الى الآن ، وما بقى من نسخ ابن الجزيرى فى ذلك الفتح على كثرتها عين ولا أثر » .

وكان المنصور قد أمر صاعدا بمعارضة قصيدة أبى نواس الرائية المشهورة التى نظمها فى مدح الخصيب بن عبد الحميد صاحب خراج مصر ومطلعها .

أجارة بيتينا أبوك غيور ومیسور مايرجى لديك عسير

فأبى صاعد من ذلك اجلالا لأبى نواس وأنشد : ـ

انى لمستحى علاك من ارتجال القول فيه
من ليس يدرك بالرويه كيف يدرك بالبديه

ولكن المنصور أصر على ذلك لأنه كان شديد الاعجاب بقصيدة

أبى نواس ، فجاء صاعد من الغد وأنشده قصيدته التى يقول فى مطلعها :

جذال الشرى انى بسكن بصير
طوتكن عنى خلسة وقتير

والظاهر أن المنصور وجد أن صاعدا قد قصر فى قصيدته عن مدى أبى نواس ، ولم يستطع مجاراته أو مداناته فى معارضته ، ولعل ابن دراج أراد أن يرضيه ويحوز اعجابه من هذه الناحية ، فنظم قصيدته المشهورة فى معارضة أبى نواس ومطلعها :

دعى عزمات المستضام تسير
فتنجد فى عرض الفلا وتغور

وقد اشتهرت هذه القصيدة شهرة هائلة ، وقد أبدع فيها فى وصف وداعه لزوجته وطفله الذى كان فى المهد بقوله : ــ

ولما تدانت للوداع وقد هفا
بصبرى منها أنة وزفير

تناشدنى عهد المودة والهوى
وفى المهد مبغوم النداء صغير

عيى بمرجوع الخطاب ولفظه
بموقع أهواء النفوس خبير

تبوأ ممنوع القلوب ومهدت
له أذرع محفوفة ونحور

فكل مفداة الترائب مرضع
وكل محياة المحاسن ظير

عصيت شفيع النفس فيه وقادنى
رواح لتدآب السرى وبكور

وينتقل الى مدح المنصور قائلا : ـ

وأى فتى للدين والملك والندى
وتصديق ظن الراغبين نزور

مجير الهدى والدين من كل ملحد
وليس عليه للضلال مجير

وقد قضى ابن دراج فى كنف المنصور وولديه عبد الملك المظفر وعبد الرحمن قرابة سبعة عشر عاما ، وفى ديوانه مجموعة من القصائد التى نظمها فى مدح المنصور والاشادة ببطولته ، ووصف المعارك التى خاض غمارها وعقد له فيها لواء النصر ، والحصون التى اقتحمها ولم تصده عنها مناعتها ، وهى تذكرنا بوصف المتنبى لجهاد سيف الدولة ومواقفه المأثورة فى صد عادية الروم ، وكان اعجاب ابن دراج بالمنصور وتقديره لشخصيته لا يقل عن حب المتنبى لسيف الدولة واكباره لشجاعته ، ولا نزاع فى أن وصف ابن دراج

الملحمى لبعض معارك المنصور يلقى جانبا من الضوء على حياة هـذا المجاهد الـكبير ، ولما توفيت السيدة صبح أم الخليفة هشام فى سنة ٣٨٩ رثاها بقصيدة يقول فى مطلعها : ـ

بقـــاء الخلائق رهـن الفنـــاء
وقصر التـدانى وشـيك التنـائى

ومنها قوله : ـ

هـل المـلك يمـلك ريب المنـون ؟
أم العـــز يصرف صرف القضـــاء

هو المـوت يصــدع شمل الجميـع
ويـكسو الربوع ثيـــاب العفـاء

ألم تر كيف استباحت يـداه
كريـم الملـوك وعلق السنـاء

فـلا صـــدر الا حـــريق بنـــار
ولا جفن الا غـــريق بمـــاء

وقد ضمن الرثاء مدحا فى المنصور منه قوله :

ووال رعى اللـه ما قد رعاه
فأبلاه فى الصـــنع خير البلاء

تبلـــج عنـــه بـــنا يعـــرب
تبلج قـــرن الضـــحى عن ذكاء

فتى قارض اللـــه عن نفس حـــر
بـــراها لتخليـــد حـــر الثنـــاء

وجاهـــد في اللـــه حق الجهـــاد
وأغنى عن الملك حـــق الغنـــاء

ويختم القصيدة بتقديم العزاء للخليفة هشام قائلا : ـ

عزاء امام الهـــدى فالنفـــو
س ما ان سواك لها من عـــزاء

وعوضت عنهـــا جذيـــل الثـــواب
ومد لك اللـــه طـــول البقـــاء

وقد تخلف ابن دراج ـ الذى توفى سنة ٤٢١ ـ فى ديـــوانه مجموعة من القصـــائد مفرغة في قوالب متينة السبك ، قوية البناء ، تدل على أصالة فى الشعر ، وسيطرة على اللفظ ، واطلاع واسـع على شذور اللغة ، وشعره فضلا عن بلاغته له قيمة كبيرة من الناحية التاريخيـــة ، فهـــو يصور الـكثير من الأحداث الهـــامة التى وقعت بالأندلس فى حالة القوة والتماسك وحالة الضعف والانحلال وابتداء السقوط والانحدار .

ومن مشاهير شعراء الأندلس الذى عاصروا المنصور الشاعر : يوسف بن هارون الكّندى المعروف بالرمادى نسـبة الى رمادة وهى موضع بالمغرب ،ويقول عنه الحميدى انه « شاعر قرطبى كثير الشعر سريع القول مشهور عند العامة والخاصة هنالك » ، وقد مدح الحكم المستنصر ،واتهم هو وجماعة من الشعراء بشعر ظهر فى ذم الحكم منه قوله :

يولى ويعـــزل فى يومـه

فـــلا ذا يتم ولا ذا يتم

وألف فى السجن كتابا سماه « كتاب الطير » فى أجزاء وكله من شعره ، وصف فيه كل طائرمعروف وذكر خواصه وذيل كـل قطعة بمدح ولى عهد الحكم هشام مستشفعا به الى أبيه فى اطلاقه ، وكان المنصور قد غضب عليه لاشتراكه فى مؤامرة ضده كما سبق أن ذكرت ، وصفح عنه المنصور واتفق مرة أن دخل على المنصور فى أحد مجالسه فقال له المنصور « كيف ترى حالك معى ؟

فقال الرمادى « فوق قدرى ودون قدرك » فأطرق المنصـور كالغضبان ، فانسل الرمادى وخرج وقد ندم على مابدر منه ، وجعل يقول « أخطأت ، لا والله ما يفلح مـع الملوك من يعاملهم بالحق ، ما كان ضرنى لو قلت له انى بلغت السـمـاء وتمنطقت بالجوزاء ، وأنشد :

متى يأت هـذا الموت لا يلف حاجة
لنفسى الا قد قضـــيت قضـــــاءها

لا حول ولا قوة الا بالله ..

ولما خرج كان في المجلس من يحسده على مكانه من المنصور، فوجد الفرصة فقال « وصـل الله لمولانا الظفر والسعد ! ان هـذا الصنف صنف زور وهذيان ، لا يشكرون لله نعمة ، ولا يرعون الا ولا ذمه ، كلاب من غلب ، وأصحاب من أخصب ، وأعداء من أجدب وحسبك منهم أن الله جل جلاله يقول فيهم :

« والشعراء يتبعهم الغاوون ، ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون ، وانهم يقولون مالا يفعلون » والابتعاد عنهم أولى من الاقتراب ، وقد قيل فيهم : ما ظنك بقوم الصدق يستحسن الا منهم ؟ » .

ولم يعجب هذا الكلام المنصـور الذى كان يعرف قيمة الأدب وفضل الأدباء والشعراء ، فاسود وجهه ، وظهر فيه الغضب المفرط ، وقال « ما بال قوم يشـيرون في شيء لم يستشروا فيـه ، ويسيئون الأدب بالحكم فيما لا يدرون ، أيرضى أم يسخط ؟ وأنت أيها المنبعث للشردون أن يبعث ، قد علمنا غرضك فى أهل الأدب والشعر عامة ، وحسدك لهم « لأن الناس كما قال القائل :

من رأى الناس له فضـــلا عليهم حسدوه .

وعرفنا غرضك في هذا الرجل خاصة ، ولسنا ان شاء الله تعالى

نبلغ أحـدا غرضـه فى أحد ، ولو بلغناكم بلغنا فى جانبكم ، وانك ضربت فى حديد بارد ، وأخطأت وجـه الصـواب ، فزدت بذلك احتقاراً وصغاراً ، وانى ما أطرقت من كلام الرمادى انكاراً عليه ؛ بل رأيت كلاماً يجـل عن الأقدار الجليلة ، وتعجبت من تهـديه له بسرعة ، واستنباطه له مع قلة من الاحساس الغامر مالا يستنبطه غيره بالـكثير ، والله لو حكمته فى بيوت الأموال لرأيت أنهـا لا ترجح ما تكلم به قلبه ذرة واياكم ان يعود أحـد منـكم الى الـكلام فى شـخص قبـل أن يؤخـذ معه فيه ، ولا تحكموا علينا فى أوليائنـا ولو أبصرتم منا التغير عليهم ، فاننا لا تتغير عليهم بغضاً لهم ، وانحرافاً عنهم ، بل تأديبا وانكاراً ، فانا من نريد ابعاده لم نظهر له التغير ، بل ننبذه مرة واحدة ، فان التغير انما يكون لمن نريد استبقاءه ، ولو كنت مائل السمع لكل أحد منكم فى صاحبه لتفرقتم أيدى سبا ، وجونبت أنا مجانبـة الأجرب ، وانى أطلعتكم على ما فى ضـميرى فلا تعدلوا عن مرضاتى ، فتجنبوا سخطى بما جنيتموه على أنفسكم » .

ثم أمر أن يرد الرمادى ، فلما جاء قال له « أعد كلامك » .

فارتاع الرمادى ، فقال له المنصـور « الأمـر على خـلاف ما قدرت ، الثـواب أولى بكلامك من العقـاب » فسـكن الرمادى لتأنيسه ، وأعاد ما تكلم به .

فقال المنصـور « بلغنا أن النعمان بن المنذر حشـا فم النابغة بالدر لكلام استملحه منـه ، وقد أمرنا لك بمـا لا يقصر عن ذلك

ماهو أنوه وأحسن عائدة » ، وكتب له بمال وخلع وموضع يتعيش منه ، ثم رد رأســه الى المتكلم فى شأن الرمادى ، وقد كاد يغوص فى الأرض لو وجد لشدة ما حل به مما رأى وسمع وقال « والعجب من قوم يقولون الابتعاد من الشــعراء أولى من الاقتراب ، نعــم ذلك لمن ليس له مفاخـــر يريد تخليدها ، ولا أياد يرغب فى نشرها ، فأين الذين قيل فيهم :

على مكثريهـــم رزق من يعتريهـــم
وعنـد المقلين الســماحة والبـذل

وأين الذى قيل فيه :

انمـــا الدنيـــا أبـو دلف بين مبـــــداه ومحتضره
فـــاذا ولى أبـــو دلف ولت الدنيـــا على أثـره

أما كان فى الجاهلية والاسلام أكرم ممن قيل فيه هذا القول ؟ بلى ، ولكن صحبة الشعراء والاحسان اليهم أحيت غابر ذكرهم ، وخصتهم بمفاخـــر عصرهم ، وغيرهم لم تخلد الأمداح مآثرهم ، فدثر ذكرهم ، ودرس فخرهم » .

وقد عبر المنصور بهذا الكلام تعبيرا واضحا عن طريقة فهم الرجال العمليين لرسالة الأدب والفن فى الحياة ، ولقن المتحامل على الشاعر الرمادى درسا قيما فى الأدب والاجتماع والأخلاق ، ولم

تمنع صلة الرمادى السابقة بالحاجب المصحفى المنصور من تقدير أدبه والاشـادة بمكانتـه ، وقد توفى الرمادى سنة ٤٠٣ فقيرا معدما كما يقول ابن خلكان بعد سقوط دولة العامريين وطغيان الشدائد والفتن والانقلابات على الأندلس .

وقد كان المنصور يهتز للشعر ، ويطرب له ويتأثر به ، دخل عليه سـعيد بن محمد المروانى ، وقد هجره المنصـور مدة لكلام بلغه عنه ، والمجلس غاص بالناس وأنشد .

مـولاى مـــولاى أما آن ان تريحنى بالله من هجـــركا
وكيف بالهجـر وأنى به ولم أزل أسبح فى بحركا

فضحك المنصور على ما كان يظهره من الوقار ، وقام وعانقه ، وعفا عنه ، وخلع عليه وقد مدحه الشاعر الأديب جعفر بن أبى على اسماعيل بقصيدة منها قوله :

وكتيبة للشـــيب جاءت تبتغى قتل الشـــباب ففـر كالمذعور
فـكأن هذا جيش كـل مثلث وكأن تلك كتيبة المنصـــــور

وألف الشاعر زيادة الله بن على ـ وكان شاعرا مكثرا ـ كتاب « الحمام » للمنصور ، ومن شعره فى هذا الكتاب :

أذكر القلب بالتصـابى فحنـا سبـــاجع فى أراكة قـد أرنا
أخضلت ريشـــه السـماء بطل ورأى الروض مونقـــا فتغنى

غـــرد بالسرور فازت يـــداه بحبيب عليـــه لا يتجنـى
بأبى عامر رأى الدين فى الكفـــــر عـلى رغـــم أهـله ما تمنى
ملك لم يـزل بركض المزاكى وجهـاد العدى مشـــوقا معنى

ومن شعراء الدولة العامرية سعيد بن عثمان بن مروان القرشى، وله فى مدح المنصور قصيدة أولها :

ذكـر العقيق ومنـزلا بالابرق فكفـاه ما يلقى الفؤاد وما لقى
أدت اليه صـــبابة ردته مـن فرط التوقد كالذبال المحـــرق

ومنها قوله :

من لى بمن تأبى الجفون لفقده فى الدهـر الا تلتقى أو نلتقى
ريم يروم وما اجترمت جريمة قتـلى ليتلف من بقائى ما بقى
لم يلق قلبى قط من لحظـــاته الا بســـــهم للحتوف مفـوق
واذا رمانى عن قسى جفـــونه لم أدر من أى الجـوانب أتقى

ويروى ان المنصـــور تذكر هذه القصيدة لاثنتى عشرة ليلة خلت من شهر رمضان سنة ٣٨١ أو ذكرت بين يديه وقد كان مدحه بها قديما فأعجبته ، وأتبعها بعض من كان فى المجلس ذكرا جميلا واستحسانا، وأنشدوا محاسنها ، فأمر له بثلاثمائة دينار .

ومن الشعراء الذين وفدوا على المنصور الشاعر طاهر بن محمد

المعروف بالمهند البغدادى ، وكان شاعرا متقدما ، وحظى بأدبه عند المنصور ، وقد استأذنه فى الوصول اليه بقوله :

أتيت أكحل طرفى فى نور وجهك لحظة
ولا أزيدك بعد التسليم والشكر لفظة

وله من قصيدة طويلة :

متى أشكر النعمى التى هى جنتى
ففى ظلها أمسى وفى ضوئها أضحى
اذا قلت قد جازيت بالشكر نعمة
شفعت بأخرى منك دائمة السفح
فحمدك لا ينأى وفضلك لاينى
وأرضى لاتصدى وافقك لا يضحى
وشكرى يشكو الضعف مما بهظته
ويجزع من ثقل الم به برح
ولو ان فى غير اللسان دلالة
لصاح به ودى وقام به نصحى
ولكن فى الفحوى دليلا على الذى
يسر ذوو النجوى من الجد والمزح

ومن شعراء الدولة العامرية الشاعر وليد بن مسلمة ، ومن شعره فى المنصور وقد رأى زيادة النهر فى أيام الزيادة :

أما ترى النهر يا منصور كيف طفـا
وعم مـن جـاور العبـرين بالضرر
واعجب لجودك لم يفن الورى غـرقاً
فيـه وقد عـم أهـل البدو والحضر
مـاذاك الا لأن الجـود عنصره
صـاف نمـير وهـذا بين الكدر
وان عهـدى به والنمـل يعبـره
اذا تقشـع عنـه وابـل المطـر
كذا عهـدت لئـام النـاس ان قدروا
جاروا عـلى من دنا منهـم من البشر
وكم أرى منهـم من بعـد عـزته
يعـود كالكلب من عـود الى حجـر
والله يبقيـك ماغنت مطـوقة
وهـزت الريح مخضرا من الشـجر

ومن شعراء عهد المنصور يعلى بن أحمد بن يعلى ، ومن شعره في المنصور قوله :

بعثت مـن جنتى بـورد غض له منظـر بديـع
قال أناس رأوه عنـدى أعجـله عامنـا المريـع
قلت أبو عامـر المعـلى أيامه كلهـا ربيـع

ودخل عليه الشاعر أبو المطرف بن أبى الجباب فى بعض قصوره من المنية المعروفة بالعامرية ، والروض قد تفتحت أنواره ، وتوشحت أنجاده وأغواره ، ووقف على روضة فيها ثلاث سوسنات : ثنتان منها قد تفتحتا وواحدة لم تتفتح ، فقال يصف ذلك :

لا يوم كاليوم فى أيامنا الأول   بالعامرية ذات الماء والظلل
هواؤها فى جميع الدهر معتدل   طيبا وان حل فصل غير معتدل
ما ان يبالى الذى يحتل ساحتها   بالسعد الاتحل الشمس فى الحمل
كأنما غرست فى ساعة وبدا   السوسان من حينه فيها على عجل
أبدت ثلاثا من السوسان مائلة   أعناقهن من الاعياء والكسل
فبعض نوارها للبعض منفتح   والبعض منغلق عنهن فى شغل
كأنها راحة ضمت أناملها   من بعد ماملئت من جودك الخضل
وأختها بسطت منه أناملها   ترجو نداك كما عودتها فصل

ويقول الحميدى فى ترجمته لعبد الله بن محمد بن مسلمة « من أهل العلم والأدب ، وناقد من نقاد الشعر ، كان رئيسا جليلا فى أيام المنصور أبى عامر محمد بن أبى عامر ملك الأندلس كاتبا ، وفى ديوانه كان زمام الشعراء فى تلك الدولة ، وعليه كانت تخرج صلاتهم ورسومهم ، وعلى ترتيبه كانت تجرى أمورهم » .

وكان المنصور يراعى الاعتبارات السياسية قبل كل شيء ، فقد

وفد عليه الشاعر أبو عبد الله محمد بن مسعود الغسانى واتهم برهق فى دينه فسجنه فى المطبق ، فقال يخاطب المنصور بهذه الأبيات الصارخة :

دعوت لما عيل صبرى فهل ... يستمع دعواى المليك الحليم
مولاى مولاى الا عطفة ... تذهب عنى بالعذاب الأليم
ان كنت أضمرت الذى زخرفوا ... عنى فدعنى للقدير الرحيم
فعنده نزاعة للشوى ... وعنده الفردوس ذات النعيم

فلم يعره المنصور سمعه ، ولم يعبأ بشكواه .

وتنسب للمنصور مقطوعات فى الفخر والحماسة أدلها على شخصيته ، وأنمها على مواقفه هذه الأبيات :

رميت بنفسى هول كل عظيمة
وخاطرت والحر الكريم يخاطر
وما صاحبى الا جنان مشيع
وأسمر خطى وأبيض باتر
ومن شيمى أنى على كل طالب
أجود بمال لا تقيه المعاذر
وانى لزجاء الجيوش الى الوغى
أسود تلاقيها أسود خوادر

لسدت بنفسي أهل كل سيادة

وكاثرت حتى لم أجد من أكاثر

وما شدت بنيانا ولكن زيادة

على ما بنى عبد المليك وعامر

رفعنا المعالى بالعوالى مثلها

وأورثناها في القديم معافر

ويروى ابن الأبار، ان المنصور لما اشتد سلطانه ، وتوالى ظفره كتب الى صاحب مصر يتوعده :

منع العين أن تذوق المناما

حبها أن ترى الصفا والمقاما

لى ديون بالشرق عند أناس

قد أحلوا بالمشعرين الحراما

ان قضوها نالوا الامانى والا

جعلوا وزنها رقابا وهاما

عن قريب ترى خيول هشام

يبلغ النيل خطوها والشآما

وله فى الفخر :

ألم ترنى بعت الاقامة بالسرى
ولين الحشايا بالخيول الضوامر

تبدلت بعد الزعفران وطيبه
صدا الدرع من مستحكمات المسامر

أرونى فتى يحمى حماى وموقفى
اذا اشتجر الأقران بين العساكر

أنا الحاجب المنصور من آل عامر
بسيفى أقد الهام تحت المغافر

تلاد أمير المؤمنين وعبده
وناصحه المشهود يوم المفاخر

فلا تحسبوا أنى شغلت بغيركم
ولكن أطعت الله فى كل كافر

وفى اعتقادى أن المنصور على قوة عقله ، واستقامة فهمه ، لم يكن نافذ النظر ولا صادق الحكم فى تقديراته الأدبية ، وكان لا يستطيع أن يميز بين براعات النظم وومضات الذكاء وبين نفحات العبقرية والهام الطبع ، ولذا نفقت عنده سوق صاعد وأمثاله ، ولم ينل مكانة تقارب مكانتهم عنده رجل مثل ابن دراج القسطلى ، وهو أشعر منهم ، وأصدق احساسا ، وأقوى فنا ، وانما تجلت

عبقرية المنصور فى المسائل العملية والجوانب المادية ، وكان تيسير المواصلات ، واصلاح الطرق ، واقامة الجسور شغله الشاغل ومناط عنايته ، فشيد طرقا شتى ، وأقام قنطرة على نهر قرطبة عظمت بها المنفعة ، وقنطرة أخرى على نهر استجة وهو نهر شنيل ، وسهل الطرق الوعرة والشعاب الصعبة ، ووسع جامع قرطبة ، وشيد فى الزاهرة القصور الفخمة والمتنزهات الجميلة ، وكان يتحرى فى مبانيه الوثاقة والمتانة والضخامة أكثر مما يقصد الى الجمال والرشاقة .

المنصور في الميزان

الطموح هو مفتاح أخلاق المنصور وأساس شخصيته ، يؤيد ذلك هذه الرغبة الملحة في احتمال التبعات ، وطلب جسيمات الأمور ، والتعرض للأخطار في هذا السبيل ، وكانت العاطفة الغالبة على نفسه حب السلطة ، وطلب السيادة ، ومن أقواله في ذلك « من عدل بالأمر والنهي لذة فقد انتفى من الذكورة » ، وكان لاترق عزيمته عما يروم ، ولا يحيد عن المنهج الذي رسمه ، ولا ينحرف عن قصده ، وكان مزودا بجميع المؤهلات الكفيلة بتحقيق أهدافه وغاياته ، فهو يحسن معاملة الرجال وقيادتهم ، ومعالجة الحوادث ، ومواجهة المشكلات .

وهو رجل عملي من فرعه الى قدمه ، لا يفكر في المبدأ والمصير ، ولا كيف جاء الى هذه الدنيا الحافلة بالعجائب والغرائب، فغوامض الحياة لا تستأثر بتفكيره ، ولا تلهيه عن غاياته ، وهو لايسير بين مضارب الشكوك ، ولا يرتاد شواطئ المجهول ، ولايطوف بالنواحي الساحرة البهيجة التي صورها عمر الخيام ، ولا يتخذها

له نزلا ، وخير علاج لكل مشكلة عنده هو العمل والحركة والنشاط، وأن يكون رجلا عمليا منفذا لا مفكرا متأملا ، وهكذا كان يلقى الحياة بعزم ناهض ، وايمان بنفسه لاتزعزعه الشكوك ، ولاتضعفه الحوادث •

وهو يخرج من كل مأزق ، ويعلو على كل عقبة ، ولكن براعته الأصيلة هى فى أنه سائر على خطة مرسومة ، وعلى نهج معلوم ، وبرغم ذلك لا يضيق ذرعا بالعقبات المعترضة ، والصعاب المباغتة ، بل سرعان ما يذللها ، ويروض عصيها ، وقد كان بارعا فى السياسة وحبك الدسائس واحكام المؤامرات ، قديرا فى الرياء والمكر والمداهنة ، وقد وصفه خصومه « بالثعلب » ، وقد كانت فيه مراوغة الثعلب ، ولكن من الحق أن نقول انه كان يداول بين جلد الثعلب ومسلاخ الأسد •

وكان جسمه خاضعا لعقله ، ولذاته وشهواته خاضعة لطموحه، أصيب مرة بداء فى رجله ، واحتاج الى الكى ، فأمر الذى يكويه بذلك وهو قاعد فى موضع مشرف على أهل مملكته ، فجعل يأمر وينهى ، ويفرى الفرى فى أموره ، ورجله تكوى ، والناس لا يشعرون حتى شموا رائحة الجلد واللحم ، فتعجبوا من ذلك وهو غير مكترث •

وكانت فيه صفتان من صفات رجال الأعمال وقادة الرجال المميزة ، وهما أنه يعرف ما يريد ، ويرى الأشياء على حقيقتها ،

ويحتفظ بهدوئه واتزانه في الأزمات ، ولا يفقد سرعة بته في المواقف الحاسمة ، وكلما ازداد الموقف شدة ازداد فكره دقة ، وخاطره سرعة وعرف موضع الضربة ، وكان يفهم عقول الناس فهما مباشرا ، ويستفيد من فهمه لعقلية رجاله وعقلية أعدائه ، كما كان شديد الشعور بالتيارات الفكرية وغير الفكرية الغالبة على عصره ، معنيا بها ، ويحسن الملاءمة بينها وبين اتجاهاته الخاصة .

وقد امتاز بسرعة ادراكه لطبيعة الأعمال التى يتناولها واتقانها ، وتدرج من رجل يعمل فى الدواوين الى بطل من أبطال الميادين ، وأعانه على ذلك أن عقله كان متسع الجوانب ، وخياله جم النشاط والحركة ، وكان يحاول أن يلم بكل شيء ، ويتعرف التفصيلات ، فهو كفء لتناول كل موقف من المواقف المعقدة ، لأنه يستطيع الاحاطة بجوانبها المختلفة ، وفهم فروقها الدقيقة ، وكان يرى شيئين بوضوح تام ، الموقف الذى يواجهه والوسائل التى يملكها ، فلا يسمح للمظاهر أن تغرر به ، ولا للأمانى أن تخدعه ، ويعرف من بادىء الأمر كيف يضع أساس بنائه ، ويدخل البيت من بابه ، ويكبح نفسه ، ويعرف ساعة العمل فلا يتأخر عنها ولا يتقدم عليها ، وهو ينظر الى كل شيء من ناحيته العملية النفعية ، والاستغراق فى الفكر والتأمل لا يلائم هذه الطبيعة العملية الخالصة ، وهو مسوق برغبة حادة الى السيطرة على الموقف الذى يعرض له ، وفى الوقت نفسه تحدوه ارادة قوية مصممة تخلق حوله جوا ساحرا ،

وتجتذب نحـوها كل عنصر من عنـاصر القوة حولهـا ، وتخضعه وتستغله .

ولم يضعف النجـاح تفكيره وقدرته على وزن الأمـور ، ولم يراخ من عزمه ويقظته ، وهى الصفات اللازمة للاحتفاظ بالقوة ، حدث شـعلة فتـاه قال « غلب على السـهر عند مولاى وقد اختلف ما بينه وبين الخليفة ، فكان يصـعد الى قبته المسـماة بلؤلؤة وغيرها من مستشرفاته يرعى النجوم ، وينفرد بنفســه ، ويكب على الفكرة والشمعة بين يديه ، والدرج ملقى على الدواة الى جانبه ، فاذا ثاب له رأى أثبته ، ولا يزال كذلك الى أن يدنو الفجـر فيسـتلقى على مهاد يجده فى كل وجهة من أماكن خلوته فلا يتحصل لأهله على الحقيقة مـكان مرقده ، ولا يزال قائمـا على المقدم حتى ندنى منـه سـواكه ووضـــوءه ، ويؤذنه المؤذن بالصـــلاة فيقضيها ، ويربط الدرج فى منديل كمه ، ويرفع السـتر عنه ، فيدخل من رسـمه البكور من الخاصة والوزراء والصحابة ، فيناظرهم فيما رسمه ليله ، ويأمر بتقييد ماشاء منه الى أن يرتفع النهار ، ويجتمع النـاس ، فيأخذ فى النظر العام ، ويناولنى الدرج فأقطعه صغارا وأغرقه فى ماء ورد حتى تخفى أجزاؤه » ولقد قلت له ليلة « قد أفرط مـولانا فى السهر ، وبدنه يحتـاج الى أكثر من هـذا النوم ، وهو يعـلم ما يحرك عليه السهر من علة العصب » فقال « يا شعلة ، حارس الدنيا لا ينام اذا نامت الرعية ، ولو استوفيت نومى لما كان فى دور هـذا

البلد عين نائمة ، ولو كنت من صاحب القصر ـ وأشار الى ناحية قصر الخليفة ـ على مثل مسافة بسطة لأحرمت النوم فكيف وانما بيننا مدى صيحة » .

وكانت تلتقى فى هذه الشخصية العجيبة النادرة المثال عوامل الخير ونوازع الشر وتمتزج امتزاجا محيرا ، وكان يعرف ذلك من نفسه ، دخل عليه أبو محمد الباجى الراوية وقال له « أصلحك الله يا حاجب وحفظك ووفقك ، وأحسن عونك » فرد عليه المنصور أجمل رد ، وبجله ووقره ، وأدنى مكانه حتى أقعده الى جانبه ، وقال له « كيف أنت اليوم وحالك ؟ » فقال له « بخير ماكنت به » ثم قال له الباجى « أى والد كان لك رحمة الله عليه ، كان والله ما علمت من أهل الخير والعافية والصلاح والعفة والحرص على الطلب والمعرفة ، اختلف معى الى محمد بن عمر بن لبابه ، والى أحمد بن خلد ، والى محمد بن فطيس الألبيرى وغيرهم ، وكان لى خير صديق وصاحب أنتفع به وينتفع بى ،وأقابل معه كتبه وكتبى ، ولم يكن فضوليا البتة ، وأما أنت فلم تتمثله ، وأدخلت يدك فى الدنيا فانغمست فى لجها ، وطلبت الفضول فعلمت أخبارا كثيرة ، وأوبقت نفسك والله يامغرور ، وعز على انتشابك » فقال له المنصور « يافقيه ، هكذا صاحب الدنيا لابد أن يخلط خيرا بشر ، ويأتى معروفا ومنكرا ، والله يتوب على من يشاء برحمته » .

وسأله الباجى اثر هذا رفع الغرامة من ماله باشبيلية ، فأمر

باسقاطها ، ووصله ببدرة دراهم كاملة ومنديل وكسوة تشاكله فيها خلعة تامة .

وكان المنصور مهيبا وقورا ، فاذا خلا كان أحسن الناس مجلسا ، وأسرهم بمن حضر منادما ومؤانسا ، ولكنه كان شديد القلق من التبسط عليه والدالة والامتنان لايغفرها زلة ، ولا يحلم عنها جريرة ، ولم يكن يسامح فى نقصان الهيبة وحفظ الطاعة أحدا من ولد ولا ذى خاصة ، وقد دعاه ذلك الى قتل ولده عبد الله صبرا بالسيف ، شرب مرة معه أبو مضر محمد بن الحسين التميمى الطبنى ـ وهو شاعر مكثر وأديب متفنن ـ فغنت قينة بيتين من شعره وهما : ـ

صدفت ظبية الرصافة عنا
وهى أشهى من كل ما يتمنى
هجرتنا فما اليها سبيل
غير أنا نقول كانت وكنا

فاستعادها أبو مضر ، فأنكر ذلك المنصور ، وعلم أن هيبته لم تملأ قلبه ، فأومأ الى بعض خصيانه ، فأخرج رأس الجارية فى طست ، ووضعه بين يدى الطبنى ، وقال له المنصور « مرها فلتعد » فسقط فى يده .

على أن المنصور لما ثبتت مكانته ، واستقرت فى النفوس هيبته،

كان فى بعض المواقف يكبح جماح غضبه ، فيلين بعد الاشتداد ، حكى الوزير الكاتب أبو المغيرة عبد الوهاب بن حزم أنه نادم المنصور فى منية السرور بالزاهرة ، فلما انصرم النهار ، ورفرف الليل وأسبل جنحه ، ودارت كؤوس الراح غنتهم جارية بهذا الشعر : ـ

قدم الليل عند سير النهار
وبدا البدر مثل نصف السوار

فكأن النهار صفحة خد
وكأن الظلام خط عذار

وكأن الكؤوس جامد ماء
وكأن المدام ذائب نار

نظرى قد جنى على ذنوبا
كيف مما جنته عينى اعتذارى

يالقومى تعجبوا من غزال
جائر فى محبتى وهو جارى

ليت لو كان لى اليه سبيل
فأقضى من الهوى أوتارى

فلما أكملت الغناء ، أحس بمعناها أبو المغيرة ، فرد عليها بأبيات من البحر والقافية قال فيها : ـ

كيف كيف الوصــول للأقمــار

بين سمر القنا وبيض الشــفار

لو علمنــــا بأن حبــك حــق

لطلبنا الحيــاة منــك بثار

واذا ما الــــكرام همــوا بشيء

خاطــروا بالنفوس فى الأخطـــار

وعند ذلك غضب المنصور ، وبادر لحسامه ، وغلظ في كلامه ، وقال للجارية « قولى وأصدقى الى من تشيرين بهذا الشوق والحنين؟» فقالت الجارية « ان كان الكذب أنجى فالصدق أحرى وأولى ، والله ما كانت الا نظرة ، ولدت في القلب فكرة ، فتكلم الحب على لسانى ، وبرح الشوق بكتمانى ، والعفو مضمون لديك عند المقدرة ، والصفح معلوم منك عند المعذرة » ثم بكت وأنشدت :ــ

أذنبت ذنبــــا عظيــما

فــكيف منه اعتــــذارى

واللـــه قـــدر هـــذا

ولم يـــكن باختيـــارى

والعفـــو أحســـن شيء

يـكون عنــــد اقتــدار

فعند ذلك صرف المنصور وجه الغضب الى أبى المغيرة ، وسلط عليه سخطه ، فقال له أبو المغيرة « أيدك الله تعالى ! انما كانت هفوة جرها الفكر ، وصبوة أيدها النظر ، وليس للمرء الا ماقدر له ، لا ما اختاره وأمله » .

فأطرق المنصور قليلا ، ثم عفا وصفح ، وتجاوز عنه وسمح ، وخلى سبيله ، ووهب له الجارية فانصرف بها الى منزله وتكامل سروره ، وكان أبو المغيرة بن حزم من بنى حزم وهى احدى الأسر المعروفة بالعلم والأدب ، وكان يعد من كتاب العصر البلغاء ، وبينه وبين أبى عامر بن شهيد مؤلف رسالة الزوابع والتوابع صداقة وود أكيد .

ونلمح فى الرجال الذين بلغوا ذروة المجد ، وسيطروا على نفوس البشر تغلب احدى غريزتين عليهم ، وهما غريزة حب النظام أو غريزة العطف الجم وحب الانسانية ، والغريزة الأولى قد تنحدر الى الاسراف فى الطغيان ، واللجوء الى العنف فى كل شىء ، والغريزة الثانية قد يشف جسمها ويرق حتى تصبح نوعا من الحساسية المريضة ، والموازنة بين هاتين العاطفتين تخرج قائد الرجال وسيدهم، وكذلك كان المنصور ، فهو على جبروته وقسوته يترضى السيدة التى أصرت على أن يكون بالدار التى تنقل اليها نخلة مثل نخلتها التى ستفارقها ، وقد روى أن أحد رسله كان كثير الانتياب لبلاد

البشكنس ، فسار فى بعض مسيراته الى غرسية صاحب بلاد البشكنس ، فوالى فى اكرامه ، وتناهى فى بره ، وطالت مدته وطاف بأكثر بلاده ، فبينما هو يجول فى ساحاتها ، ويجيل العين فى أنحائها اذ عرضت له امرأة قديمة الأسر ، وكلمته وعرفته بنفسها ، وقالت له « أيرضى المنصور أن ينسى بتنعمه بؤسى ، ويتمتع بلبوس العافية ، وأنا ألقى الهوان والذل » وزعمت أن لها عدة سنين بتلك الكنيسة محبوسة ، وناشدته الله فى انهاء قصتها الى المنصور واستحلفته بأغلظ الايمان ، وأخذت عليه أوكد المواثيق ، فلما وصل المنصور عرفه بما يجب تعريفه ، وهو مصغ اليه حتى تم كلامه ، فلما فرغ قال له المنصور « هل وقفت هناك على أمر أنكرته ؟ أم لم تقف على غير ما ذكرته ؟

فأعلمه بقصة المرأة ، وما خرجت عنه اليه ، فعتبه ولامه على أن لم يبدأ بها كلامه ، ثم أخذ للجهاد من فوره حتى وافى بلاد غرسية فى جمعه ، فبادر بالكتاب اليه يتعرف ما الجلية ، ويحلف أنه ماجنى ذنبا ، فعنف المنصور رسله وقال لهم « قد كان عاهدنى ألا يبقى فى بلاده مأسورة ولا مأسورا ، وقد بلغنى بعد بقاء فلانة المسلمة فى تلك الكنيسة ، والله لا انتهى عن أرضه حتى أكتسحها » فأرسل اليه المرأة فى اثنتين معها ، وأقسم انه ما أبصرهن ولا سمع بهن ، وأعلمه أن الكنيسة التى أشار بعلمها قد بالغ فى هدمها تحقيقا لقوله ، فاستحيا منه ، وصرف الجيش عنه ، وحمل المرأة الى قومها .

وعند تقدير أخلاق المنصور لانستطيع أن ننسى أنه في سبيل الوصول الى المكانة العالية التي انتهى اليها ، والمحافظة عليها ، قد ارتكب بعض الجرائم التي تثلم المروءة ، وتطفى من لمعان شهرته ، ولست أحاول التهوين من أمرها ، فهو مثلا قد استغل ضعف امرأة ، وهي السيدة صبح ، ومثل لها دور المحب الواله حتى خدعها عن نفسها ، واستغل ذلك للحجر على ابنها ، وطمس شخصيته ، وقتل مواهبه ليخلو له الجو ، ولكن الواقع أن أندر شيء في معظم الرجال الذين صنعوا التاريخ ، وسيطروا على الحوادث ، ووجهوا الأمم ، هو عظمة النفس وسمو الروح ، وأساس هذه العظمة هو التضحية بالمنافع في سبيل الأخلاق الكريمة ، والنزعات الانسانية ، وانكار النفس انكاراً منبعثاً من الارادة القوية بدافع من طيبة القلب ، وصفاء النفس لا من ناحية الحزم والتدبير والاحتيال ، والسياسي العظيم ورجل الدنيا وواحدها في أغلب الأوقات شديد الأثرة ، كثير الاعتداد بنفسه يحاول أن يستغل كل شيء لنجاحه الشخصي ، ويجر منه المغنم ، ويحصل على المنفعة ، ويحاول في كل مناسبة أن يزيد قوته ، ويوطد أقدامه ، وزيادة القوة والسيطرة ليس من شأنها أن تزيد الانسان على الدوام رفعة وسمواً ، والنجاح عند السياسيين مقدم على جميع الاعتبارات ، ويرى بعض السياسيين أن السياسة لاترتكب فيها جرائم ، وانما يقع السياسيون في أخطاء ، وقد قال جيتي « رجل

العمل فى جوهره لا ضمير له ، والحياة فى نظر أمثال هؤلاء الرجال سيرة ناجحة ، لا رسالة مقدسة .

ومن الأقوال المأثورة أن الأمانة خير سياسة ، وأن الحق يعلو فى المدى المتطاول ، وأن دولة الباطل ساعة ، ودولة الحق الى قيام الساعة . فهل هذا الكلام يقال بين دفتى الكتب وأنه من الخير لمن يعمل به ، ويأخذ بحرفيته ، أن يعتزل الناس ويتخذ نفقا فى الأرض أو سلما فى الجو اذا استطاع الى ذلك سبيلا ؟ قد يكون هذا القول من الاسراف فى التشاؤم ، والشك فى نبل الانسان ، وضعف الثقة بالنفس البشرية ، ولكن من الواضح أن السياسة ليست مجالا للقداسة ، وأن النجاح عند السياسيين مقدم على كل شىء ، وأن الضرورات فى نظرهم تبيح المحظورات .

وقد خرج المنصور من أكنان الخمول ، وزوايا النسيان الى ضواحى النباهة ومدارج العظمة ، ولم يرتكب عملا من أعمال القسوة بغير مسوغ ، والخوف الذى أدخله على نفوس الأندلسيين منع الثورات ، وقمع النزاعين الى العصيان برغم شدة ميل الكثيرين من الأندلسيين الى التمرد والخروج على الدولة ، والاستهانة بالحكام ، وربما كان مرد ذلك الى عوامل جغرافية وعوامل اثنولوجية علاوة على الدوافع السياسية والدينية والاجتماعية ، وكان سلوك المنصور فى المسائل التى لا تمس مصلحته ، ولا تعترض طموحه ،

والعمل على تحقيق أهدافه ، لا غبار عليه ، بل انه كان يتشدد فى تحرى العدالة ، وقد فرضت عليه الضرورة السياسية من ناحية ، وغريزة المحافظة على الذات من ناحية أخرى ألوانا من القسوة والشدة والقمع استلزمها ضغط الظروف ، فقد ولد فى أسرة ليست من أسر الأندلس المعدودة ، ووصل الى أسمى مكانة بمتانة أخلاقه ومثابرته ودهائه ، ولكنه كان يلقى عنتا فى المحافظة على تلك المكانة ، فأصدقاؤه القدامى كانوا ينفسون عليه رقيه السريع ، وينتقصون قدرته ، وكان الخصيان الصقالبة يمقتونه ويتربصون به الدوائر لأنه سلبهم نفوذهم وجاههم ، وحطهم من منزلتهم الرفيعة ، وكانت الطبقة الارستقراطية ترى فيه منافسا محدث النعمة طريف المجد ، وكان الفقهاء يزورون عنه وينسبون اليه مخالفة الدين ، وكان الأمويون يكرهونه ويلعنون أيامه ، ويضمرون له السوء ، ويرمونه بأنه وصولى مغامر ، فكان مضطرا الى اصطناع الشدة والارهاب صونا لدنياه العريضة ، وطلبا للسلامة والأمن .

ويقتضينا الانصاف أن نقول ان المنصور كان فى غير ما يتصل بسياسة دولته وتثبيت سلطانه صديقا وفيا ، ورجلا نجدا مخلصا مقدرا لواجبه وتبعته ، مؤثرا للعدل ، وأخباره فى ذلك كثيرة ، وقف عليه رجل من العامة بمجلسه فنادى « يا ناصر الحق ، ان لى مظلمة عند ذلك الوصيف الذى على رأسك ، وأشار الى الفتى صاحب

الدرقة ، وكان له فضل محل عنده ، ثم قال « وقد دعوته الى الحاكم فلم يأت » .

فقال له المنصور « أو عبد الرحمن بن الفطيس بهذا العجز والمهانة ، وكنا نظنه أمضى من ذلك ؟ اذكر مظلمتك يا هذا » .

فذكر الرجل معاملة كانت جارية بينهما ، فقطعها من غير نصف .

فقال المنصور « ما أعظم بليتنا بهذه الحاشية » ! ثم نظر الى الصقلبى ، وقد ذهل عقله فقال له « ادفع الدرقة الى فلان ، وانزل صاغرا ، وساو خصمك فى مقامه حتى يرفعك الحق أو يضعك .

ففعل ، ومثل بين يديه ، ثم قال لصاحب شرطته الخاص به « خذ بيد هذا الفاسق الظالم ، وقدمه مع خصمه الى صاحب المظالم لينفذ عليه حكمه بأغلظ ما يوجبه الحق من سجن أو غيره » .

ففعل ذلك ، وعاد اليه الرجل شاكرا ، فقال له المنصور « قد انتصف أنت » اذهب لسبيلك ، وبقى انتصافى أنا ممن تهاون بمنزلتى ، فتناول الصقلبى بأنواع من المذلة ، وأبعده عن الخدمة .

ومن ذلك قصة فتاه الكبير المعروف بالميورقى مع التاجر المغربى ، فانهما تنازعا فى خصومة ، توجهت منها اليمين على الفتى المذكور ، وهو يومئذ أكبر خدم المنصور ، واليه أمر داره وحرمه ،

فدافع الحاكم ، وظن أن جاهه يمنع من تحليفه اليمين ، فصرخ التاجر بالمنصور فى طريقه الى الجامع متظلما من الفتى ، فوكل به فى الوقت من حمله الى الحاكم ، فأنصفه منه ، وسخط عليه المنصور ، وقبض عنه نعمته ونفاه .

ومن ذلك قصة محمد فصاد المنصور وخادمه وأمينه على نفسه ، فان المنصور احتاجه يوما الى الفصد ، وكان كثير التعهد له ، فأنفذ رسوله الى محمد فألفاه الرسول محبوسا فى سجن القاضى محمد بن زرب لحيف ظهر منه على امرأته ، قدر أن سبيله من الخدمة يحميه من العقوبة ، فلما عاد الرسول الى المنصور بقصته أمر باخراجه من السجن مع رقيب من رقباء السجن يلزمه الى أن يفرغ من عمله عنده ، ثم يرده الى محبسه ، ففعل ذلك على ما رسمه ، وذهب الفاصد الى شكوى ماناله ، فقطع عليه المنصور وقال له : « يا محمد ، انه القاضى ، وهو فى عدله ، ولو أخذنى بالحق ما أطقت الامتناع عنه ، عد الى محبسك ، واعترف بالحق ، فهو الذى يطلقك»

فانكسر الحاجم ، وزالت عنه ريح العناية ، وبلغت قصته القاضى ، فصالحه مع زوجته ، وزاد القاضى شدة فى أحكامه .

وكان المنصور يراجع نفسه ، ويحاسب ضميره فى أمور كثيرة ، وفى بعض المواقف كان ينتصر ضميره ، ويتغلب على اصراره وعناده ، عرض عليه مرة اسم أحد خدمه فى جملة من طال سجنه ـ

وكان شديد الحقد عليه ـ فوقع على اسمه بان لا سبيل الى اطلاقه حتى يلحق بأمه الهاوية ، وعرف الرجل بتوقيعه ، فاهتم واغتم ، وأجهد نفسه في الدعاء والمناجاة ، فأرق المنصور اثر ذلك ، واستدعى النوم فلم يقدر عليه لأنه على ما يظهر لم يكن مقتنعا بينه وبين نفسه بعد تلك العقوبة الشديدة ، وكان يأتيه عند نومه آت كريه الشخص ، عنيف الأخذ ، يأمره باطلاق الرجل ، ويتوعده على حبسه ، فاستدفع شأنه مراراً الى أن علم أنه نذير من ربه فانقاد لأمره ، ودعا بالدواة في مرقده ، فكتب باطلاقه ، وقال في كتابه « هذا طليق الله على رغم أنف ابن أبي عامر » .

وظاهر هنا أن الصراع كان عنيفا في ساحة نفسه وأعماق ضميره بين حب الانتقام والتنكيل والميل الى ايثار العدل والانصاف .

وقد وصل المنصور الى ذروة القوة ، وقمة المجد ، فلم يسيء استعمال القوة ، ولم يطغه المجد ، وذوو الطبائع القوية يزيدهم الوصول الى المجد قوة لأن القوة هي عنصرهم الأصيل ، ولكن الضعفاء يفسدهم اقبال الحظ ، ويطغيهم الانتصار ، ويعلمهم الغرور والاختيال ، لأنهم يعتقدون أن عطايا الحظ دليل قدرتهم ، وقد وقف المنصور عبقريته على تثقيف سلطانه ، وشد أركانه ، فكان اذا قدم من غزوة لايحل عن نفسه حتى يدعو صاحب الخيل فيعلم مامات منها وما عاش ، وصاحب الأبنية لما وهى من أسواره ومبانيه ، وقصوره ودوره ، وكان يدرب فطنته ، ويشحذ ذكاءه في معالجة بعض

المشكلات التى تكاد تكون خارجة عن اختصاصه ، ومن ذلك قصة الجوهرى التاجر الذى قصده من المشرق من مدينة عدن بجوهر كثير ، فأخذ المنصور من ذلك ما استحسنه ، ودفع الى التاجر الجوهرى صرته ، وكانت قطعة يمانية ، فأخذ التاجر فى انصرافه طريق الرملة على شط النهر ، فلما توسطها واليوم قائظ ، وعرقه منصب ، دعته نفسه الى التبرد فى النهر ، فوضع ثيابه ، وتلك الصرة على الشط ، فمرت حدأة ، فاختطفت الصرة تحسبها لحما ، وصاعدت فى الأفق بها ذاهبة ، فقطعت الأفق الذى تنظر اليه عين التاجر ، فقامت قيامته ، وعلم أنه لايقدر أن يستدفع ذلك بحيلة ، فأسر الحزن فى نفسه ، ولحقه لأجل ذلك علة اضطرب فيها ، وحضر الدفع الى التجار ، فحضر الرجل لذلك بنفسه ، فاستبان للمنصور ما بالرجل من المهانة والكآبة وفقد ما كان عنده من النشاط وشدة العارضة ، فسأله المنصور عن شأنه ، فأعلمه بقصته ، فقال له « هلا أتيت الينا بحدثان وقوع الأمر ، فكنا نستظهر على الحيلة ، فهل هديت الى الناحية التى أخذ الطائر اليها ؟ » .

فقال « مر مشرقاً على سمت هذا الجبل الذى يلى قصرك » ـ يعنى الرملة ـ فدعا المنصور شرطيه الخاص به فقال له « جئنى بمشيخة أهل الرملة الساعة » .

فمضى ، وجاء بهم سريعا ، فأمرهم بالبحث عمن غير حال الاقلال منهم سريعا ، وانتقل عن الاضاقة دون تدريج ، فتناظروا فى

ذلك ، ثم قالوا « يامولانا ما نعلم الا رجلا من ضعفائنا ، وكان يعمل هو وأولاده بأيديهم ، ويتناولون السبق بأقدامهم عجزا عن شراء دابة فابتاع اليوم دابة ، واكتسى هو وولده كسوة متوسطة » .

فأمر باحضاره من الغد ، وأمر التاجر بالغدو الى الباب ، فحضر الرجل بعينه بين يدى المنصور ، فاستدناه والتاجر حاضر ، وقال له « سبب ضاع منا وسقط اليك ، ما فعلت به ؟ » .

قال « هو ذا يا مولاى » ، وضرب بيده الى حجزة سراويله فأخرج الصرة بعينها ، فصاح التاجر طرباً ، وكاد يطير فرحاً ، فقال له المنصور « صف لى حديثها » .

فقال « بينا أنا أعمل فى جنانى تحت نخلة اذ سقطت أمامى ، فأخذتها ، وراقنى منظرها ، فقلت ان الطائر اختلسها من قصرك لقرب الجوار ، فاجتزت بها ، ودعتنى فاقتى الى أخذ عشرة مثاقيل عيونا كانت معها مصرورة ، وقلت أقل ، ما يكون فى كرم مولاى أن يسمح لى بها » .

فأعجب المنصور ما كان منه ، وقال للتاجر « خذ صرتك وانظرها ، واصدقنى عن عددها » .

ففعل وقال « وحق رأسك يا مولاى ما ضاع منها شىء سوى الدنانير التى ذكرها وقد وهبتها له » .

فقال المنصور « نحن أولى بذلك منك ، ولا ننغص عليك فرحك ، ولولا جمعه بين الاصرار والاقرار لكان ثوابه موفوراً عليه » .

ثم أمر للتاجر بعشرة دنانير عوضا عن دنانيره ، وللجنانى بعشرة دنانير ثوابا لتأنيه عن فساد ما وقع بيده ، وقال « لوبدأنا بالاعتراف قبل البحث لأوسعناه جزاء » .

فأخذ التاجر فى الثناء على المنصور ، وقد عاوده نشاطه وقال « والله لأبثن فى الأقطار عظيم ملكك ، ولأبينن أنه تملك طير أعمالك كما تملك أنفسها ، فلا تعتصم منك ، ولا تمتنع ، ولا تؤذى جارك » .

فضحك المنصور وقال « أقصد فى قولك يغفر الله لك » .

ولقد رأت عين المنصور الضوء أول ما رأت فى منزل قروى صغير ، ولكى يحقق طموحه لم يجد مندوحة عن تذليل عقبات كثيرة لم يحفل فى مغالبتها بشرعية الأساليب ، ويجمل بنا قبل أن نشتد فى لومه ، ونقسو فى الحكم عليه أن نتذكر قول المؤرخ النقادة العظيم توماس كارلايل « اذا أبصرت فى الميناء سفينة تغالب الموج ، وتشق العباب ، وهى ممزقة القلوع ، محطمة الصوارى ، مقطعة الأمراس ، فلا تسرع الى لوم ربانها ، وسل أعادت السفينة من نزهة بحرية فى نواحى المرفأ ، أم قفلت من رحلة شاقة طويلة حول الكرة الأرضية ؟ » .

ولم تكن رحلة المنصور هينة لينة ، فى ريح رخاء ، وبحر ذلول ، وطريق مسلوك ، وانما كانت رحلة هذا « الاوديسيوس » فى بحار زخارة ، وبين تيارات جارفة ، وصخور عبل •

ولقد ظلت ذكرى هذا الرجل العظيم والبطل النجد تثير الحماسة فى نفوس مسلمى الأندلس حتى فى العهد الذى ضربت فيه عليهم الذلة ، واستكانوا لعدوان الافرنج ، فقد ذهب مرة شجاع مولى المستعين بن هود الى اذفونش أحد ملوك الاسبانيين ، فوجده فى مدينة سالم ، وقد نصب سريره على قبر المنصور بن أبى عامر ، وامرأته متكئة الى جانبه فقال له « يا شجاع ، أما ترانى قد ملكت بلاد المسلمين ، وجلست على قبر ملكهم ! » •

فقال له شجاع وقد أثارت هذه الكلمة نخوته واستفزته الغيرة « لو تنفس صاحب هذا القبر وأنت عليه ماسمع منك ما يكره سماعه ، ولا استقر بك قرار » •

فهم به اذفونش ، فحالت امرأته بينه وبين شجاع ، وقالت انه « صدقك فيما قال ، أيفخر مثلك بمثل هذا ؟ » •

وهكذا كان المنصور يخلب ويفتن ويثير الحماسة ويستنهض العزيمة فى حياته وفى ذكراه بعد مماته •

والمؤرخون الاسلاميون لم يغفلوا الاشارة الى الجوانب القاتمة فى حياة المنصور ، ولكنهم متفقون فى الاجماع على الاشادة بعبقريته

وعظيم قدرته وكفايته ، وحسن بلائه فى الدفاع عن حوزة الاسلام وابعاد نفوذه وكلمته ، فابن الاثير يقول عنه « كان شجاعا ، قوى النفس ، حسن التدبير » وابن خلدون يقول عنه « كان ذا رأى وعقل وشجاعة وبصر بالحروب ودين متين » وانه « أعلى مراتب العلماء وقمع أهل البدع » ويقول « انه غزا ستا وخمسين غزوة فى سائر أيام ملكه لم تنتكس له فيها راية ، ولا فل له جيش ، وما أصيب له بعث ، وما هلكت له سرية » .

ويقول عنه ابن سعيد « كان جوادا عاقلا ذكيا .. ولم تهزم له راية » .

ويقول عنه الفتح بن خاقان فى المطمح « انه تمرس ببلاد الشرك أعظم تمرس ، ومحا من طواغيتها كلّ تعجرف وتغطرس ، وغادرهم صرعى البقاع ، وتركهم أذل من وتد بقاع ، ووالى على بلادهم الوقائع ، وسدد الى أكبادهم سهام الفجائع ، وأغص بالحمام أرواحهم ، ونغص بتلك الآلام بكورهم ورواحهم » ، ويقول فيه فى موضع آخر من كتابه « فرد تأبه على من تقدمه ، وصوبه واستخدمه ، فانه كان أمضاهم سنانا ، وأذكاهم جنانا ، وأتمهم جلالا ، وأعظمهم استقلالا ، فآل أمره الى ما آل ، وأوهم العقول بذلك المآل ، فانه كان آية الله فى اتفاق سعده ، وقربه من الملك بعد بعده ، بهر برفعة القدر ، واستظهر بالأناة وسعة الصدر ، وتحرك فلاح نجم الهدو ، وتملك فما خفق بأرضه لواء عدو ، بعد خمول

كابد منه غصصا وشرقاً ، وتعذر مأمول طارد فيه سهراً وأرقاً ، حتى أنجز له الموعود ، وفر نحسه أمام تلك السعود ، فقام بتدبير الخلافة ، وأقعد من كان له فيها انافة ، وساس الأمور أحسن سياسة ، وداس الخطوب بأخشن دياسة ، فانتظمت له الممالك ، واتضحت به المسالك ، وانتشر الأمن في كل طريق ، واستشعر اليمن كل فريق ، وملك الأندلس بضعا وعشرين حجة ، لم تدحض لسعادتها حجة ، ولم تزخر لمكروه بها لجة ، لبست فيها البهاء والاشراق ، وتنفست عن مثل أنفاس الفراق ، وكانت أيامه أحمد أيام ، وسهام بأسه أشد سهام ، غزا الروم شاتيا وصائفاً ، ومضى فيما يررم زاجراً وعائفا ، فما مر له غير سنيح ، ولا فاز الا بالمعلى لا بالمنيح ، فأوغل في تلك الشعاب ، وتغلغل حتى راع ليث الغاب ، ومشى تحت ألويته صيد القبائل ، واستجرت في ظلها بيض الظبا وسمر الذوابل ، وهو يقتضى الأرواح بغير سوم ، وينتضى الصفاح عن كل روم ، ويتلف من لا ينساق للخلافة وينقاد ، ويخطف منهم كل كوكب وقاد ، حتى استبد وانفرد ، وأنس اليه من الطاعة ما نفر وشرد ، وانتظمت له الأندلس بالعدوة ، واجتمعت له في ملكه اجتماع قريش بدار الندوة ، ومع هذا لم يخلع اسم الحجابة ، ولم يدع السمع لخليفته والاجابة ، ظاهر يخالفه الباطن ، واسم تنافره مواقع الحكم والمواطن وكان أديبا محسناً وعالماً متفننا » وينقل المقرى في « النفح » عن بعض مؤرخى المغرب قوله في المنصور « من أوضح الدلائل على

سعده أنه لم ينكب قط في حرب شهدها ، وما توجهت عليه هزيمة ، وما انصرف عن موطن الا قاهـراً غالبـاً ، على كثرة مازاول من الحروب ، ومارس من الأعداء ، وواجه من الأمم ، وانها لخاصة ما أحسب أحـدا من الملوك الاسـلامية شاركه فيها ، ومن أعظم ما أعين به مع قوة سعده ، وتمكن جده سعة جوده ، وكثرة بذله ، فقد كان في ذلك أعجوبة الزمان ، ومن قـوة رجائه أنه اعتنى بجميع ما علق بوجهه من الغبار في غزواته ، ومواطن جهاده ، فكان الخدم يأخذونه عنه بالمناديل ، في كل منزل من منـازله حتى اجتمع له منه صرة ضخمة ، عهد بتصييره في حنوطه ، وكان يحملها حيث سار مع اكفانه توقعا لحلول منيته ، وقد كان اتخذ الاكفان من أطيب مكسبه من الضيعة الموروثة عن أبيه وغزل بناته ، وكان يسـأل الله تعالى ان يتوفاه في طريق الجهاد فكان كذلك ، وكان متسماً بصحة باطنه ، واعترافه بذنبه ، وخوفه من ربه ، وكثرة جهاده ، واذا ذكر بالله ذكر ، واذا خوف من عقابه ازدجر ، ولم يزل متنزها عن كل ما يفتتن به الملوك سوى الخمر ، لكنه أقلع عنها قبل موته بسنتين ، وكان عدله في الخاصة والعامة وبسط الحق على الأقرب فالأقرب من خاصته وحاشيته أمرا مضروبا به المثل » .

ويقول عنه ابن حيان المؤرخ الأندلسي « لما انفرد بشأنه ، وتمكن من سلطانه ، توثق لنفسه ، وحصن حاله ، ورمى الى الغرض الأقصى من ضبط الملك والحجر عليه والاستبداد دونه ، وامتثل

رسم المتغلبين على سلطان ولد العباس بالمشرق من أمراء الديلم فى عصره ، فنال بغيته ، وتهنأ معيشته ، وأورثه عقبه بعده ، من غير اقتدار عليه بجند خاص ، ولا أصيل بعشيرة ، ولا مكابرة بمال ولا عدة ، بل رمى الدولة من كنانتها ، وعدا عليها بأعضادها ، وانتضلها بمشاقصها ، وانفق على ضبطها أموالها وعددها ، حتى حولها اليه ، وسبكها فى قالبه ، وسلخ رحالها برجاله ، وعفى رسومها بما أوضح من رسومه ، وأسقط رجال الحكم من سائر الطبقات والكتاب والعمال والقضاة والحكام وأصحاب السيوف والأقلام ، ومزقهم ، وأقام بازائهم من تخريجه واصطناعه رجالاً سدوا مكانهم ، ومحوا ذكرهم ، أعانوه على أمره » .

ويقول عنه لسان الدين بن الخطيب وهو يتحدث عن ولاية هشام بن الحكم : « فاستقر الأمر لهشام يكنفه الحاجب المنصور ، أسعد أهل الأندلس مولدا ، وأشهرهم بأساً وندى ، وأبعدهم فى حسن الذكر مدى ، الحازم العازم ، العظيم السياسة ، الشديد الصلابة ، القوى المنة ، الثبت الموقف ، معود الاقبال ، ومبلغ الآمال ، الذى صحبته الطاف الله الخفية فى الأزمات ، واضطرد له النصر العزيز فى نحو سبع وخمسين من الغزوات ، ولم تفارقه السعادة حالى المحيا والممات » .

ويقول فى موضع آخر من كتابه أعمال الاعلام « فقد أجمع الشيخة أنه نهض بجد لا كفاء له ، وأصحب سعداً لا نحس

يخالطه ، وأعطى اقبالا لا ادبار معه ، قد وثق بذلك فلم يلتفت الى غيره .. وكان مهيبا وقورا ، فاذا خلا كان أحسن الناس مجلساً ، وأبرهم بمن يحضر مؤانساً ومجالساً ، وكان شديد القلق من التبسط عليه ، والدالة والامتنان ، لا يغفرها زلة ، ولا يحتلم عنها جريرة ، ولم يكن يسامح في نقصان الهيبة ، وحفظ الطاعة أحدا من ولد ولا ذى خاصة .. وكانت الجزالة والرجولة ثوبه الذى لم يخلعه ، الى أن وصل الى ربه ، والحزم والحذر شعاره ، الذى لم يفارقه طول حياته ، والنصب والسهر شأنه في يومه وليله ، لا يفضل لذة على لذة تدبيره ، وحلاوة نهيه وأمره » .

ويختتم المستشرق الكبير دوزى حديثه عن المنصور بقوله « وخلاصة القول اننا اذا وجدنا أنفسنا مضطرين الى أن نستنكر الوسائل التى استعملها المنصور فى السعى وراء السلطة ، فاننا كذلك مرغمون على التسليم بأنه حينما ظفر بها كان نبيلا فى استعمالها ، ولو أن القدر أراد أن يولد المنصور على درج عرش فربما كانت الدنيا تجد أن ما يستحق اللوم فى أعماله قليل ، وفى مثل تلك الظروف كان يبدو فى صورة أمير من أعظم الأمراء الذين احتفظ التاريخ بذكراهم ، ولكنه لما كان قد رأى الضوء أول ما رأى فى منزل ريفى ، واضطر الى أن يشق طريقه خلال عقبات جمة ، فانا لا نملك سوى الأسف على أنه فى سبيل التغلب على تلك العقبات كان يندر أن يعنى بشرعية الأساليب ، وهو من وجوه كثيرة رجل

عظيم ، ولكن دون أن نتشدد فى الحكم عليه بقوانين الآداب الخالدة نجد اننا لا نستطيع ابدا أن نحبه ، بل نجد صعوبة حتى فى الاعجاب به » .

وهو حكم دقيق على ما به من صرامة ، وأحسب أن نصيب المنصور من الاعجاب ربما كان أكثر من نصيبه من الحب مهما يكن الحكم عليه .

ثبت المراجع

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقرى
الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة لابن بسام
الحلة السيراء لابن الأبار
جذوة المقتبس للحميدى
الصلة لابن بشكوال
تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضى
المعجب فى تلخيص أخبار المغرب لعبد الواحد المراكشى
البيان المغرب فى أخبار المغرب لابن عذارى
أعمال الاعلام للسان الدين بن الخطيب
مطمح الأنفس للفتح بن خاقان
صفة جزيرة الأندلس المنتخبة من الروض المعطار للحميرى
المطرب من أشعار أهل المغرب لابن دحية

الأنيس المطـــرب بروض القـــرطاس لأبى الحسن بن على ابن أبى زرع

تاريخ ابن خلدون

الاغتباط فى حلى مدينة الفسطاط لابن سعيد

دائرة المعارف الاسلامية

طوق الحمامة لابن حزم

الاحاطة فى أخبار غرناطة لابن الخطيب

المجمل فى تاريخ الأندلس للأستاذ عبد الحميد العبادى

الدولة العامرية وسقوط الخلافة الأندلسية للأســـتاذ محمد عبد الله عنان

رحلة الأندلس للدكتور حسين مؤنس

دراســـــات فى تاريخ الأدب العربى للمســـتشرق الروسى اغناطيوس كراتشكوفسكى

ديوان ابن دراج القســـطلى تحقيق وتعليق الدكتور محمود على مكى

Spanish Islam, by Reinhart Dozy.

The Moors in Spain, by S. Lane Poole.

The Moorish Empire in Spain, by Scott.

History of the Domination of the Arabs in Spain, by Condé.

فهـــرس

الموضوع	الصفحة

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٧٤/٤٣٣٦



هـذا الكتـاب :

يتناول حياة المنصور محمد بن عبد الله بن أبى عامر اعظم رجال الاندلس فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى واقدر وزرائها وأبعدهم شهرة ، وهو أحد الأعلام الثلاثة البارزين فى تاريخ الأندلس السياسى ، والآخران هما عبد الرحمن الداخل ، صقر قريش ، وعبد الرحمن الناصر .

وحينما نعد رجال الدول الاسلامية البارزين فى ميدان السياسة والحرب فان المنصور من غير شك علم من أعلامهم وتؤهله لهذه المكانة شخصيته الأصيلة وعبقريته الفذة ومواقفه المشهورة .

وفى هذه الدراسة محاولة لسرد قصة مغامراته وأعماله وما اشتملت عليه من دلالات بليغة وعبر صالحة . وقد ثبت المنصور مكانة المسلمين بالأندلس وأقام مدة سنين طويلة حضارتهم الزاهرة ، وبـ
انتهت عظمة المسلمين فى الأندلس وطويت ايامهم السعيدة وبدأ
الانحلال والاضمحلال الذى انتهى بخروجهم من الأندلس بعد
تعرضوا لالوان من المآسى الفاجعه



٢١ ٥٠

الثمن ٤٠ قرشًا